القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية
(أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
د. محمد أمين ملا

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

فريق التحرير
فاطمة الجفري
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
أمين نجيب
رولان قطان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

مارس - أبريل 2006
صفر - ربيع الأول 1427

توزع مجاناً للمشتركين
العنوان: أرامكو السعودية
ص.ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

الهواتف: رئيس التحرير 7321 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

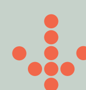
رسالة المحرر

قضايا

1

خلافاً لما اعتاد عليه القارئ خلال السنوات الثلاث الماضية، وأخذاً بما تلقيناه من ملاحظات القرّاء والمهتمين، فقد قدّمنا في هذا العدد مناخ القضايا ليكون الأول بين مناخات المجلة. والقضية في هذا العدد على جانب كبير من الأهمية خاصة بالنسبة إلى الشباب العربي الذي بات يلتفت أكثر فأكثر إلى مسألة **التعلم عن بُعد**، بكل ما فيه من مميزات وعيوب وتساؤلات حول مرموقية الأكاديمية وقيمة الشهادات الممنوحة بموجب هذا التعليم.





ويتناول باب «قول في مقال» مسألة التواصل الإنساني الفكري والثقافي وسط النمو المتواصل لأعداد مستعملي وسائط الاتصال الإلكتروني والمعتمدين عليها كلياً أو جزئياً.



طاقة واقتصاد

2

ولأن الكثير من وسائل الإعلام ردد مؤخراً أن **عصر النفط** شارف على الانتهاء، فقد استقصت القافلة مدى صحة هذه التوقعات من مصادر عديدة وجمعتها في تقرير يؤكد أن بعض هذه التوقعات قديمة قدَم اكتشاف النفط.. وأن تطور هذه الصناعة تنقيباً واستخراجاً يؤكد أن عمر النفط أطول مما يتوقع البعض.





إلى ذلك تتناول القافلة موضوع **عمالة المستقبل**، العمالة الماهرة التي شقت طريقها إلى سوق العمل مؤخراً ولا تزال تنمو ككرة الثلج. هذه العمالة القائمة على استخدام الوسائط التكنولوجية الحديثة والاستفادة منها حتى حدودها القصوى، هي التي ستخلف المزارع والصناعي التقليديين، وستستمد تأثيراتها إلى أنظمة العمل نفسها.





علوم وتقنية

3

وفي مناخ العلوم موضوعان رئيسان: أولهما يتناول **العلاقة العميقة ما بين الفن والعلم** اللذين يسيران ويتطوران سوية ويتداخل الواحد منهما مع الآخر، وليس بالاستقلال عنه كما يعتقد البعض.

ويتناول الموضوع الثاني «**الويكيبيديا**» هذه الموسوعة الجديدة التي ظهرت على شبكة الإنترنت، والمختلفة تماماً عن الموسوعات التقليدية على صعد التأليف والحجم وأيضاً الصدقية وصلاحيتها للاعتماد عليها كمصدر موسوعي للمعلومات.

ويضيف الفاصل المصور في هذا العدد اسماً جديداً إلى أسماء الكفاءات السعودية في فن التصوير: محمد خبّاز.. صاحب العدسة بالغة الحساسية تجاه الإيقاع لوناً وخطاً، الذي تتوازن عناصر الصورة عنده كل مرة في اتجاه، حتى تبدو أقرب إلى التجريد الهندسي مهما كان موضوعها كلاسيكياً.

4 الحياة اليومية

بالوصول إلى مناخ الحياة اليومية تعرض القافلة لثلاثة موضوعات مختلفة أولها **الشيخوخة في ميزان الاقتصاد**، بعدما راحت بعض الدراسات تحذِّر من الآثار الاقتصادية للعمر الطويل في حين أن دراسات أخرى باتت تجزم بوجوب فصل مفهوم الشيخوخة عن العجز.



زكي غواص

وثانيها، هو للمهتمين من المتقاعدين والموظفين الراغبين في **تأسيس عمل حر** بعيداً عن الوظيفة، ويتضمن جملة إرشادات لتلافي المخاطر التي تحدق عادة بالأعمال الحرة، ويجهلها من لم يختبرها سابقاً.

وثالثها، موضوع أُسري وتربوي حول **دور الأهل في مساندة أطفالهم** خلال تأدية الفروض المدرسية التي يحملونها معهم إلى البيت.

5 الثقافة والأدب

وتنتقل القافلة في محطتها ما قبل الأخيرة إلى عالم الثقافة والأدب لتتوقف أمام محطتين بارزتين: الأولى مع **الشعر النسائي في اليابان** حيث لعبت المرأة دوراً بارزاً في هذا المجال منذ خمسة عشر قرناً. والثانية مع الرواية العربية المعاصرة من خلال قراءة نقدية لآخر أعمال الروائي السوري حنّا مينه وهي رواية «**الذئب الأسود**»، وعرض مقتطفات منها.



6 ملف العدد

وختامها.. **الجريدة**، التي تخصها القافلة بملف هذا العدد، والغاية منه الرد على التساؤلات الكثيرة التي تدور في أذهان القرّاء حول جريدتهم اليومية، وكيفية صناعتها، وقدرتها على جمع هذا الكم من الأخبار، ومصادرها، ولماذا تختلف عن غيرها بهذه الناحية أو تلك وإلى ما هنالك من الأسئلة المبررة والمفهومة ولكنها تبقى عادة من دون متابعة وصولاً إلى الأجوبة.



الرحلة معاً

مجدداً.. عن حرية التعبير

علمونا في الجامعة، حين كنا ندرس الصحافة، أن لحرية التعبير شروطاً مشددة يجب أن يعيها الصحافي وإلا وقع وأوقع صحيفته في شر أعمالها. وبقينا طوال سنوات أربع نتجادل مع أساتذتنا حول ما يمكن اعتباره حرية تعبير وما يمكن تصنيفه باعتباره قواعد غير متفق عليها بالضرورة. كنّا نقول إن هذه القواعد أو الأطر غير المتفق عليها ربما تفقد الصحافة خاصيتها باعتبارها سلطة رابعة تراقب وتنشر وتُحرك رواكد مجتمعاتها، التي تعتبرها مشكّلة لآرائها ومؤثرة فيها.

بعد الجامعة تعرضنا كصحفيين للكثير من تجارب حرية التعبير وقيود هذه الحرية، ثم وعينا شيئاً فشيئاً أن ليس كل ما هو مطروح أو مطروق قابل للنشر. ثمة الكثير مما تصورت أنا كصحافي أنه صيد ثمين لي ولصحيفتي، ثم اكتشفت على طاولة رئيس التحرير أن النوايا الحسنة لا تشفع لما بين السطور من أبعاد قد تسيء إلى هذا التيار أو ذاك، أو تصيب شخصاً أو جماعة بالأذى، في الوقت الذي لم يكن قصدي إلا ممارسة سلطتي التي خولتها لي الصحيفة واعتراف المجتمع بهذه السلطة بغض النظر عن توابعها وربما أحياناً كوارثها.

يطرب الكثيرون للمقالات أو الأخبار التي تتناول بالنقد الشخصيات العامة ومنجزاتها وفاعلية مواقعها. وكلما كان شكل هذا التناول فجاً وكلما كانت الشخصية مرموقة، كلما كان لتناولها سلباً وقعٌ أكبر. وهذا الأمر هو بالتحديد ما يشكل فخاً للصحافي وإغراءً قاتلاً يدعوه إلى رفع نبرة قلمه أو ريشته أكثر فأكثر ليجد نفسه وقد وقع فجأة في



المحظور مهنياً وأخلاقياً. وما يوقعه في المحظور هي مقاييس القارئ والمجتمع ذاتها التي فوضته كسلطة رابعة، بغض النظر عن ادعائه أو دفاعه بأنه التزم هذه المقاييس لكنه استخدم مهنيته الصحفية ضمن حرية التعبير.

إن طرب القارئ ليس مهمة الصحافي، بل خدمة مصلحة هذا القارئ. فنشر المعلومات التفصيلية، على سبيل السبق أو الانفراد الصحافي، عن القوى الأمنية في بلد معين لا يفيد القارئ بشيء بقدر ما يفيد المجرمين الذين تواجههم هذه القوى الأمنية. وإذا كان الأمر صحيحاً من خلال هذا المثال القائم على ما يمكن أن يكون معلومات مجردة وصحفية تماماً، فكيف يكون الحال بالنسبة إلى التحليلات ومقالات الرأي والرسوم المنشطة للأفكار والعواطف والقادمة من باب حرية التعبير.

من هنا، يبدو أن حرية التعبير لم تجد شاطئاً نهائياً ترسو عليه في مفهومها. وفي ظني أنها لن تجد هذا الشاطئ مهما جدّت السير إليه لصعوبة الاتفاق على المفهوم ذاته بين كاتب وآخر وصحيفة وأخرى ومكان وآخر. فلكل شخص أو جماعة أو أمة مفهوم خاص بحرية التعبير. ولذلك لم تحاول الحكومات والمنظمات الدولية أن تضع تعريفاً جامعاً مانعاً لمفهوم حرية التعبير، وإنما لجأت كل الحكومات، ومن دون استثناء، لسن قوانين النشر الإعلامي، كل حكومة بما تفرضه ثقافة مجتمعاتها وتنوع شعوبها وخضوعها لمقررات دولية باتت ملزمة، تبعاً لجهة صدورها، لجميع الدول ووسائل إعلامها.

ولا يجب أن نغفل عن أن الكثير من القوانين التي تسن لصالح حرية التعبير كثيراً ما تخرق من النظم ووسائل الإعلام كلما تعارضت مع ما يراه الحاكم أو المُشرع مصلحة عامة. وللناس في هذه الحالة أن يختلفوا على ماهو مصلحة عامة، وربما استمر خلافهم لعقود إلى أن يتم الاتفاق من خلال الحوار وتقريب وجهات النظر على نقطة التقاء.

ولكي لا تأخذنا تصوراتنا فيما يتعلق بمفهوم حرية التعبير إلى ما ينافي الواقع فإن كافة الدول، صناعية وثالثية، يجمعها اللغط المثار حول حرية التعبير وتجمعها أيضاً مسألة المصلحة الوطنية العامة والعليا التي تفرض قوانين جديدة أو تلغي قوانين قديمة قائمة. ولا تستطيع أية دولة، مهما بلغت من فتح الأبواب للتعبير، أن تدعي أن دساتيرها أو قوانينها تخلو من حدود لهذا التعبير. ولعل ما يثار هذه الأيام من مداولات عبر وسائل الإعلام قد أشار إلى طرف من هذه الحدود.

ولعلنا نصل الآن إلى أن المسألة، ببساطة، مفتوحة على مصراعيها وستظل المجتمعات والأمم تتجادل وتتحاور بشأنها زمناً طويلاً لتلتقي، كما التقت مرات كثيرة من قبل، على الاعتراف بأن حرية التعبير نسبية. وربما تكون نتيجة كل هذا الجدل البشري الأزلي والآني حول هذا المفهوم أن تتخلق قوانين دولية توجد ما يمكن وصفه بمسؤولية حرية التعبير: متى تبدأ وأين تنتهي..؟

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى.. رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

القيادات الشبابية

تلقيت ببالغ الشكر والتقدير إهداءكم الكريم وكان له أطيب الأثر في نفسي لما تحمله القافلة من موضوعات متميزة ومفيدة جعلت منها روضة غنّاء وأزهاراً تنثر عطر الفكر والثقافة والمعرفة، يجد فيها القارئ هدفه وبغيته وغايته ومطمعه. ولفت نظري موضوع العدد الرائع الذي يهتم بالاستثمار البشري من خلال رصد التظاهرة العالمية للقيادة الشبابية.
أجدد لكم وللعاملين تحت رئاستكم الشكر والتقدير.

سلطان بن حمد الحمّاد
سكرتير تحرير مجلة الدعوة

لماذا كل شهرين؟

لقد مررت بمحتوى المجلة فوجدته يستحق كل الإعجاب والتقدير بكل المعايير وهذا ليس بمستغرب على مجلة القافلة، فهي منذ أمد بعيد تسلك طرق البحث لتطوير ذاتها وتذهب إليها، فتأخذ قارئها إلى ثنايا كل مفيد وشيق -ولكن هناك أمرين لا أدري لماذا أقدمت المجلة عليهما- أولهما، أجد أن كثيراً من صفحات المجلة يفتقر إلى لمحات الإخراج فهي سطور فسطور، وما يصاحب الإخراج من تجميل بالصور والخلفيات والأرضيات والخطوط والنواحي التجميلية تشد القارئ وتستحوذ على اهتمامه فيقبل عليها أكثر، أما الأمر الأكثر غرابة هو إصدار المجلة كل شهرين.
السادة هيئة التحرير: إن شهادتي في مجلتكم مجروحة لعدة أسباب. فهي من الغلاف إلى الغلاف ذات مستوى عال وصيغة متميزة غنية في موادها، ثريّة بكتّابها وطباعتها وتنفيذها وإخراجها.
إنني أجزم بأن هيئة تحريرها قادرة على إصدار عددين من مجلة القافلة في الشهر، وأعتقد أنها ليست أسباباً مالية أو كادراً إلا إذا ارتأت المجلة أن يكون لها نهج جديد حتى في توقيت الإصدار.
أخيراً أغبط مجلتكم لاستمرارها الدؤوب في تقديم الأفضل والأجمل والأفيد.

أحمد محمد طيّب
مستشار إعلامي - جدة

القافلة: شكراً على رسالتكم وملاحظاتكم القيّمة حول الإخراج التي، وللأسف، لم نتمكن من نشرها كاملة هنا لضيق المجال. ولكنها ستكون موضع اهتمام ومتابعة من قبل فريق التحرير.

خدمة التواصل

أود أن أعبر لسعادتكم عن سروري لما وصلت إليه مجلتكم الموقرة من تطور وتفوق علمي وثقافي، حيث ورد إلينا بريد من قرّاء بالجزائر يطلبون التواصل معنا وهذا دليل قطعي على نجاح هذه الإدارة الموقرة ومنتسبيها. دعاؤنا لكم وللجميع بالتوفيق المستمر لما يخدم ديننا وبلادنا. ويسرنا تواصلكم معنا عبر الأعداد الجميلة من مجلتكم الراقية كما نرجو إرسال العدد رقم 4 من المجلد 54 لهذا العام المبارك. شاكرين لكم كريم تعاونكم والله يحفظكم ويرعاكم.

أ. د. حامد بن محمد متولي
عميد كلية المجتمع بالباحة

القافلة: تعتز القافلة بمساعدة قرّائها على التواصل فيما بينهم. وسيصلكم العدد الذي طلبتموه -إن شاء الله-.

الهجوم على الأسهم

اطلعت على موضوع نشر في مجلتكم يتحدث عن الهجوم الشعبي على الأسهم في العدد 5 المجلد 54، وقد تناولتم الموضوع بشكل رائع بالفعل. فالجميع يبحث عن الربح السريع ويبيع كل ما يملك من أجل هذا الربح، من دون حساب للعواقب. وصغار المستثمرين يحتاجون إلى نصح وتوجيه وهأنتم تسهمون في نشر الوعي لأبناء هذا الوطن الغالي.
أسألكم كيف يمكنني الاشتراك في مجلتكم. أتمنى أن أكون أحد المشتركين وأن تصلني مجلتكم على بريدي باستمرار.

علي حسين عيسى الفريح
الأحساء، المبرز

القافلة: شكراً على رسالتك، وقد أحلنا عنوانك إلى قسم الاشتراكات، وستصلك القافلة بانتظام -إن شاء الله-.

الأخطاء المطبعية

تلقيت العدد السادس من المجلد 54، وأشكركم على تواصلكم المستمر معي كما في الأعداد الماضية. فأنتم ما زلتم على رقي وتقدم بثوبكم الجديد المتميز بمادة تبهر القرّاء والمتابعين.
وأود أن أشير هنا إلى بعض الأخطاء المطبعية التي حصلت في بعض الموضوعات الشيقة التي يعجز اللسان عن مدحها والثناء عليها لما تقدمه من فائدة للمجتمع.
وهذه الأخطاء هي:
- ويعبتر (في موضوع أعلام سايبرنتية ص 45) والأصح يعتبر.
- السلطات حسن (في ملف العدد ص 92) والأصح السلطان حسن.
- المشرين (في تعليق الصور ص 97)، والصحيح المبشرين بالجنة.
- وما ينطق ص 101، والصحيح وما ينطبق.

حسن حجي الشبيب
الهفوف

دكان الحساوي

تحية طيبة.. وبعد: يطيب لي أن أكتب إليكم هذه الرسالة معبراً عن مشاعري حيث اطلعت على مجلة القافلة بطبعتها الجديدة قبل أيام عند أحد الأصدقاء وأعجبتني أيما إعجاب، حيث أنني من قرّائها قبل خمسة عقود من الآن، فقد كانت «قافلة الزيت» تأتيني على عنوان منزلي بالرياض في المربع (دكان الحساوي) وأتلهف إليها عند مطلع كل شهر. وانتقلنا من الحي القديم الذي كنت أقطنه -مع أهلي- وأعتقد أن دكان الحساوي قد أغلق منذ فترة طويلة. والمجلة توقفت لفترة على ما أعتقد. المهم أني بعد تصفح عدد القافلة لشهري نوفمبر وديسمبر 2005م، أعجبني جداً وأعادني إلى تلك الحقبة (طبعاً مع الفارق). فهل بالإمكان مواصلة تزويدي باشتراك جديد؟

راشد بن عبدالله الحديثي
الرياض

القافلة: يسرنا أن يبقى القرّاء على مثل هذه المحبة للقافلة، وستصلك أعدادها مجدداً -بإذن الله-.

المشكلة.. لا تقتصر على المواصلات

قرأت باهتمام موضوع «في النقل العام، الوقت الضائع والوقت المشغول» الذي تضمّن ثلاثة إسهامات مختلفة في التوجه، ولا شيء مشترك بينها غير تطرقها كلها إلى مسألة انعدام القراءة في وسائل المواصلات العربية حيث «النوم هو النشاط الأبرز الذي يحل محلها» حسبما جاء في بعضها.

ومع إعجابي الشديد بمحتوى وتوجه كل من هذه الإسهامات، ما زلت أتساءل عن جدوى التوقف أمام قلة عدد القرّاء في المواصلات، وكأنهم كثر في أماكن أخرى!

فمشكلة القراءة في الوطن العربي سبق طرحها بشكل مفصل في القافلة، وفي غيرها، إن لم نقل في كل مجلة وصحيفة عربية والحالة «فالج لا تعالج» كما يقولون. أما إذا كانت الغاية من هذا الموضوع الكشف عن وقت ضائع يمكن استغلاله للقراءة، فإن هذا الاكتشاف يبقى ثانوياً وهامشياً.

فالأوقات الضائعة في المواصلات هي أقصر الأوقات الضائعة في حياتنا. وباستثناء ساعات قليلة من أصل ساعات العمل اليومية، هناك الكثير الكثير من الأوقات ضائعة في لاشيء على الإطلاق. وقت ضائع صباحاً بانتظار التوجه إلى العمل، أوقات ضائعة في العمل لأن المهمات غير مستعجلة، وأوقات الاستراحة ظهراً، وأوقات المقاهي والتجول في المراكز التجارية مساءً وأوقات التسمر أمام التلفزيون لمشاهدة أي شيء أو لا شيء ولا فرق بينهما، وأوقات الترويح عن النفس التي يمكن أن تتقطع عشرات المرات ما بين الصباح وموعد النوم ليلاً.. حتى النوم أصبح في حياتنا وسيلة لشغل ضائع.

فالمشكلة هي من وجهة نظري ثقافية. ومحورها الأول هو دورنا في هذه الحياة والتفاؤل بما يمكن للواحد منّا أن ينجزه في الأوقات الضائعة.

نواف عبدالقادر مرعي
بغداد

حول أدب الحج

اطلعت على مقالكم في عدد يناير - فبراير 2006م من مجلتكم الغرّاء، بعنوان «غياب أدب الحج» وأعجبني جداً. وأفيدكم بأنني كتبت قبل أكثر من أربعين عاماً زجلاً قصيراً بعنوان «أهازيج الحجيج»، ويسرني أن أرفقه لكم عله يعجبكم، فأرجو التكرم بنشره إن ارتأيتم صلاحيته للنشر.

وأفيدكم بأنني أحد قرّاء مجلتكم القدامى منذ حوالي خمسين عاماً، إذ كانت تصلني عندما كانت تحمل اسم «قافلة الزيت» وذلك في السبعينيات الهجرية، ولا تزال مستمرة. فشكراً للقائمين عليها.

لبّاك عبدك يا إله — وأتاك يلتمس النجاة
ووفود بيتك مذعنين — وواضعين لك الجباه
متمسكين بسنة الـ — ـهادي ومتبعي هداه

وتساوت الأزياء — فلم يبرز غني في غناه
الكل يلبس مئزراً — ومخيمين على الفلاه
وأذان إبراهيم لا — زال في الدنيا صداه

لبيك يا مولاي يا — من لا إله لنا سواه
لبيك هذا شعارنا — تلهج به كل الشفاه
من كل فجٍ أقبلوا — كل بلهجته دعاه

يا من تعالى في سماه — والكل يامن في حماه
أدعوك يا مولاي يا — من لا يخيب من دعاه
اغفر ذنوبي إنني — قد صرت من ضمن الجناة

أبو بكر حسن البار
جدة

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قراء القافلة مدعوون للمساهمة في هذه المناقشات على أن تكون كلمات المشاركة ما بين 300 و 600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة لذلك.



دكاكين حارتنا.. أكثر من ثلاثية

بداية كم أعجبنى المقال، وأعجبتنى مقولة الكاتب عن (الدكان والملحمة والفرن) ثلاثية الحي التى اعتبرها جزءاً لا يتجزأ من ثقافة الطفل واندماجه الاجتماعي. ولقد عاد بي المقال إلى سنوات طفولتي فعلاً، واكتشفت أنني وظفت هذه الثلاثية فعلاً في بعض قصصي القصيرة ورواياتي أو حتى حكاياتي لتلاميذي وأطفالي، لكني اكتشفت أنها لم تكن ثلاثية فقط، ولعلها كانت أكثر حيث تمتد لتشمل الخياطة (أو الخياط)، والحلاق، وبائع البطاطا المشوية، وبائع الفول السوداني المحمص.

كان «عم محمود» بائع الفول السوداني الطازج الساخن المحمص حريصاً على أن يكون ساخناً. ويعطي بالمقدار، ولا يسمح أبداً لأي زبون (عميل) - من قاطني البيوت العريقة - أن يمد يده إلى وعائه مهما كان العشم بينهما أو كان ذا دلال عليه، أو شاء أن يفعل ذلك بدعابة.

مع عم محمود عرفنا أن الحق حق، وقوة الشخصية في التمسك به لأن عم محمود لا يهدده أحد بعدم الشراء. إنه يفهم زبائنه وقد يسكب الفول ثانية في «السَبَتْ الخوص»، وقد يشترط على الزبون -إذا كان يعرف أنه مناكف- عدم استرداد ما ابتاعه، أو يتقاضى الثمن أولاً.

أما الحلاق فقد كانت له حكايات لا تُحصى مع زبائنه من رجال وأطفال الحي؛ لأنهم يذهبون إليه مرة على الأقل كل أسبوع لحلق الرأس أو الرأس والذقن.

كذلك الخياط والذي يرتبط خاصة بمواسم الصيف والشتاء والزي المدرسي وملابس المناسبات كالعيدين، وكيف ينتهي من عمله بسرعة أو يظل يؤجله حتى آخر لحظة، نظراً لشهرته مثلاً أو كثرة زبائنه، لكنه يتقن عمله، ومعظمهم كانوا يتقنون عملهم.

أما عم أحمد «دكتور الأحذية» فقد كان من رابع المستحيلات أن تترك الحذاء عنده ليصلحه لك في غيبتك حتى لو كنت ابن رئيس الحي أو ابن الباشا نفسه. إنه لا يصلح الحذاء إلا في وجود صاحبه، هذه عادته، يجلس بجواره إلى أن يتمها على أكمل وجه. وهو دكتور حقاً، لا أحد يستطيع أن يشتري الحذاء وينتعله ولو مرة واحدة من دون أن يمر عليه. لا بد أن يذهب أولاً إليه ليخيطه مرة أخرى ويضبط الكعب بطريقة خاصة. إنه لا يهاب أن ينهر صاحب الحذاء إذا ارتداه مرة أو مرتين قبل أن يذهب به إليه لأنه فرح به مثلاً. إن عم أحمد دكتور الأحذية لا بد أن يعلمه الأدب حتى لا يعود إلى فعلته ويقول له: لا يصح أن تستعمله قبل أن تأتينى وإلا فإنه لن يصلح، ويعطيه درساً طويلاً عريضاً في أسباب وفلسفة ودواعي إصلاح الحذاء وهو جديد ليكون أطول عمراً.

وعندما يطلب الزبون من عم أحمد: كم الحساب؟ يرد بكل سماحة: كل ما يأتي من عند الله خير، ويترك الموضوع لتقدير زبائنه، لذا كانوا يحبونه ويأنسون به، ويعتبرون الجلوس في دكانه على الدكة الخشبية العتيقة المهترئة نوعاً من الاجتماعات الودية العائلية التي تقرب الصلات وتزيد الثقافة والمودة والتعارف.

كذلك الست «أم علي» بائعة الملابس والمفارش والملاءات و...، ويطلقون عليها «الدَلاَّلة»، تلك التي كانت تمر على البيوت ولها زبائنها وتبيع بالتقسيط المريح جداً الذى لا يُرهق رب العائلة، ولا تأخذ ضريبة مبيعات أو تغالي في الأسعار نظير التقسيط، وإنما تتكسب بالحلال سواء أكان نقداً أم قسطاً. إنها تقيم علاقات طيبة ودية مع صاحبات البيوت من الزوجات وبناتهن اللاتي يتجهزن استعداداً للعرس سواء أجاء العريس المنشود أم لم يجئ.

كذلك «عم حنفي» بائع البهارات على عربته الخشبية الصغيرة. إنه لا يرد أي طفل أو رجل فقير أو امرأة معُدمة إنه يبيع للغني وللفقير، بالكميات الكبيرة والمتواضعة، وبالقروش الزهيدة والملاليم أيضاً، كم كان متسامحاً وشعاره (بيع رخيص تكسب أكثر، والبركة في القليل تطرح كثير).

أين نحن الآن يا أستاذ «كميل» من روعة ذلك الزمن الجميل، أعادني مقالك إلى زمن يستعصي على الاستعادة، زمن تعلمنا فيه الصدق والأمانة والتسامح والرضا والقناعة وكل القيم الجميلة تعلمناها ليس من الأسرة فقط ولكن من سداسية أو سباعية أو ثمانية الحي فى مدينتنا الصغيرة، سمّها كما تشاء، إنها ليست ثلاثية فقط بل ملحمة شعب عربي واحد إن أنصفنا القول.. أتمنى أن يفرد لهذا الموضوع ملف كامل، فالمقال شوقنا وتركنا ظمأى نتمنى أن ننهل أكثر من ينبوعه. أما عن «المول» فماذا يمكن أن نقول عنه:
إنه حقاً رائع وجذاب وجميل وأكثر إغراءً، وفيه كل شيء لكنه يفتقد الروح. إنه مثل لوحة جميلة تفتقد روح الحياة.

د. أميمة منير جادو
أستاذ مساعد في الحضارة الإسلامية - مصر

حول موضوع «مشتريات المول كوجباته السريعة.. بلا طعم» القافلة عدد يناير-فبراير 2006



هل لدينا طفرة شبابية حقاً؟!!

نحن نعيش في عصر الإعلام فعلاً، عصر الصورة، ومنذ قديم أسمع وتسمعون أن الصورة لا تكذب، وبالتدريج يتبين لي أن هذه المقولة من أكذب ما يمكن!!

طبقاً للصور على الأغلفة اللامعة المصقولة، وعلى الشاشات المبهرة الملونة سنجد شباباً يحتلون مواقع لم تكن متاحة أمامهم من قبل، ويفرح البعض ويصدقون أننا نشهد تغييراً -على الأقل في الوجوه والأجيال- وبالتالي ينبغي أن نبتهج ونستبشر بمستقبل مختلف للأمة وللأبناء والأحفاد. ومع الصور ينطلق تعبير له رنين مبهج، يحمله لفظ أو وصف «الجدد»، فهؤلاء هم الدعاة «الجدد»، وأولئك الشعراء «الجدد»، والسياسيون «الجدد»... الخ. وقد يندمج بعض أصحاب الأقلام في حوار جاد أو مصطنع، ساخن أو بارد حول صراع القديم والجديد، وجدل الحداثة مع التراث، أو ثنائية الأصالة والمعاصرة حتى يكتمل المشهد. والملايين التي تبحث عن أمل، تطمئن بالها وتميل إلى تصديق كل هذه الشواهد والمشاهد، والعرض بموسيقاه التصويرية، ومؤثراته الصوتية واللونية لينام الناس على حلم طال انتظارهم لتحقيقه، يسمونه «التغيير».

تابعوا الصور لتتأكدوا معي أن ما نراه من شخصيات وأوضاع وأفكار ومؤسسات تبدو جديدة هي مجرد صور، فالوجوه الشابة مثلاً هي مجرد امتدادات عائلية أو طبقية أو عشائرية أو طائفية لنفس تكوينات الماضي، والأفكار الجديدة هي مجرد طبعات منقحة ومصنفة وحروفها مصفوفة على ورق لامع فاخر، بينما تحمل نفس الخرافات والأساطير القديمة، أو حتى أحياناً قد تحمل اجتهادات كانت محمودة وكافية في زمانها .

وبالجملة فإن عمليات شد الوجه والنيولوك -كما يسمونه- هي من لوازم عصر الصورة، ومجرد رفض القديم أو الانشقاق والتمرد عليه لا يؤدي بالضرورة إلى إنتاج جديد واعد. لكن هذه لا تنفي جدية بعض المتناثرات الصغيرة هنا وهناك، في دائرة حكومية أو جمعية أهلية أو شركة تجارية أو إبداع فني أو أدبي، وأن تأتي المبادرة من الشباب فهذا ليس جديداً، لكنه لا يكفي لصناعة تغيير «إلا إذا»، التي يمكن أن أضع بعدها مقترحاً بسيطاً وممكناً هو احتضان هذه المحاولات والمبادرات مادياً ومعنوياً لتتحول إلى عيون صغيرة ثم إلى ينابيع أكبر ثم إلى موجات وأنهار تشق الطريق أمام تيارات تغييرية كبرى.

يسمونها المسؤولية الاجتماعية للرأسمالية، ويسميها آخرون مبادرات المجتمع الأهلي، وأحسب أن مقصدي يتجاوز هذا وذاك إلى دعوة للتكافل والتكامل والتضافر والتعاون والتحالف من أجل تنمية القليل المعزول من بذور التجديد الحقيقي. وبحكم عملي في أوساط الشباب، واهتمامي بالنشاطات الثقافية والتنموية أجزم بأن بدايات ما أتحدث عنه موجودة في الواقع ،لكنها غائبة عن مشهد الصورة غالباً!!! ولمن يهمهم الإصغاء لصوت التاريخ والتعلم من خبراته أقول إن نهضة الأمم تكون كذلك، أي عندما تقرر نخبة مخلصة للتغيير أن تتحمل تبعاته وأعباءه، وتحتضن بذوره وبداياته، وتخوض معاركه النبيلة المباركة ضد من يقاومونه خوفاً منه أو عزوفاً عنه أو إصراراً على قديم هو لا محالة زائل كما الدنيا بأسرها تزول.

بهذا يمكن أن يتغير الأصل فتتغير الصورة، لمن يهمه أمر تغييرها، أو يعنيه كيف نحن في عيون الآخرين.

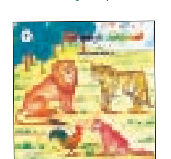
د.أحمد محمد عبدالله

محاضر جامعي في الطب النفسي - مصر

حول موضوع «شباب في مواقع القيادة» القافلة عدد يناير-فبراير 2006

وردنا

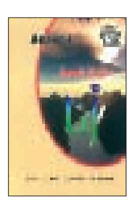
• مجموعة الدكتور المرهون للأطفال



«رحلة مدرسية» و «الثعلب يحتال على ملك الغابة» و «عُليَّة صديقة البيئة»، عناوين ثلاث مجموعات قصصية للأطفال من تأليف الدكتور جواد أحمد المرهون، تقع كل واحدة منها في أربعين صفحة. تتضمن كل مجموعة عشر قصص قصيرة.
ولكل قصة رسم ملون (وأحياناً أكثر من واحد) خاص بها ومعبر عن مضمونها. وتتنوع شخصياتها ما بين الأولاد والبنات وأهاليهم، وأماكنها ما بين البيت والمدرسة والحديقة والمزرعة. إضافة إلى حكايات الحيوانات في الغابة.
وتمتاز هذه المجموعات ببساطة الأسلوب وسهولة الفهم وجمال الصورة وهو ما يأمل المؤلف من خلاله إيصال القارئ الصغير إلى نتيجة مقبولة وحكمة معقولة.

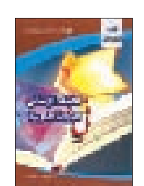


• المجموعة القصصية «أنــا»



مجموعة قصصية من إصدارات نادي أبها الأدبي للقاصة السعودية الفلسطينية نادية الفوّاز.
يقع هذا الكتاب في حوالي مئة صفحة تتضمن 22 قصة قصيرة تقول عنها الكاتبة في المقدمة: «كل قصة تبلغ عن رسالة إنسانية.. أتمنى أن تصل رسائلي وأن تجتاز عباراتي حدود الأفق البعيد ورتابة دقّات الساعة.. أن تهز في نفس الرجل وفي نفس المرأة شيئاً ما.. شعوراً ما.. أرجو أن تصل إليكم». يشار إلى أنه سبق لنادي أبها الثقافي أن نشر للأديبة نادية الفواز مجموعة قصصية بعنوان «الركض في مساحات الحزن» الفائزة بجائزة أبها للثقافة.

• الاتجاه الإنساني في الرواية العربية



كتاب صدر مؤخراً عن مؤسسة اليمامة الصحفية في إطار سلسلة «كتاب الرياض» ويتناول موضوعاً لم ينل اهتماماً على المستوى الأدبي عموماً والروائي منه على وجه الخصوص، وهو من تأليف الدكتور مصطفى عبدالغني الذي عرفه القرّاء من خلال مؤلفاته العديدة ومنها «الاتجاه القومي في الرواية» و «الجبرتي والغرب».
وقد قسّم المؤلف كتابه على عدة أبواب يتقدمها تحديد مفهوم النزعة الإنسانية، ومن ثم يتناول في الباب الأول الاتجاه والنزعة (ملاحظات أولية)، وفي الباب الثاني حقوق الإنسان في الرواية، وفي الباب الرابع الآخر في الرواية العربية، وفي الباب الخامس الاتجاه الإنساني والعولمة.. وصولاً إلى نزعة الاغتراب في الرواية العربية في الباب الثامن.

• النهضة وصراع البقاء



عن «المؤسسة العربية للتحديث الفكري» و «المركز الثقافي العربي» كتاب جديد للدكتور إبراهيم بدران بعنوان «النهضة وصراع البقاء - من مأزق التخلف إلى آفاق التقدم».
يقع هذا الكتاب في 318 صفحة موزعة على ستة فصول هي: بعيداً عن التقدم، التخلف، إشكالية النهوض، حول النظام العالمي، المشروع النهضوي، والفصل الأخير بعنوان «إلى أين؟».
وقد أهدى المؤلف كتابه «إلى الذين يؤمنون بقدرة أمتهم على تجاوز أزمتها، والخروج من مضائق الماضي إلى رحاب المستقبل، والانتقال من حالة التخلف المزمنة إلى آفاق التقدم. إلى إنسان العقل والعلم والإنجاز الذي تقوم على أكتافه نهضة الأمم».

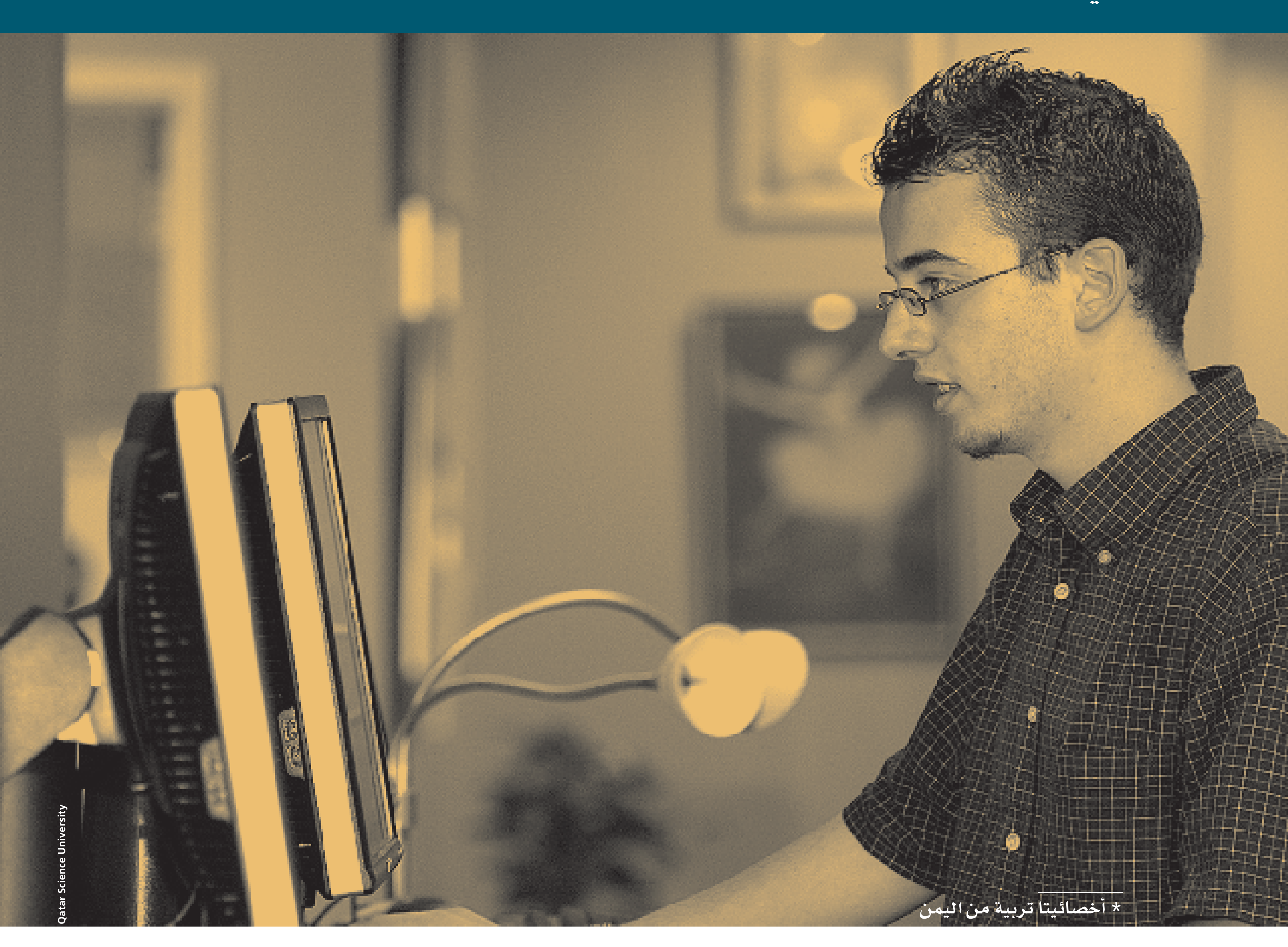
نموه وأنماطه وقيمة شهاداته..

التعلّم.. ولو عن بُعد



حتى سنوات قليلة خلت، كان «التعلّم بالمراسلة» يقتصر على حيّز صغير جداً من قطاع التعليم، وعلى مجالات محددة لا ترتقي في معظم الأحيان إلى مستويات الاختصاصات الكبرى. ولكن تطور تقنية الاتصالات، التي بات البريد التقليدي في أسفل قائمتها، ونمو عدد الطلبة في العالم بأسره بشكل أسرع بكثير من نمو عدد المقاعد الجامعية، زادا من الإقبال على التعلّم عن بعد، ليتحول إلى قضية، وما جودة أداء هذا التعليم وجدوى الشهادة الممنوحة بموجبه وقيمتها الفعلية في سوق العمل إلا بعض عناوين هذه القضية.

حنان عبدالحميد* تعرفنا على ما هية التعلم عن بعد ومساره التاريخي وآليات عمله، ومعايير جودته وقيمة شهاداته، أما منى عمر* فتتناول التجربة العربية في هذا المجال.



Qatar Science University

* أخصائيتا تربية من اليمن

بدايته كانت في برلين عام 1856م بواسطة البريد، وأصبح اليوم نظاماً يعتمد على الأقمار الصناعية والكومبيوتر والإنترنت والفيديو

1 التعلم عن بُعد.. نظرة عن قرب

حنان عبد الحميد

ضغطة زر على جهاز حاسبك تدخلك إلى صفوف الدراسة في الجامعات الأمريكية أو البريطانية، أو في أية جامعة أخرى، في أية دولة تختار.

عصر الثورة المعلوماتية، أو العصر الرقمي كما يسميه البعض، قدم خياراً آخر، أو شكلاً آخر لطلب العلم، عن طريق الجامعات والمعاهد الافتراضية التي تقدم تعليماً عن بُعد يتيح لمن لا يستطيع الانتظام في طلب العلم في مقر المؤسسة الأكاديمية مثل الجامعة أو معاهد التدريب لارتباطاته العملية أو للقيود التي تفرضها بعض المؤسسات الأكاديمية مثل التقيد بعرق أو عمر معين. مع هذا النوع من التعلم الذي يُمكِّن الدارس من مواصلة تعليمه وهو بين أفراد أسرته أو في مقر عمله. تصديق وزارة التعليم العالي في المملكة العربية السعودية للجامعة العربية المفتوحة، والتي تقدم صورة من صور التعلم عن بُعد طرح أسئلة حول هذا التعليم منها ما كان حول مصداقية التعلم عن بُعد وتنوعه، ومعايير جودته، ومدى انتشاره، وإسهاماته في تقديم خيار التعلم للناس، ونظرة القطاعين الحكومي والخاص له، ومستقبله. للإجابة عن هذه التساؤلات، ننظر عن قرب، للتعلم عن بُعد..

ما هو التعلم عن بُعد؟

التعلم عن بُعد هو نظام تقوم به مؤسسة تعليمية يعمل على إيصال المادة التعليمية أو التدريبية للمتعلم في أي مكان وأي وقت عن طريق وسائط اتصال متعددة مثل الأقمار الصناعية (الراديو والتلفاز) أو أشرطة الفيديو أو الأشرطة الصوتية أو الحاسوب أو الإنترنت أو تقنيات الوسائط المتعددة أو غير ذلك. ولقد تعددت وتنوعت طرق هذا النوع من التعليم وكثرت مسمياته وينطوي تحته التعليم بالمراسلة، التعلم المنزلي، التعليم المفتوح وغير ذلك.

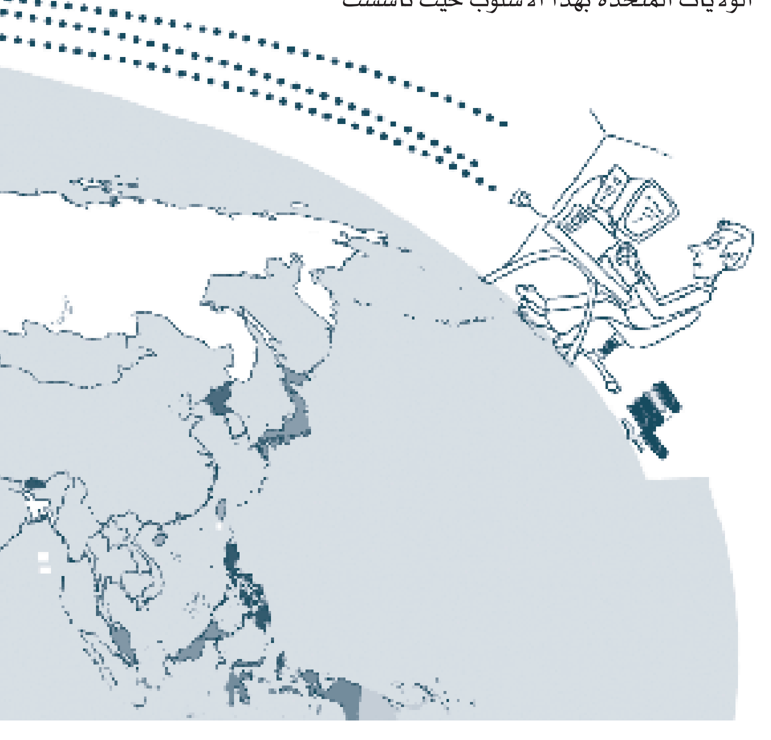
أما التعلم الإلكتروني كما يعرفه د. عبدالله بن عبدالعزيز الموسى، عميد كلية علوم الحاسب والمعلومات في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فهو طريقة حديثة للتعلم باستخدام الحاسب الآلي وشبكاته ووسائطه المتعددة من صوت وصورة ورسومات وآليات بحث ومكتبات إلكترونية، وكذلك بوابات الإنترنت سواء عن بُعد أو في الفصل الدراسي، ويتم من خلال ذلك استخدام التقنية بجميع أنواعها لإيصال المعلومة للمتعلم بأقصر وقت وأقل جهد وأكبر فائدة.

ويدلنا هذا التعريف إلى أن التعلم الإلكتروني مستخدم في نظام التعليم المعتاد ونظام التعليم عن بُعد أيضاً، ويعد التعلم الإلكتروني والتعلم عن بُعد نوعين متداخلين كلٌ منهما يصب في بوتقة الآخر، وسيتضح لنا أكثر، بعد العرض التاريخي القادم، كيف أن التعلم الإلكتروني أصبح الشكل الأساس لمعظم مصادر التعلم عن بُعد في وقتنا الحاضر.

بداياته..

أخذت البدايات الأولى للتعلم عن بُعد مكانها في ألمانيا عام 1856م، حيث فكر الفرنسي شارل توسان الذي كان يعلم اللغة الفرنسية في برلين، وجوستاف لانجنشدات، أحد أعضاء جمعية اللغات الحديثة في برلين، في تأسيس مدرسة لتعليم اللغات بالمراسلة.

وكانت جامعة لندن في المملكة المتحدة أول جامعة تدخل نظام التعليم عن بُعد عام 1858م، لطلبتها الذين تمنعهم ظروفهم من الانتظام في قاعات الدراسة، ثم أخذت الولايات المتحدة بهذا الأسلوب حيث تأسست





هناك ثلاث طرق لعمل مراكز التعلم عن بُعد، وصولاً إلى الجامعة الإلكترونية المعتمدة على الإنترنت والبريد الإلكتروني فقط

برامج التعليم بالمراسلة في جامعة إلينوي الحكومية عام 1874م.

تلا ذلك إنشاء المملكة المتحدة لجامعة الهواء عام 1963م، والتي سميت فيما بعد بالجامعة المفتوحة، وكانت الإذاعة والتلفزيون هما العنصران الأساسان في عملية التعليم، إضافة إلى المراسلات البريدية. وافتتحت الجامعة عام 1969م وبدأت الدراسة فيها عام 1971م. وتعد مصر أول دولة عربية استخدمت نظام التعليم عن بُعد عام 1976م.

والآن وفي عصر التكنولوجيا الرقمية من خلال الحاسب والإنترنت، أصبح التعلم الإلكتروني شكلاً أساساً للتعلم والتعليم عن بُعد، ويتزايد الآن استخدام المؤسسات الأكاديمية والشركات والأجهزة الحكومية في مختلف أرجاء العالم للإنترنت والتقنيات الرقمية لتقديم التعليم والتدريب، وتعد جامعة فونيكس في الولايات المتحدة الأمريكية أول من استخدم تقنية الإنترنت في نظام التعلم عن بُعد وكان ذلك في أوائل تسعينيات القرن الماضي.

آلية عمل جامعات ومراكز التعلم عن بُعد

هناك ثلاث طرق لعمل مراكز التعلم عن بُعد، إحداها أن تقوم الجامعة الانتظامية بفتح مكتب تابع لها لتقديم خدمات التعلم عن بُعد بالإضافة إلى احتفاظها بالشكل التقليدي للدراسة الجامعية في مقرها الرئيس، وذلك مثل جامعة بوسطن المعروفة ببرنامجها النظامي، فقد أكملته عام 2000م بافتتاح مكتب التعلم عن بُعد لتقديم برامج أكاديمية معتمدة للتعليم العالي من خلال تقنية الإنترنت والفيديو والأقراص المضغوطة.

نوع آخر يعمل على تقديم خدمات التعلم عن بُعد من خلال جامعة عادة ما تسمى بالجامعة المفتوحة، تتواصل مع الطلبة عن طريق المراسلات والأقمار الصناعية والإنترنت، وتفتح مكاتب لها في دول المتعلمين عن بُعد، وقد افتتحت جامعات مفتوحة في العديد من دول العالم مثل جامعة فونيكس (Phoenix) التي تعد من أكبر الجامعات في أمريكا وأفضل جامعة معروفة ومتخصصة في التعلم عن بُعد، وتأسست مبدئياً لتتيح فرصة إكمال التعليم للبالغين العاملين الذين تمنعهم ظروفهم من مواصلة الدراسة، لذلك تشترط لقبول الطلبة ألا تقل أعمارهم عن 23 عاماً وأن يكونوا موظفين، ولها أكثر من 239 مبنى تعليمياً ومركزاً حول العالم، وطرق التعليم فيها عبارة عن خليط من التعلم عن بُعد والتعلم النظامي والتعلم الإلكتروني.



معظم الأحصائيين يرون أن الجامعات الإلكترونية أقل صدقية من غيرها ومعظم الطلاب يفضِّلون الجمع بين التعليم الإلكتروني والتقليدي

«جامعة بلا أسوار» هو شعار النوع الثالث من هذه الأنظمة وتكون فيه الجامعة إلكترونية 100 في المئة، تقدم خدماتها عن طريق الإنترنت والمكتبات الإلكترونية والبريد الإلكتروني، مثل جامعة جونز الدولية (Jones)، وهي الجامعة الأولى المعتمدة بالكامل على الإنترنت.

وإذا أردنا أن نقارن بين مراكز التعلم عن بُعد في الجامعات المفتوحة والجامعات الاعتيادية مع الجامعات الإلكترونية البحتة لوجدنا أن معظم أخصائيي الموارد البشرية يرون أن الجامعات الإلكترونية البحتة أقل مصداقية من الجامعات المفتوحة والنظامية، وأن الإقبال على الجامعات الإلكترونية أقل من الجامعات المفتوحة، إذ إن معظم الطلاب يفضلون، حسب مقال في مجلة الإيكونومست الجمع بين التعلم الإلكتروني والمشاركة في نقاشات ومنتديات علمية وأبحاث عن طريق الإنترنت وبين التعليم المعتاد الذي يحضر فيه الطالب لصفوف الدراسة لفترة وجيزة من العام. ويشير المدير التنفيذي لبرنامج إدراة الأعمال في جامعة أوبورن على سبيل المثال، إلى طبيعة البرنامج «المهجنة» التي تقدمها الجامعة، فهي خليط بين التعلم الإلكتروني الذي يتفاعل فيه المتعلم مع المحاضرات من خلال الأقراص المضغوطة ومناقشات وأبحاث إلكترونية، والتعليم النظامي الذي يلزم الطالب بحضور 5 أسابيع للدراسة النظامية فيها، وهذا الخليط الإلكتروني النظامي لاقى استحساناً من الجامعة والطلبة، إذ إن أكثر من 90 في المئة من الطلبة أكملوا البرنامج التعليمي فيها. وتقسم البرامج الدراسية في هذه الجامعات إلى نوعين: برامج لمنح درجة البكالوريوس أو الماجستير أو الدكتوراه، وبرامج الدبلوم والتعليم والتدريب المستمر التي تتيح للفرد فرصة النمو المهني.

مرونة من هنا.. تعقيدات من هناك

مرونة عن بُعد

مثله مثل أي نظام تعليمي آخر، فإن التعلم عن بُعد له مميزات تجذب طلبة العلم إليه، وصعوبات ينبغي للمسؤولين عن مراكزه المبادرة في معالجتها، ومن أهم مميزات نظام التعلم عن بُعد المرونة، هذه المرونة التي تظهر في أكثر من جانب في أنظمته، فهو تعلم يمنح الطلبة والموظفين الراغبين في إكمال تعليمهم ونموهم المهني الفرصة لمواصلة مسيرة التعلم أو الحصول على دورات تدريبية دون الحاجة للانتظام في صفوف الدراسة، ودون قيود تتعلق بالعمر أو العرق أو غير ذلك.

طالب علم عن بُعد..

يمكّن التعلم عن بُعد المتعلم من الاعتماد على نفسه في الدراسة باستخدام وسائل التعليم المتنوعة من كتب وأشرطة وإنترنت وأقراص مضغوطة، وهو يختار التخصص المناسب لاحتياجاته، والمقررات التي تساعده في نموه المهني، ولكن من ناحية أخرى فهو بحاجة للدافع الذاتي الذي يساعده على الاستمرار في طلب العلم بمفرده، ويلعب الأهل والأصدقاء دوراً مهماً في هذه الناحية، كما يلعب اختياره للتخصص المرغوب لديه دوراً مهماً أيضاً في إذكاء دافعيته. لذلك دائماً نرى دور المعلم في هذه الأنظمة هو التوجيه والإرشاد بعيداً عن تلقين المعلومة، فالعملية التعليمية دائرة حول المتعلم وليس كما اعتدنا من تمحورها حول المعلم.

خبرات متنوعة وعالمية..

كان التعلم عن بُعد في الماضي القريب وسيلة تعلم يصعب من خلالها التواصل والنقاش مع المشرفين كما وضحت ذلك الأستاذة اعتدال إدريس أستاذة الثقافة الإسلامية في كلية دار الحكمة بجدة، والحاصلة على الماجستير في أصول الدين من الجامعة الأمريكية المفتوحة، أما الآن فإن التعلم عن بُعد يتيح التفاعل بين المتعلمين ومعلميهم من خلال النقد البنّاء وتبادل الآراء والخبرات المختلفة والدعم والتوجيه؛ ويكون ذلك عن طريق الاتصال غير المتزامن (مثل: البريد الإلكتروني)، أو الاتصال المتزامن (مثل: المؤتمرات الإلكترونية وغرف النقاشات)، وبهذا تحل مشكلة التواصل الإنساني المعرفي بين التلميذ والمرشد، والتي افتقدها التعلم عن بُعد في العقود الماضية.

الشؤون المالية..

إذا انتقلنا إلى الحديث عن الأمور المالية للتعلم عن بُعد فسنجد أن التعلم عن بُعد وفر على المؤسسين مصاريف سفر المعلمين وتنقلاتهم كما أكدت ذلك د. فاطمة باعثمان، الأستاذ المساعد بقسم علوم الحاسبات بجامعة الملك عبدالعزيز، والمستشار في عدد من المؤسسات التعليمية الأخرى: «إن النظام يوفر على الدولة مصاريف السفر والتنقل للأساتذة الزائرين»، وهو أيضاً أقل تكلفة من التعليم النظامي من حيث المباني والمعامل والتجهيزات الحديثة؛ وذكر د. علي بادحدح، أستاذ مساعد في قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة وعضو في المجلس التأسيسي للجامعة الأمريكية المفتوحة، أن مبنىً صغيراً مجهزاً بالتقنيات الحديثة كافٍ

من أهم أسباب ظهوره سد العجز في القدرة على استيعاب الطلاب، ونظمه تعتبر مكملة للتعليم التقليدي وليست بديلاً عنه


Qatar Science University

..نحو التحرر من المقعد الدراسي التقليدي

لتلبية احتياجات التعلم المفتوح، واستخدام التقنية الحديثة يساعد على إيصال العلم لعدد أكبر من الطلبة، مقارنة بالتعليم الاعتيادي، وإن كانت أسعار التقنية نفسها باهظة.

الوجه الآخر للتقنية

التقنية الحديثة هي أحد أهم الأسباب التي أسهمت في تطور وتقدم خدمات التعلم عن بُعد، ولكنها من وجه آخر تعد صعوبة يواجهها المسؤولون عن هذه الأنظمة، فالمعلمون ما زالوا بحاجة إلى «تقبل» فكرة استخدام التقنيات قبل التدريب على استخدامها، وقد قام أعضاء من هيئة التدريس في جامعة يورك (York) في كندا بإضراب لمدة 55 يوماً حتى تم موافقة الجامعة على عدم إلزام الأساتذة بتحضير مواد إلكترونية، فمنهج التعلم عن بُعد أضاف حملاً أكثر على جدول أعمالهم من غير علاوات مالية.

معايير الجودة

أحد أهم الأسباب التي أسهمت في ظهور مؤسسات التعلم عن بُعد هو قدرتها على سد عجز مؤسسات التعليم العالي النظامية في استيعاب الطلبة، وذكر د. سفيان عبداللطيف كمال في بحثه «مراجعة تحليلية لكتاب جامعات التعليم عن بُعد والجامعات التقليدية» أن الحكومات كانت في كثير من الأحيان وراء قيام الجامعات المفتوحة لإدراكها بقدرتها (الجامعات المفتوحة) على توفير مقاعد للدارسين بتكلفة أقل من الجامعات النظامية وتعليم جيد النوعية.

ونظم التعلم عن بُعد بذلك تعتبر مكملة للتعليم الاعتيادي ولا يمكن أن تكون بديلاً عنه، ويجب بناءً على ذلك أن تعمل هذه المؤسسات النظامية والمفتوحة على أساس من التعاون وتبادل الخبرات المتنوعة. ولذلك نجد أن التعلم عن بُعد مثله مثل التعلم النظامي في الجامعات الغربية، وذكرت مجلة الإيكونومست أن الأكاديميين يؤكدون مساواة طلبة التعليم النظامي مع نظائرهم من طلبة التعلم عن بُعد، فكلاهما خضع لنفس معايير التقييم، الأمر الذي يجعل مسؤولي التوظيف يتعاملون مع شهادات التعلم عن بُعد كمثيلتها النظامية. وإذا أردنا وضع معايير جودة للتعلم عن بُعد، فإن هذه المعايير ستصب في ثلاثة قوالب: قالب تربوي، وقالب تقني فني، وقالب إداري.

من ناحية تربوية يجب أن تكون المناهج متناسبة مع احتياجات الطلبة ومراعية لبعدهم عن معلمي التخصص،

من أهم معايير الجودة: انتظام الطالب لفترة في قاعات الدراسة واعتماد المؤسسة التعليمية من قبل الوزارات

وقد يظهر ذلك في وضوح الطرح العلمي للمقررات، وسهولة التواصل مع المشرفين الأكاديميين عند مواجهة صعوبات وعند الرغبة في بدء نقاشات، وفي توفير وسائل تعليمية متنوعة متناسبة مع الأنماط التعلمية المختلفة. كما يجب أن تعكس وسائل تقييم العملية التعلمية مدى فهم الطالب واستيعابه للمادة المدروسة عن طريق اختبارات غير تقليدية يكتشف الطالب أجوبتها من خلال قراءة المقرر الدراسي وسبر أغواره، أيضاً يجب اعتماد وسائل تقييم أخرى من مشروعات تطبيقية وتقارير ميدانية وأبحاث علمية وخبرات عملية يقوم بها المتعلم، بما يضمن نموه الذاتي والمهني. إضافة إلى ذلك يجب أن يكون المتعلم على وعي وعلم بطرق التعلم الذاتي ومهارات الدراسة وذلك من خلال منهج أكاديمي يعطى للطالب في بداية تعلمه.

عنصر آخر مهم في معايير جودة التعلم عن بُعد من الناحية التعليمية هو ضرورة انتظام الطالب لفترة وجيزة من العام في قاعات الدراسة، وتؤكد سارة جوري روزنبلت خبيرة في التطور التاريخي للجامعات أن التدريس، وجهاً لوجه، يجب أن يكون سياسة تحتذى في هذه الأنظمة، لما فيه من تلبية لحاجة الإنسان للتواصل الاجتماعي المباشر.

أما من ناحية التقنية الفنية، فتشمل طرق توصيل الخدمة للمتعلم عن بُعد، من كتب ووسائل سمعية وبصرية وفضائيات ووسائط إلكترونية، وكل ذلك ينبغي أن يصممه الفنيون بالتعاون المثمر مع التربويين لينتج لنا وسيلة تربوية تعليمية ناجحة في تحقيق أهداف التعلم عن بُعد، كما عليهم أن يتواصلوا مع الطلبة لتدريبهم على المهارات الفنية المطلوبة ولحل المشكلات التقنية التي قد يواجهونها. وفي نفس السياق، فإن القوى الإدارية في مراكز التعلم عن بُعد يجب أن تعمل على اختيار البرامج المتناسبة مع احتياجات سوق العمل في المجتمع، وتأهيل خريجيها للعمل بكفاءة في مجال تخصصهم، وفي ذلك تقول د. فاطمة باعثمان إن « أهم معيار جودة أي نظام تعليمي هو المستوى العلمي والمهارات المختلفة التي يكتسبها الطلبة المتخرجون، بحيث تؤهلهم للعمل في القطاعات الملائمة لتخصصاتهم وبكفاءة».

ومن معايير الجودة الإدارية اعتماد مؤسسة التعلم عن بُعد من قبل وزارات التعليم العالي أو من قبل مؤسسات


PADIA/Saudi Aramco World/Dick Doughty

الحرم الجامعي التقليدي لا يزال يحتفظ بمكانته



سوقه تتضاعف كل عامين، وقيمة الإنفاق عليه في المملكة سترتفع من 30 مليون دولار حالياً إلى 125 مليوناً عام 2008م

تربوية معتمدة، لذلك فعلى الطالب الراغب في إكمال تعليمه عن بُعد أن يسأل وينقب عن وضع الجامعة أو المركز المنتسب إليه حتى لا يقع ضحية لمراكز التعلم عن بُعد التجارية.

مستقبل التعلم عن بُعد

اتفق معظم خبراء التربية والتقنية على المستقبل الواعد والمشرق والنامي للتعلم عن بُعد، دون أن يهدد نظم التعليم التقليدية. ولقد تبين لنا فيما سبق كيف أن التعلم الإلكتروني أصبح شكلاً أساساً ومهماً في جامعات ومراكز التعلم عن بُعد، ويصف هول التعلم الإلكتروني، في كتاب «استراتيجيات التعلم الإلكتروني» للدكتور بدر خان، بأنه السوق الواعدة الأسرع نمواً في مجال الصناعة التربوية، وتتوقع المؤسسة أن يتضاعف حجم سوقه أكثر من مرتين كل عام ابتداءً من عام 2002م. وأظهر مسح إحصائي قامت به «مجموعة البحث المبدئي» عام 2002م لبرامج التعلم عن بُعد في التعليم العالي نمواً متزايداً لأعداد الطلبة، حيث بلغ متوسط التسجيل السنوي لعام 2002م ببرامج التعلم عن بُعد في 75 كلية نسبة 41 في المئة، و ذكرت 92 في المئة من الكليات بأن معدل نمو التسجيل بها كان إما «قوياً للغاية» أو «قوياً» ولم تعان من نقص في معدل التسجيل.

أما في ساحة الشركات ومراكز التدريب، فتزايد استخدام تقنية التعلم عن بُعد أمر متوقع لما سيوفره من مبالغ كبيرة، فمثلاً شركة آي بي إم وكذلك شركة سيسكو، وهما من أكبر الشركات العالمية في مجال تقنية المعلومات، استخدمتا تقنية التعليم والتدريب الإلكتروني لتدريب الموظفين، ففي عام 2000م وفرت شركة آي بي إم ما يقارب 350 مليون دولار، ووفرت شركة سيسكو 240 مليون دولار من مصاريف التدريب.

وذكرت د. فاطمة باعثمان أن تقرير موقع ري اكسبو يشير إلى أن سوق المملكة في هذا النوع من التعليم هو من أكبر أسواق المنطقة، وأن قيمة الإنفاق فيه ستزيد من 30 مليون دولار حالياً إلى 125 مليون دولار مع نهاية عام 2008م، ولذلك فإننا نستطيع التعميم بأن المملكة العربية السعودية ستشهد تقدماً ملحوظاً خلال العامين القادمين في نظم التعلم عن بُعد والتي نطمح أن تكون نظماً تفاعلية يمكن الاعتماد عليها.

2 التجربة العربية في التعلم عن بُعد



منى عمر

لم تتأخر التجربة العربية في «التعلم عن بُعد» عن مثيلتها الغربية ولكننا نستطيع القول بأنها تتقدم ببطء. فمنذ عام 1986م تأسست جامعة القدس المفتوحة في فلسطين لتتيح فرصة التعلم وإكمال الدراسات العليا لأبنائها من الفلسطينيين في جميع الأقطار العربية. وتبعاً لذلك تم افتتاح عدة فروع لجامعة القدس منها البحرين والإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية وتعتمد طريقة الدراسة فيها في الوقت الحالي على التعلم الذاتي باستخدام الإنترنت وعلى حضور اللقاءات الأسبوعية للمناقشة وطرح الأسئلة. وتلا افتتاح جامعة القدس المفتوحة إنشاء عدة جامعات عربية أخذت بشكل أو بآخر بتجربة التعلم عن بُعد.

تجربة من السعودية

لرؤية أكثر شمولاً لماهية التعلم عن بُعد في العالم العربي وتحديداً في المملكة العربية السعودية قمنا بزيارة الجامعة العربية المفتوحة – فرع جدة والتقينا الدكتورة سميرة قطان مديرة المركز الإقليمي للجامعة لتحدثنا عن تجربة التعلم فيها. في البداية تحفظت الدكتورة سميرة على تسمية طريقة التعلم في الجامعة المفتوحة بأنه عن بُعد بالتحديد، بل هو تعلم ذاتي يتحمل الدارس فيه مسؤولية كبيرة في البحث عن المعرفة والوصول إليها. وعن نشأة الجامعة العربية المفتوحة أشارت د.سميرة إلى دور صاحب السمو الملكي الأمير طلال ابن عبدالعزيز، رئيس برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة النمائية (أجفند)، ورعايته المتواصلة للجامعة لتشمل ستة فروع في الوقت الحاضر موزعة بين الدول العربية في الكويت (المقر الرئيس)، والسعودية، والبحرين، ومصر، والأردن، ولبنان.

تعتمد الدراسة في الجامعة العربية المفتوحة على نظام التعلم المفتوح، وهو نظام مطبق في أكثر من 1200 جامعة في مختلف بلدان العالم. والجامعة تتيح فرصة للدارس للتعلم دون إلزامه بالحضور إلى الجامعة إلا في الاختبارات النصفية والنهائية فقط ما يجعل من نسبة الحضور المطلوبة 25 في المئة وما عدا ذلك يستطيع الطالب أن



كل برامج الجامعة العربية المفتوحة تم اعتمادها من الجامعة البريطانية ومعظم الطلاب العرب لا يتجهون إلى التعلم عن بُعد طواعية، بل كخيار مقابل آخر

يتواصل مع الجامعة وأساتذتها من خلال شبكة الإنترنت وبرنامج المودم المعد خصيصاً لمتابعة الأبحاث والواجبات المكلف بها الطالب ضمن تخصصه. وعن سؤال د. سميرة عن المستوى التعليمي وثقل المادة العلمية المتاحة في الجامعة العربية المفتوحة تجيب بأن كل البرامج الدراسية التي تدرس تم اعتمادها من الجامعة البريطانية المفتوحة، ومعظم البرامج الدراسية كاللغة الإنجليزية وآدابها، وتقنية المعلومات والحاسب وإدارة الأعمال نفذتها الجامعة العربية وفق اتفاقية تنص على أن تقوم الجامعة البريطانية المفتوحة باعتماد الدرجات العلمية والشهادات التي تصدرها الجامعة العربية المفتوحة،أي أن الدارس يحصل على شهادتين إحداها مصدقة من الجامعة العربية والأخرى من البريطانية المفتوحة وهذا بحد ذاته يمنح وزناً وجودة نوعية للجامعة وموادها. وبسؤال الدكتورة عن مدى إقبال الراغبين في إكمال دراستهم لمثل هذا النوع من التعلم أشارت إلى أن الإقبال كبير ويتزايد عاماً بعد عام. واختتمت د. سميرة حديثها بالإشارة إلى أن الجامعة العربية المفتوحة تعد خريجين في مجالات يحتاجها سوق العمل، وتصديق وزارة التعليم العالي في المملكة بشهادة الجامعة يتيح للدارس إنهاء دراسته العليا في أية جامعة عربية أو أجنبية. وبسؤال بعض الطالبات المنتسبات للجامعة عن استفادتهن من هذا النوع من التعلم أجابت سلافة الشمري من تخصص تقنية المعلومات والحاسب. وسماح الحذيفي من قسم إدراة الأعمال، بأن مدى الاستفادة كبير، خاصة أن الدراسة لم تحرمهما من الوظيفة أو النشاطات الأخرى رغم صعوبتها، وأشارتا إلى أن نظام التدريس من خلال المساعدات المقدمة ومنتدى الجامعة على الإنترنت الذي يسمح بالتواصل بين زملاء الفصل الواحد وأعضاء هيئة التدريس، سهل من طريقة الدراسة. وبسؤال سلافة عن استقبال سوق العمل للكفاءات الدارسة في الجامعة المفتوحة أوضحت أن جدية المواد الموازية للمواد الموجودة في أية جامعة علمية بالإضافة إلى المؤهل العلمي الذي يظهر من خلال أداء الخريجات العملي هو جواز المرور الذي من خلاله يتقبل سوق العمل كفاءاتنا، فهذا ما يهم أصحاب العمل، وليس طريقة الحصول على الشهادة سواء كانت عن طريق الالتحاق بالجامعة التقليدية، أو عن طريق الجامعة المفتوحة.

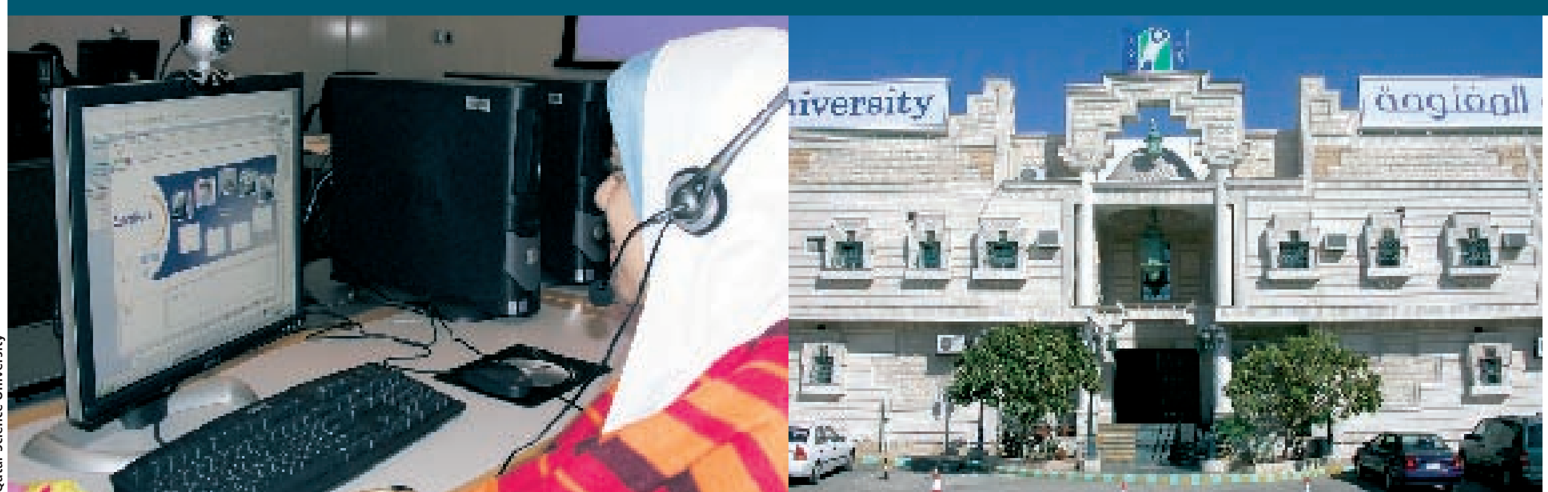
منحى آخر للتعلم الإلكتروني

من الملاحظ أن التعلم عن بُعد في العالم العربي أخذ منحنيين، الأول وهو ما ذكرناه آنفاً وهو أخذ الدرجة العلمية عن طريق الدراسة عن بُعد، والمنحنى الآخر باستخدام وسائل الاتصال المطورة لطلبة الجامعات المنتظمين في الدراسة كداعم أساس لتحصيل العلم والمعرفة دون الحاجة للسفر لحضور المؤتمرات أو محاضرات يتعذر على الجامعة (في البلد العربي) توفير الكادر التدريسي لها لأي سبب كان. فمنذ عام 2000–2001م بدأت جامعة الإمارات العربية المتحدة وبالتعاون مع جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية بعرض محاضرات مباشرة للجامعة الأخيرة باستخدام شبكة الإنترنت وذلك لتشجيع التعلم عن بُعد ولدمجه مع التقنية الإلكترونية الحديثة ولزيادة تفاعل الطلبة مع زملائهم في نفس التخصص في مناطق أخرى من العالم. كذلك قامت جامعة الإمارات بتوفير السبورة الإلكترونية أو بما يسمى البلاك بورد، والتي تتيح للطالب أخذ المحاضرات وتسليم الواجبات عند دخوله لموقع الجامعة الإلكتروني على الشبكة وإدخاله للرقم السري الخاص به. هذه الوسيلة وغيرها من وسائل الاتصالات الحديثة الأخرى وباستخدام شبكة الإنترنت وفرتها وتسعى إلى توفير الأفضل منها معظم الجامعات الحديثة ككلية دار الحكمة بجدة التي عرضت ندوة دولية عن «الذكاء الصناعي» بالتعاون مع د. فاطمة باعثمان وعلى شرف وزير الاتصالات وتقنية المعلومات أ. محمد جميل ملا في 21 ديسمبر 2005م. وقد تم عرض هذه الندوة من خلال الفصول العالمية والتي تم فيها وصل كلية دار الحكمة على الهواء مباشرة عن طريق الأقمار الصناعية بعشر جامعات عالمية.

في شأن التجربة العربية

ويبدو للمتأمل في التجربة العربية للتعلم عن بُعد أن من شأن الطلبة العرب تقبلها بشكل أفضل إن كان النظام المدرسي قد قدم التكنولوجيا كأداة تعلم فعالة لطلبة المدارس، بدلاً من مفاجآتهم بها إن جاز لنا التعبير في النظام الجامعي بدون مقدمات. ومن الملاحظ أيضاً أن معظم الطلبة في عالمنا العربي لم يتجهوا للتعلم عن بُعد طواعية، بل هو خيار متاح إزاء خيار التعلم الانتظامي، وهو خيار لم يعد مطروحاً لبعضهم لأحد تلك الأسباب التي تجاوزت عنها تلك الجامعات التي تقدم التعلم عن بُعد كالمعدل، أو سنة التخرج، أو الجنسية بالإضافة إلى التكلفة المالية الباهظة في المؤسسات الخاصة. ومن نتائج بحثنا أيضاً، أن الشريحة العمرية التي تتوجه للالتحاق بالجامعات العربية المفتوحة ليست هي ذاتها في العالم الغربي، فمعظم المنتسبين لها في العالم العربي، كانوا من الفئة العمرية المتوسطة

خيار قد يؤدي إلى النجاح المهني لمن لا سبيل آخر لديه، غير أنه يحرم الطالب من غنى تجربة الحياة الجامعية



الجامعة العربية المفتوحة للتعليم عن بُعد بشروط..

المحاضرة الجامعية في الإنترنت كافيه!

Qatar Science University

والغالبية هم من حديثي التخرج، والعكس تماماً بالنسبة للجامعات الأجنبية، فنسبة البالغين الذين تجاوزوا مرحلة الدراسة بعدة سنوات يبلغ 95 في المئة من طلابها، وقد يشير الفرق بين الشريحتين إلى اختلاف الدوافع التي تدفع الطلبة للالتحاق بهذه الجامعات ، فبينما يقبل الطلبة الغربيون على التعلم عن بُعد طلباً لنظام تعليمي لا يتعارض مع حياتهم العملية، يقبل الطلبة العرب في هذه المرحلة على التعلم المفتوح كساحة مفتوحة بديلة لساحة أخرى أغلقت أمامهم هي ساحة التعليم النظامي. مظهر آخر من مظاهر التجربة العربية في التعلم عن بُعد، وهو إقبال عدد كبير من الدارسين للتسجيل في هذه الجامعات، ثم انسحاب أكثر من نصفهم عند إدراكهم طبيعة التعلم كونه تعلماً ذاتياً يغيب عنه المعلم الملقن.. فإن كان معظم الطلبة هم من حديثي التخرج ومن أنظمة دراسية قلما تعتمد على البحث والتحليل والاعتماد على النفس واستخدام وسائل التقنية لاكتساب المعرفة، كيف لمثلهم تجاوز الصدمة ومجاراة مثل هذا النوع من التعلم؟! ويجب أن نشير هنا إلى أن جهل الطلبة لم يكن في استخدام وسائل التقنية الحديثة بل العكس هو الصحيح فلقد أثبتت الدراسات أن أكثر من 70 في المئة من شباب العالم العربي لديهم مهارات عدة في استخدام الإنترنت ولكن معظمها في برامج الترفيه والتسلية.

توافر الخيارات، ولحظة الاختيار

عملياً ، نستطيع القول بأن الإقدام على خوض تجربة مثل تجربة التعلم عن بُعد، خاصة تلك التي تحل محل الالتحاق بالجامعة، تتطلب من المقدم عليها القيام بعدة خطوات وطرح عدة أسئلة للتأكد من كونها تجربة تحقق له المردود القيم المتوقع، غير أن السؤال الذي يطرح نفسه بعيداً عن هذه الخطوات العملية، ويتعلق باتخاذ القرار بدايةً.

التعلم عن بُعد قد يكون أفضل الحلول المطروحة وأقصر السبل إلى تحقيق نجاح مهني في حالات ليس لدى من يمر بها خيار آخر، ولكنه قد يكون في حالات أخرى خياراً نأى به من اختاره عن حياة جامعية مليئة بتجارب غنية تستحق أن تعاش من أهمها التلمذة المباشرة على يد مرشد صاحب علم وفكر وليس من أبسطها قضاء الوقت في أروقة الحرم الجامعي، بين مناقشات حية، وتواصل إنساني مع شخصيات مختلفة، واتجاهات أكثر اختلافاً.

جزء من الرسالة التي نتلقاها من إتاحة حل التعلم الإلكتروني اليوم هو أن على طالب العلم في ظل التدفق الهائل للمعلومات أن يتحرر من هيمنة مصدر واحد على معلوماته المكتسبة، فهناك الأكثر الذي لن يجده إلا إذا بحث بين السطور وخارج دفتي الكتب. وهذا ما يحققه التعلم عن بُعد كلياً من ناحية اعتماد المتعلم على البحث المستقل طلباً للمعرفة في الكتب، وما يفتقده جزئياً وأحياناً كلياً من حيث أن التعلم عن بُعد فيه قرب من المعلومة المجردة التي يستطيع أياً كان أن يجدها في الكتب، وبعد عن المعرفة التي يجسدها الأساتذة الذين جمعوا بين المعلومة وتطبيقاتها، وبين الخبرة وتنوعها ليقدموا منبعاً متدفقاً من المعرفة قد يكون التعلم عن بُعد، ببعده عن التواصل البشري المباشر المستمر، قد أبعد الدارس عنه.. وبين هذا وذاك، يبقى التعلم عن بُعد جزءاً من منظومة الابتكارات التي خلقت لتناسب وضعاً يحتاج إلى تسوية ، وخياراً مطروحاً يضاف إلى بقية الخيارات التي يتحمل الإنسان، أولاً وأخيراً، مسؤولية اتخاذها، وانعكاساتها على سير حياته القادمة.

قول في مقال

العيش في فقاعات تكنولوجية

أدى ازدياد الوقت الذي يمضيه الإنسان مع الوسائط الإعلامية التكنولوجية إلى التنبيه من جملة آثار سلبية حقيقية أو وهمية. ومع تطور هذه الوسائط إلى أشكال تجعل المتلقي مشاركاً في صناعتها، سلك التنبيه منعطفاً جديداً في اتجاه التحذير من تفتت الحياة الاجتماعية وتحول الأفراد إلى جزر منعزلة، لا صلة ما بينهم إلا عبر الوسيط الإلكتروني.
محمد العمودي* يبدد بعض القلق، مشيراً إلى أن تعدد الخيارات يستوجب السيطرة الجيدة على القرار.

بدلاً من انتظارنا لنشرة الأخبار وسماعها لنعرف من الأخبار الرياضية ماذا كانت نتيجة المباراة التي فاتتنا مشاهدتها.. نستطيع أن نحصل على النتيجة من خلال الاشتراك في نشرة الأخبار الرياضية عبر البريد الإلكتروني.. أو مشاهدة المباراة كاملة بواسطة تسجيلها على جهاز الأسطوانات الرقمي.. وبدلاً من اجتماع العائلة أو الأصدقاء في أمسية الخميس الأول من كل شهر للاستماع إلى أغنية مطربنا الجديد كما كان يفعل آباؤنا وأجدادنا مع أغاني أم كلثوم.. نستطيع أن نسمع ما نريد وقتما نريد أينما نريد بواسطة الراديو الرقمي أو الآي بود.. وبدلاً من تكلف عناء زيارة كل الأقارب لتهنئتهم بعيد الأضحى.. نستطيع أن نمرر رسالة تهنئة واحدة لكل الأقارب عبر الهاتف الجوال.. وبهذا.. أصبحنا نعيش في قوقعة تكنولوجية استمرأنا عزلتنا فيها بسبب السهولة التي سيرت بها حياتنا.. ولكننا نخاف من اللحظة التي تسرقنا فيها سكين الوحدة، فنتلفت حولنا آملين أن نجد حس إنسان.. أو لمسة بشر.

فهل إن خوفنا من التحول إلى جزر منفصلة لا يعرف أحدها الآخر.. وخوف المراقبين للساحة على العلاقات الاجتماعية مبرر أم لا؟

تعدد الخيارات ووجوب السيطرة على القرار

الوسائط الإعلامية التكنولوجية التي تصل إلينا في هذه الأيام بين فترة وأخرى تختلف عن تلك التي اعتدنا عليها في كونها تمنحنا فرصة اختيار وتشكيل، بل وتصميم ما نود تلقيه من العالم الخارجي في وسط سماه وارن بيرجر الكاتب في مجلة ريدرز دايجست بإعلام الأنا iMedia.. مثل جهاز الآي بود iPod الذي يسمح لنا بالانفصال عن العالم الخارجي والعيش في فقاعة موسيقية أو صوتية من اختيارنا، وجهاز الأسطوانات الرقمي DVR الذي يسجل كل ما نود متابعته من قنوات التلفزيون المختلفة، والمساحات الشخصية التي تتيح حرية التعبير على الإنترنت Blogs والبريد الإلكتروني الذي يسمح لعلاقات صداقة حميمة دون أن يرى أحدهم صاحبه لسنوات، والصحف المخصصة على الإنترنت customized newspaper.

هذه الوسائط لم تنتشر بيننا نحن العرب بالسرعة نفسها التي انتشرت بها في الدول التي أنتجتها. ففي أمريكا وحدها نجد أن هناك 27 مليون نسمة يمتلكون واحداً أو أكثر من هذه الوسائط كما ذكر وارن بيرجر في مقاله. ولكنها تتجه إلى

* كاتب صحافي سعودي

الانتشار بخطى واسعة ثابتة في أوساط الشباب العرب.. الذين يشكلون في دولة مثل السعودية نحو 50 في المئة من عدد السكان. ورغم المخاوف التي يثيرها وران بيرجر والتي بدأت تثار عبر الصحف اليومية العربية والدوريات الثقافية حول حذف هذه الوسائط لعنصر الدفء البشري والمشاركة الإنسانية من تفاصيل حياتنا اليومية.. غير أنني أرى أن هذه المخاوف ليست مبررة إذا نحن توقفنا عن اجترار عقد الاضطهاد والنقص التي تنقض علينا، أو تنشط فجأة في داخلنا إزاء كل جديد لم نعرف بعد أبعاده، فتشوش حكمنا عليه، ونظرنا إلى أبعد من التسلية المريحة الملائمة التي تمنحنا إياها هذه الوسائط. إنها تعطينا شيئاً لم نعتد أن نجده بين أيدينا، وهو الخيارات المتعددة اللا محدودة للمواد الإعلامية التي نود أن نتلقاها كجمهور.. بالإضافة إلى السيطرة والقدرة على صنع القرار فيما نريد أن نتسلى.. نتعلم.. نتأمل.. نفهم.. نعرف.. من خلاله.

العزلة بين الأهل والانفتاح على الآخرين

وفقاً لطبيعتنا البشرية.. كلما حصلنا على مساحات حرية.. طالبنا بمساحات أكبر.. فلم نعد نقنع بكوننا مجرد مشاهدين معدومي الحيلة يتغذون على تيار إعلامي محدود.. فبدأنا نتلمس مثلاً في المواقع الشخصية على الإنترنت متابعة الشباب العادي للأخبار، ليس كمتلقٍ فقط بل كمصدر لها.. وبدأنا نرى مجلّات إلكترونية مجانية يعدها شباب اكتفى بدوره كقارئ لسنوات قبل أن تأتي هذه الوسائط الإعلامية لتحرره.. وبدأنا نشاهد رؤى سينمائية ونسمع أغنيات يكتبها ويلحنها أو يمثلها ويوزع موسيقاها شباب هاوي لا يفكر في احتراف الفن..

ومع أننا نسمع بين الفينة والأخرى عن انعزال الشباب العربي عن أهاليهم، فهذا ليس ناتجاً عن أنهم يريدون العزلة في فقاعاتهم الخاصة ليستمتعوا ببركات هذه الوسائط.. بل إن فقاعاتهم الخاصة اتسعت لتشمل مجتمعاً كاملاً من شباب يشاركونهم اهتماماتهم عبر الإنترنت.. ولكن هذه العزلة عن الأهل ناتجة عن عدم قدرة الأهل على التأقلم مع وضع جديد وعهد جديد.. إن كنا غير مستعدين أو غير ناضجين لتلقي حرية كهذه، فالخطأ لا يكمن في اقتناء وتشجيع هذه الوسائط.. ولكن يكمن في استخدامنا وتعاملنا مع من يقتنيها.

الخطر على التعددية

وتقودنا هذه العزلة الإجبارية التي يعاني منها الأهل والشباب على حد سواء في مجتمعنا العربي إلى عزلة اختيارية يحذر منها بعض الكتاب الغربيين مثل كاس سنستين و واتس واكر حيث يقولان إن قدرة هذه الوسائط على عزل كل ما لا يريده مستخدمها وتقديم كل ما يريده تشكل خطراً على التعددية الفكرية، بل وتقود إلى التطرف في الأفكار والمبادئ. فإذا كنت قادراً على تشكيل المواد الإعلامية التي تريد تلقيها كمشاهد أو مستمع أو قارئ.. فمن الوارد جداً أنك ستلغي كل المواد التي تتنافى مع أفكارك، وبهذا تعزل نفسك داخل قوقعة رأي وليست قوقعة تكنولوجيا.. فلا تعود للتواصل إلا مع من يشاركك الآراء والاهتمامات.. ويجوز أن وجهة نظرهم صحيحة بشكل عام.. ولكني أشك في أنها قد تتحقق بشكل كامل في المجتمع العربي. لأننا لا نستطيع أن نغفل طبيعة هذا المجتمع الذي يتألق أفراده ويزهون بقدرتهم على النقاش أو الجدال بشكل أحرى. وقد لا نستطيع النظر من الزاوية نفسها التي ينظر منها أصحاب الرأي المعاكس لرأينا، ولكننا بالتأكيد نعشق أن نرى أن هناك طرفاً آخر يجرب مجرد تجربة معارضتنا.

الحضور الغائب للأشخاص

تذكر لنا الدراسات أن الشخص الغربي العادي يقضي ما يساوي 10 ساعات يومياً متواصلاً مع وسائط تكنولوجية وهو وقت أطول بالتأكيد من الوقت الذي يقضيه في علاقاته الشخصية مع الآخرين. ويعلق مايكل بول البروفيسور في إحدى الجامعات الأمريكية أن الاستخدام المفرط للوسائط الإعلامية الجديدة خلق حالة اجتماعية جديدة هي حالة الحضور الغائب للأشخاص. فبينما يحتلون الحيز المكاني بأجسامهم، نجدهم غير حاضرين بأرواحهم وأذهانهم. إذ إنهم إما منشغلين بالتحديق في شاشة الكمبيوتر لقراءة ما يهمهم، أو كتابة ما يهمهم، أو محدقين في الفراغ مع سماعات الآي بود في آذانهم. ونتيجة لهذه الحالة، نجد في الكتابات الغربية من يوصي عامة الناس في هذه الفترة الانتقالية من العصر، ببذل الجهد الواعي للخروج من سيطرة العزلة التكنولوجية والاندماج في المجتمع بين فترة وأخرى. ماذا ستكون نصيحتي للعرب إن أصبح معدل تواصل الشخص العادي منا مع هذه الوسائط الإعلامية 10 ساعات يومياً؟ تمسكوا بوجدانكم الجمعي كعرب.. حيث التواصل مع الآخر ضرورة من ضرورات الحياة.. ومع الهوية العربية بكل ما يمثلها من تقاليد وطبيعة ذاتية مختلفة عن طبائع الشعوب الأخرى.. لن نضطر لبذل الجهد الواعي لكسر حاجز العزلة بل سيكون التواصل.. كما كان سابقاً وكما سيكون مستقبلاً.. جزءاً لا يتجزأ من روتين الحياة.

النفط..
عصره أطول مما يتوقعون

لأسباب كثيرة، وأهمها أن النفط يستخرج من باطن الأرض بسرعة تفوق بكثير تشكله الذي يتطلب ملايين السنين، تصل إلى مسامعنا بين الحين والآخر توقعات تتحدث عن نهاية عصر النفط الذي سينضب حسبما يطرح البعض بعد بضعة عقود.

مراسلو القافلة، تتبعوا هذا الموضوع وفندوا، من وجهات نظر مختلفة، هذه التوقعات من بابٍ أن التطور الذي يستهلك النفط هو نفسه الذي سيمد بعمر هذا الوقود بحيث إن نضوبه لا يزال خارج المستقبل المنظور.



Padia/Saudi Aramco World/S. A. Amin

دفع الإنتاج القليل والأسعار المرتفعة بعض الخبراء إلى الحديث عن نهاية عصر النفط، ولكن هذه العوامل الاقتصادية نفسها هي التي حفزت التسارع نحو اختراعات قد تبقينا في عصر الذهب الأسود لسنوات عديدة قادمة.

فقد جاء في تحقيق كتبه في مجلة «بزنس تو» الامريكية ماير ماتيوز أن الخبراء قد توقعوا نهاية عصر النفط في أوائل العشرينيات من القرن الماضي. وتكرر الأمر عينه بعد الحرب العالمية الثانية. ثم عاد وظهر مرة أخرى وبطريقة أكثر وضوحاً قبيل انهيار أسعار النفط من 38 دولاراً للبرميل إلى 9 دولارات. الأمر الذي يقلل من أهمية هذه التوقعات بنضوب النفط. إذ إنه في كل مرة، كان ارتفاع أسعار النفط هو الدافع القوي وراء سعي المنقبين عن البترول إلى إيجاد طرق جديدة لشفط الهيدروكربونات من الأرض.

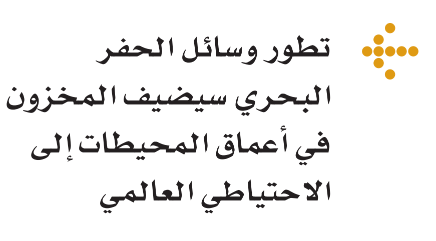
وهذا ما يحدث مجدداً. فاليوم، ارتفعت أسعار البترول إلى حوالي 60 دولاراً للبرميل، وليس هناك أي مؤشر لانخفاضها في المدى القريب.. وبالتالي، فإن هذا الارتفاع يسرع إجراء الاختبارات العديدة لإيجاد طرق حديثة لإطالة عمر النفط مما يبشر بثورة في عالم الطاقة.

بعض هذه الطرق هي مجرد أساليب قديمة تمت إعادة النظر إليها من جديد. وبعضها الآخر يعتمد على قدرات الكمبيوتر الهائلة التي لم تكن متوافرة في السابق. ويقدر الباحثون في المسح الجيولوجي الأمريكي أن مصادر الطاقة وطرق التكنولوجيا التي سيتم مناقشتها في الصفحات التالية قد تنتج أربعة تريليونات برميل، أي أكثر من مجموع ما تنتجه كل مخزونات النفط المكتشفة حالياً. ستأتي نهاية عصر النفط بالتأكيد يوماً ما، ولكن إذا ما أثمرت تلك الأساليب، فلن تأتي تلك النهاية في وقت منظور كما يتوقع البعض.

التنقيب البحري العميق

لقد وجهت أعاصير العام 2005م الأنظار إلى مدى مساهمة الآبار البحرية البعيدة عن الشاطيء في خليج المكسيك في الإنتاج الأمريكي للنفط. إذ قدرت بثلاثين في المئة قبل هبوب الأعاصير، بينما انخفض الإنتاج بعدها ليصبح عشرة بالمئة فقط. أما عالمياً، فنصف الإنتاج السنوي من النفط يعود إلى عمل المنصات البحرية.

ويعتقد أكثرية مهندسي البترول أن هناك الكثير من البترول المخزن في المحيطات الواسعة، ولقد ساعدت التكنولوجيا المصنوعة من المواد البصرية البلاستيكية المتطورة، وخصوصاً الآلات المصممة للتنقيب تحت الماء، والرجال الآليين الذين يعملون تحت الماء، على الوصول إلى هيدروكربونات



تطور وسائل الحفر البحري سيضيف المخزون في أعماق المحيطات إلى الاحتياطي العالمي





Padia/Saudi Aramco World/Tor Eigeland

تحت أعماق البحار لم يتم التوصل إليها من قبل. وباستخدام هذه التكنولوجيا المتقدمة على عمق أميال من السطح بعيداً عن الشاطئ في إفريقيا وآسيا، توصلت شركات التنقيب عن البترول إلى آبار جديدة، وحققت شركة شيفرون ترانزأوشن، وهي شركة تمتلك بواخر للحفر تحت الماء، رقماً عالمياً جديداً عندما حفرت على عمق يتجاوز الميلين تحت البحر. ويقدر المحللون في المسح الجيولوجي الأمريكي كمية النفط الموجودة تحت سطح البحار في جميع أنحاء العالم بثلاثمائة بليون برميل.

أما شركتا إكسون وموبيل وشركة البترول البريطانية فقد استثمرتا في العقد الماضي حوالي خمسة عشر بليون دولار، في محاولة لاستخراج النفط من أعماق البحار. وهي خطوة ذكية تحسباً لارتفاع أسعار النفط. أما التحدي الأصعب أمام خيار التنقيب البحري فيكمن في السيطرة على الحفارات عندما تصل إلى عمق ثلاثة أميال أو أكثر، مما دفع بعض الشركات، مثل شركة شلومبيرغ المتخصصة، إلى ابتكار حفارات متقدمة يمكنها تصوير الموقع الذي يحيط بها، بالإضافة إلى التقاط صور لاهتزازات الزلازل، مما يسمح للفنيين بتعديل تلك الحفارات فوراً على منصات الحفر. أما شركة البترول البريطانية، فقد أنشأت حفاراً يمكنه الحفر على عمق خمسة أميال (ثمانية كيلومترات) في مياه يبلغ عمقها أكثر من ميل واحد (كيلو متر ونصف) بقيمة بليون دولار.

فقد أوجدت المتطلبات الصعبة التي يحتاجها الحفر في الأعماق الكبيرة حقلاً جديداً من تكنولوجيا الحفر الآلية، و «سيبرنتكس» من أهم الشركات في هذا الحقل. فهي شركة تكنولوجيا فرنسية اخترعت سلسلة من الآلات التي تعمل تلقائياً تحت الماء. كما تعمل الشركة على تحديث رجل آلي قادر على إصلاح الصمامات والأنابيب والأدوات الأخرى التي تعمل تحت الماء خلال عملية الاستخراج.

الزيت الرملي

طبقاً لتقرير الوكالة الدولية للطاقة، انخفض إنتاج البترول في 33 دولة من أصل 48 دولة منتجة للنفط. ولكن كندا لن تواجه هذه المشكلة إلا بعد مضي عقود عديدة. وذلك بسبب الأراضي الواسعة في شمال ألبرتا التي تبلغ مساحتها سبعة وعشرين ألف ميل مربع، ويحوي باطنها مخزوناً كبيراً من النفط. في الواقع، تعتبر كندا من الدول المعروفة بمخزونها الكبير من النفط، وذلك يعود إلى وجود حوالي 175 بليون برميل من النفط الرملي المنتشر في المنطقة الباردة، مما يعادل حوالي ثلثي المخزون النفطي للمملكة العربية السعودية، والذي يقدر بمئتين وثلاثة وستين بليون برميل.

من ناحية أخرى، فإن استخراج البتيومين، وهو شكل لزج من البترول الذي يمكن تكريره وتحويله إلى شكل مركب من النفط الخام، من رمال ألبرتا الكندية عملية مكلفة ومضرة بيئياً. أولاً، إن استخراجه يتم بحفر منجم ضخم باستخدام شاحنات قلابة. ومن ثم يتم طحن هذه الرمال

الاحتياطي من النفط الرملي في كندا وحدها يصل إلى حوالي 175 بليون برميل



وتوزيعها في مصانع ضخمة، قبل تخفيف كثافته بإضافة النافتا التي ترقق البتيومين الخام، وهي مادة سامة قابلة للاشتعال. وبالرغم من التطورات التكنولوجية الحديثة، فإن هذه العملية الصعبة تكلف منتجيها حوالي 20 دولاراً للبرميل الخام الواحد.

عندما كان سعر البرميل 25 دولاراً تقريباً طوال العقد الماضي، اعتبرت مشروعات استخراج البترول الرملي مكلفة أكثر من الإمكان، فشركة سونكر استخرجت النفط الخام من رمال ألبرتا منذ خمس وثلاثين سنة، ولكنه فجأةً أصبح من أهم المصادر التي تتجه إليها صناعة البترول، وذلك بسبب الارتفاع في الأسعار حيث وصل سعر البرميل الواحد إلى 60 دولاراً تقريباً. وحالياً، تنتج منطقة ألبرتا حوالي مليون برميل يومياً، وهو رقم متوقع أن يتضاعف خلال السنوات الخمس القادمة.

الآبار الذكية

لفهم كيفية تأثير التطورات في تكنولوجيا المعلوماتية على صناعة النفط، يجب أن تتجه أنظارنا إلى «البود»، وهو غرفة من طراز «إيماكس» مجهزة بكمبيوتر عملاق، ومصممة من قبل لاندمارك غرافيكس، وهي فرع من فروع شركة «هاليبورتون» المتخصصة بتطوير المعلومات لصالح شركات النفط.

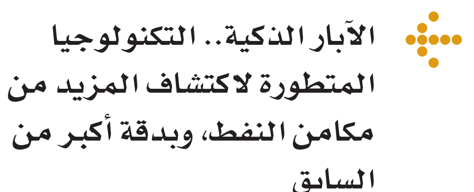
مكن «البورد»، وبمساعدة شاشة بمقياس 450 قدماً، وجهاز تشغيل مصمم من قبل «سيليكون غرافيكس»، شركات البترول من تصميم نماذج سيزمائية شديدة الدقة، تظهر الطبقات التي تكمن فيها جيوب البترول والغاز، مما يسهل بشكل كبير عملية الحفر.

وتساعد أجهزة الكمبيوتر الجديدة قليلة التكلفة في جعل التنقيب عن البترول بمثابة تخصص علمي دقيق. فشركة البترول النرويجية العملاقة ستاتويل مثلاً تستخدم أحدث المعلومات المتخصصة لتمكنها من حفر آبار في بحر الشمال من أجل الاستخراج الأفضل للنفط من المخزون الموجود في قعر المحيط. وتقدر الشركة حجم العائدات المالية الناتجة عن استخدام تكنولوجيا المعلومات بأربعمائة مليون دولار من مخزون الآبار الموجودة فعلاً. بينما توفر 200 مليون دولار من تكلفة الحفر في السنوات القليلة المقبلة.

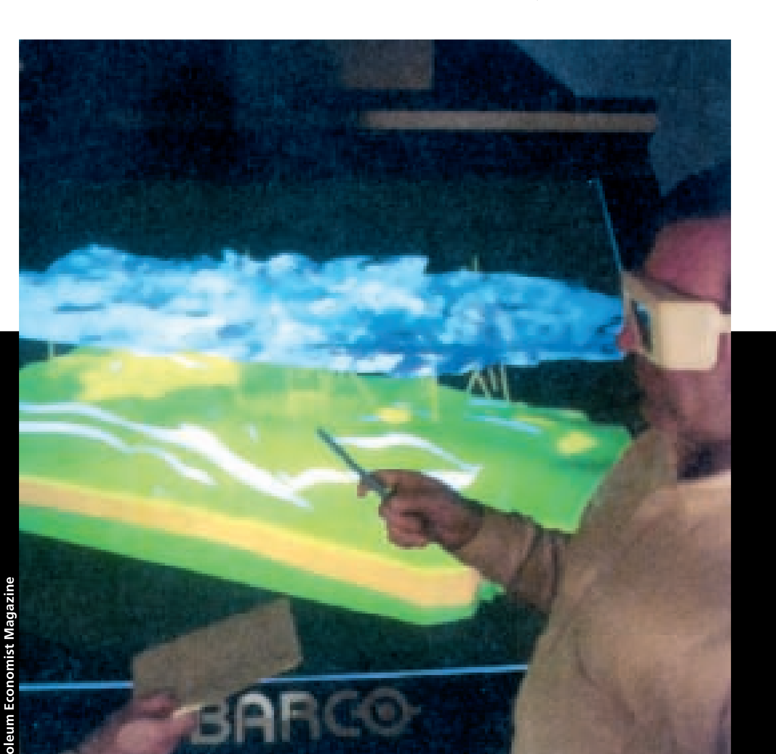
كذلك تساعد التكنولوجيا المتقدمة في الاستشعار عن بعد والمسح السيزيامي الحفارات في إيجاد نفط جديد، مما يجعل عملية الاستخراج أكثر فاعلية من حيث الحجم. وبدأت أجهزة تحديد الحرارة والضغط بتزويد الشركات بصور دقيقة عن الآبار ومخزونها النفطي، مما يساعد على الوصول إلى المعدل الأمثل الذي يمكن الوصول إليه من أجل استخراجه.

الزيت الحجري

توقع العالم الجيولوجي كينغ هيوبرت في عام 1956م بأن يصل إنتاج النفط الأمريكي إلى ذروته في السبعينيات.



الآبار الذكية.. التكنولوجيا المتطورة لاكتشاف المزيد من مكامن النفط، وبدقة أكبر من السابق



Petroleum Economist Magazine

وبالرغم من أنه قد تم التقليل من أهمية ما توقعه وقتها، إلا أننا نستطيع اليوم القول بأن توقعه هذا، أو ما يعرف «بنقطة ذروة هيوبرت» كان صحيحاً، وأن الإنتاج المحلي بدأ بالتراجع منذ ذلك الحين. ولكن الإنتاج المحلي الأمريكي يمكن أن يبدأ في التزايد مرة أخرى خلال العقود القادمة. ومن غير المحتمل أن يكون الحفر المقترح، الذي كثر الجدل حوله، في محمية الحياة البرية القطبية، هو المسؤول عن هذا الارتفاع بالرغم من إسهاماته في زيادة الإنتاج. ولكن المساهمة الكبرى ستأتي من النفط والترسبات الموجودة في الحجارة، أي ما يعرف بالزيت الحجري، الموجود بكميات كبيرة في شمال ولاية كولورادو وأجزاء من ولايتي وايومنغ ويوتا.

ويقدر العلماء التابعون للحكومة الأمريكية أن مخزون النفط الأمريكي من الزيت الحجري يبلغ 2.6 ترليون برميل. وينتشر في مساحة تبلغ حوالي 16 ألف ميل مربع من الأراضي الخاصة والحكومية، وتعتبر هذه الرقعة الغنية بالبترول من أكبر المخزونات النفطية في العالم.

ومثل الزيت الرملي، فإن الزيت الحجري عالي التكلفة بالنسبة للمردود المالي المتوقع. ولهذا تلاشت أية محاولات لاستثمار هذا النفط عند الانهيار المفاجئ لأسعار النفط بعد وصولها إلى القمة في نهاية سبعينيات القرن الماضي. ولكن منذ ذلك الوقت، تطورت التكنولوجيا المستخدمة في استخراج النفط من الزيت الحجري بشكل كبير، فقد اقتربت شركة شل من تحقيق طريقة مثمرة تجارياً، إلا أنها لن توضع حيّز التشغيل إلا بعد عدة سنوات.

وتتضمن هذه الطريقة حفر عدة آبار، يبلغ عمق الواحدة منها 600 قدم وتزوّد لاحقاً بأجهزة تدفئة متينة تعمل على تسخين الحجر إلى 700 درجة فهرنهايت. وتنتج عملية التدفئة مزيجاً من الزيت والغاز الذي يتم شفطه من الآبار.

يقول جيل دافيز المتحدث باسم شل: «نحن واثقون من إمكانية استخراج النفط العالي الجودة من الأحجار، بكلفة 30 دولاراً للبرميل الواحد تقريباً. ومؤخراً، قدمت شركتا شيفرون وشل، بالإضافة إلى ست شركات أخرى، طلبات للحصول على ترخيص بحفر آبار تجريبية في المنحدرات الغربية من جبال الروكي، إلى مكتب إدارة الأراضي الأمريكي المسؤول عن معظم مخزون الزيت الحجري.

إعادة إحياء الحقول القديمة

طبقاً للنظرية البسيطة القائلة بأن البلايين من البراميل النفطية لا تزال عالقة في آبار النفط القائمة حالياً، فإن إعادة إحياء الحقول المكتشفة فعلاً هو المجال الأكثر مردوداً في عالم التنقيب عن النفط. عندما تكتشف إحدى الشركات الرائدة مثل اكسون وموبيل أو بريتش بتروليوم حقلاً مثمراً، فإنها تضع أجهزتها وتمضي سنوات وهي تستخرج النفط، إلى أن ينحسر الضغط من الآبار ويصبح

شأنه شأن الزيت الرملي، بات الزيت الحجري قابلاً للاستخراج مقابل 30 دولاراً للبرميل


Padia/Saudi Aramco World/S. A. Amin

شفط البترول من الأرض أكثر صعوبة وكلفة، فتبيعها غالباً إلى شركات صغيرة عندما يخف الإنتاج، وتنتقل إلى حقول أخرى. وبالتالي فإن هذه الشركات العملاقة تترك وراءها حوالي 70 في المئة من مخزون تلك الآبار غير مستخرج.

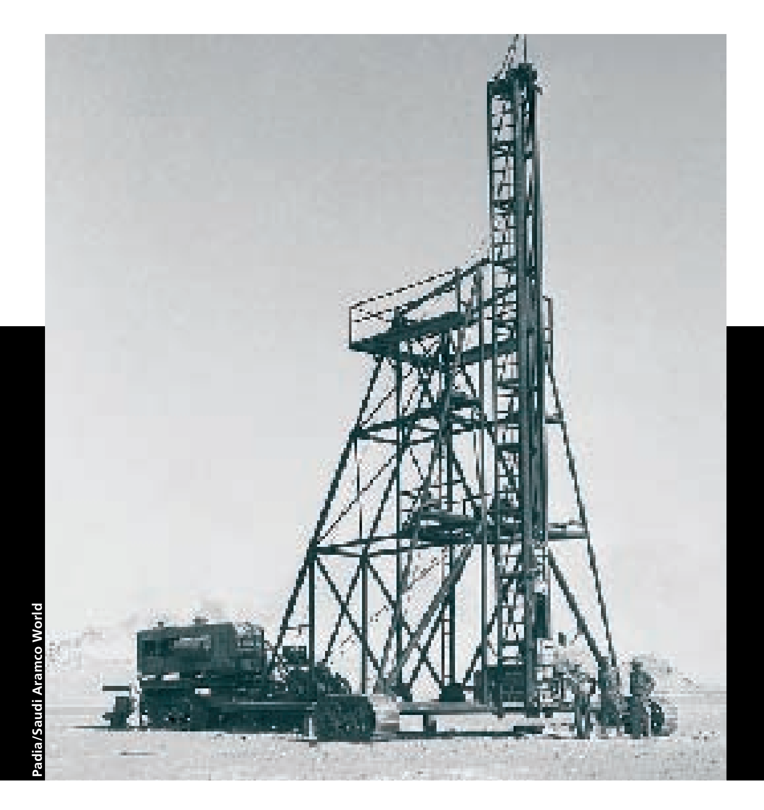
هذه الحقيقة دفعت بشركات مثل أناداركو بتروليوم ونيوفيلد اكسبلوراشن وغيرهما إلى التسابق على تطبيق تقنيات متطورة لاستخراج النفط من تلك الحقول القديمة. وتتراوح الأساليب المستخدمة بين ضخ الماء مباشرة في تلك الآبار لدفع البترول إلى الخارج، وتعبئة الآبار بميكروبات مصممة بحيث يجمع النفط العالق في الحفر الصغيرة مما يسهل عملية استخراجه. ويتم العمل على تطوير طريقة استخراج النفط بواسطة التعزيز الميكروبي من قبل باحثين في جامعة كنساس. وتشير التقديرات إلى أن تطبيق هذه التقنيات قد يزيد إنتاج البترول من حقول النفط الموجودة حوالي عشرة أضعاف. فشركة أباشي مثلاً، زادت الإنتاج السنوي في حقل فورتيز في بحر الشمال حوالي 100 في المئة إلى 80,000 برميل يومياً وذلك بتركيب مضخات جديدة لزيادة تدفق المياه.

ليست هذه التقنيات بقليلة التكلفة، إذ قد تصل تكلفة بعضها إلى ثلاثة ملايين دولار للبئر الواحدة، ولكن مع توقع المحللين بقاء أسعار النفط على ارتفاعها في المستقبل المنظور، تستقطب طرق استخراج النفط المستحدثة الكثير من اللاعبين الجدد. ويقول ريتشارد وارد مدير الأبحاث في جمعية كامبريدج لأبحاث الطاقة: «إن معظم الناس يقولون إن النفط السهل استخراجه قد استخرج، لذلك فإن هذه التقنيات ليست فقط مغرية بل يجب فرضها لإبقاء النفط متدفقاً».

وإذا كانت كل هذه التقنيات تستطيع استخراج المزيد من البترول من الآبار الموجودة والمنتجة اليوم، بالإضافة إلى أنها ستجعل استخراج البترول من النفط الرملي والنفط الحجري رغم تكلفته العالية ممكناً، فلا شك في أنها ستعتمد في البلدان الغنية بالنفط فعلاً مثل بلدان الخليج العربي وشمال إفريقيا. ومما لا شك فيه أن الحكومات والشركات ستحقق الربح على الرغم من التكلفة الباهظة لاستخراج البترول من مصادر جديدة، ولهذا نجد أن من المنطقي المسارعة إلى تحقيق الربح في أماكن لن تبلغ كلفة استخراج النفط منها الحد الأقصى من التكلفة.



بعض الحقول القديمة لا يزال يحوي الكثير من النفط، والتقنيات الحديثة ستجعل استخراجه ممكناً ومربحاً



Padia/Saudi Aramco World

عمالة المستقبل
..عمالة المعرفة

بعد المزارع والعامل في المصنع، هناك «نوع» جديد من الإنسان المنتج بتنا نتلمس وجوده من حولنا في قطاعات كثيرة، ويتجه بسرعة كبيرة إلى احتلال المكانة التي احتلها العامل في الزراعة ومن ثم الصناعة خلال التاريخ. إنه «عامل المعرفة» الذي يحدثنا عنه عبدالله عرفان*، ويعرض للمتغيرات التي تصاحب نموه حتى على صعيد ما كان مسلّماً به من مفاهيم العمل التقليدية.

* أستاذ في جامعة القاهرة

لم يكن لدى إنسان القرن الخامس عشر سوى الأرض وجهده العضلي، مع معرفة زراعية بسيطة وأدوات أبسط، ليعيش ويحقق احتياجاته، ولهذا كانت ثروة المجتمع وقتذاك تعتمد على الزراعة والتجارة بما يُزرع.

من هنا، أتت تسمية هذا المجتمع بالمجتمع الزراعي. وظل الحال على ما هو عليه إلى أن قدم وات بولتون المحرك البخاري في منتصف القرن الثامن عشر، وتحديداً في العام 1775م، فانتقلت أهمية الأرض ودورها إلى الآلة، ولعب رأس المال دور العامل بدلاً من الإنسان، وأضحى السبيل إلى زيادة الإنتاج مقترناً بالمال. ولكي ينمو الاقتصاد، كان لابد من إحداث تراكم في رأس المال، وتطوير هذه الآلات، وبالتالي أطلقت صفة الرأسمالية على هذا المجتمع، وسمي هذا العصر بالعصر الصناعي. استمر هذا الوضع قرابة المائتي سنة إلى منتصف القرن العشرين، حيث بدأت الأمور تتبدل مرة أخرى لأن طبيعة التطورات التكنولوجية تغيرت من التطور التدريجي وعلى مراحل مختلفة، إلى تطور متسارع لا يتوقف ولو للحظة ليلتقط أنفاسه. ونتيجةً لتوافر التكنولوجيا الحديثة، ازداد عدد الشركات، وازدادت حدة المنافسة بينها لتشابه منتجاتها. فأصبحت القيمة المضافة على المنتج هي التي تمكن الشركة من تحقيق مزايا تنافسية أكثر استمراراً، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا عن طريق توليد المعرفة واستخدامها لتطوير المنتجات وابتكارها وتسويقها، وبالتالي عاد الإنسان ليستلم القيادة من الآلة، وعادت إلى الإنسان مكانته ككائن مفكر مبدع.

المعرفة أصبحت عماد الاقتصاد الحديث المعتمد على التعليم والتدريب والبحث العلمي والاستثمار في التكنولوجيا وعلاقة أوثق ما بين الجامعات ومراكز الأعمال

اقتصاد المعرفة

أصبحت المعرفة عماد الاقتصاد الحديث، والمحرك الأساس للنمو سواء للشركات أو الدول. وبالتالي، أطلق على هذا العصر عصر المعرفة، وأطلق على الاقتصاد السائد فيه، اسم «اقتصاد المعرفة». ويعتمد هذا الاقتصاد على التعليم والتدريب والبحث العلمي والاستثمار في التكنولوجيا، وقيام علاقة أوثق بين الجامعات ومراكز البحوث ومجتمع الأعمال والشركات، حيث يؤدي ذلك إلى تغذية عملية توليد المعرفة. فتمول الشركات البحث العلمي والجامعات، وتنتج مراكز البحوث تطبيقات مفيدة للشركات، وتخرج الجامعات طلبة مؤهلين لسوق العمل، وكذلك أبحاثاً قابلة للتطبيق في مراكز البحوث، وهكذا تكتمل دائرة توليد المعرفة.

وغني عن الذكر بأن هذه المتطلبات الاقتصادية لا تنفصل عن المتطلبات الأخرى السياسية والقانونية، حيث يجب أن يكون هناك نظام سياسي يشجع على البحث العملي، ويهتم بالتعليم إضافة إلى توفيره حرية التعبير عن الرأي، وحرية الفكر. ويتطلب اقتصاد المعرفة أيضاً وجود نظام قانوني يحمي الحقوق الفكرية ونظام تعليمي تربوي يدعم الإبداع والابتكار وحرية التفكير، ويرسي مبادئ التعلم المستمر. وقبل كل هذا، يجب أن ينمى لدى الجماعات الوعي لأهداف التكنولوجيا، ومعرفة بالإطار الأخلاقي لها.

جوهر بيئة العمل

التكنولوجيا المتطورة في الإلكترونيات والاتصالات هي جوهر بيئة العمل في اقتصاد المعرفة. إذ نجد أن الإنترنت كأداة سحرية للتواصل والاتصال خلقت واقعاً افتراضياً جديداً أنجز الكثير، وما زال ينجز في عالم الأعمال كالاتصال بالآخرين عبر الإيميل والمكالمات عبر الحدود، والاتجار والتسويق الإلكتروني. ويزداد عدد مستخدمي التكنولوجيا الحديثة والانترنت باطراد. فمثلاً، نما عدد مستخدمي الإنترنت في العام 1995م من أربعة عشر مليون مستخدم إلى 400 مليون مستخدم في العام 2000م. كما تضاعف حجم التجارة الإلكترونية نحو 15 مرة خلال سنوات خمس فقط.

ماذا يعني هذا بالنسبة للشركات؟

يعني هذا سوقاً ومستهلكين أكثر مما كان يتصوره أكثر المديرين تطرفاً في العقود الماضية، مما يدعوهم إلى الدخول في هذا العالم، مزودين بالأدوات التي تتيح لهم استثمار الفرص الموجودة بأفضل الطرق الممكنة. والأدوات الوحيدة في هذا العالم هي القوى البشرية العارفة، والتي تشمل المصممين والمبرمجين والمطورين والمشغلين التكنولوجيين. ماذا يعني هذا بالنسبة للعاملين؟ يعني تغيراً في اتجاهات التوظيف، مما يتطلب تدريباً وتعليماً مختلفاً.

عمالة المعرفة.. من هم؟

بيتر دراكر، المفكر الإداري الأمريكي المتوفى في نوفمبر من العام 2005م كان أول من قدم مصطلح «عمال المعرفة»، وكان ذلك في كتابه «مبدأ الشراكة» أو «Concept of Corporation» عام 1969م، وميزهم عن غيرهم بأنهم هؤلاء العمال الذين يعتمد عملهم في صناعة واستخدام ومشاركة وتطبيق المعرفة. وتنبأ دراكر وقتذاك بتنامي عددهم ليصبحوا أغلبية في الشركات، مما يتطلب أساليب جديدة لإدارتهم، وزيادة كفاءتهم. وذكر أن هذا سيكون تحدي القرن، مثلما كانت زيادة إنتاجية العاملين التقليديين تحدي القرن السابق.

ونلاحظ بأنفسنا صدق توقعات دراكر، عندما نرى كيف أن صناعات مثل صناعة تكنولوجيا المعلومات والخدمات المالية منتشرة ومزدهرة وتنمو بإطراد، وتوظف الآلاف من العمال سنوياً، وبمرتبات هي أعلى بكثير من مرتبات أصحاب الحرف القديمة. ففي مصر مثلاً، قد يصل دخل المبرمج صاحب الخبرة إلى ألف وسبعمائة دولار شهرياً، ويصل هذا الدخل إلى 3000 دولار في لبنان، أما في السعودية فقد يتقاضى المبرمج خمسمئة دولار مقابل المهمة الواحدة. وتنمو فرص التوظيف في قطاع البرمجة وتكنولوجيا المعلومات بنسبة 4 في المئة سنوياً في سوق العمل السعودي، حيث تسهم بتوفير 7,200 إلى 8,800 فرصة عمل سنوياً، متفوقاً بذلك على باقي القطاعات. ويمكن تعميم هذا المبدأ على مهن أخرى كمهنة مندوب المبيعات المحترف، والإعلان والتسويق والوساطة المالية، التي تعاني من نقص في إعداد المتخصصين بها، مما يضطر الشركات إلى توظيف شبان من دون خبرة في بعض الأحيان وتقوم بتدريبهم.

وهذه المعرفة باتجاهات الوظائف مفيدة في التخطيط للمستقبل المهني، سواء أكان الشخص يعمل بالفعل أم لا يزال في سنوات الدراسة، حيث تؤثر على نوعية التدريب الذي يحتاجه الشخص ليتمكن من تغيير



المحترف السعودي

عمال المستقبل وإدارة الإنتاج

وظيفته إلى أخرى أفضل، وكذلك يفيد في تحديد نوع الدراسة واختيار التخصص العملي لمن هم لا يزالون على مقاعد الدراسة.

وتشير الإحصاءات في الدول المتقدمة إلى أن عمال المعرفة يحتلون نسباً كبيرة من القطاعات الاقتصادية حيث وصلت نسبتهم في الولايات المتحدة الأمريكية إلى ثلث العمالة الأمريكية، ويتوقع أن يصل إلى خمسي عدد العمالة في الدول المتقدمة. وفي المقابل فإن عدد العمالة التقليدية تقلص ليصل إلى 10 في المئة من القوى العاملة في أمريكا، و15 في المئة في إنجلترا، و25 في المئة في ألمانيا واليابان. وتتمركز تجمعات عمالة المعرفة في الصناعات المتقدمة ذات التكنولوجيات العالية، والمؤسسات المالية مثل البنوك والبورصات وشركات التأمين، والمؤسسات الطبية كالمستشفيات والمستخبرات، والمؤسسات القانونية والتعليمية والإعلامية، ولذلك فهم يمثلون نسبة كبيرة لا يستهان بها على المستوى المحلي لكل بلد.

نتيجة للمؤهلات العلمية الرفيعة لعمال المعرفة، فإن علاقة الإدارة بهم ستتحول إلى ما يشبه الشراكة

مختلفون فعلاً..

إن كانت كفة العمالة تميل لصالح عمال المعرفة، فما سمات عملهم، وما الفروق الأساسية والجوهرية التي تميز عملهم وبالتالي تجعلهم مختلفين عن العمال التقليديين؟

نجد أن وظائف عمال عصر المعرفة تتمحور حول الأعمال التي يغلب عليها التفكير والعمليات الذهنية من إبداع وابتكار، وليست تلك الأعمال البدنية. وهم بهذا يحتاجون إلى مستويات تعليمية ومهارات عالية تميزهم عن العمالة التقليدية التي كانت تتميز بانخفاض مستواها التعليمي والمهاري نتيجةً لأن أعمالهم لا تتطلب منهم هذا.

ولا يوجد لعمال المعرفة مكان محدد بالضرورة مقارنةً بالعمالة التقليدية. إذ يمكنهم القيام بعملهم في أي مكان خارج مقر الشركة الرسمي، ولا يوجد ما يربطهم بالعمل سوى المهمة التي يقومون بها، خلافاً لما كان الحال عليه في السابق، حيث كان من الضروري تواجد العامل في موقع العمل مثل الورشة أو المصنع أو الحقل. وهم أيضاً لا يرتبطون بمواعيد عمل رسمية تتطلب الالتزام اليومي منهم بمواعيد الحضور والانصراف، فقط توجد مواعيد تسليم المهام التي يلتزمون بها.. وإن نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى، فهذا يعني أن مواعيد عملهم تصبح اليوم كله أو الأسبوع بأكمله.

سمة أخرى من سمات عمل عمال المعرفة هي عدم استخدامهم للأوراق أو الأدوات التقليدية في مراسلاتهم واتصالاتهم، فهم أبناء عصر المعلومات، وبالتالي يستفيدون مما يتيحه العصر من إمكانيات، فتكون كل اتصالاتهم إلكترونية عن طريق الشبكات الداخلية (الإنترانت) أو الخارجية الدولية (الإنترنت) بالإيميل أو حتى بالمحادثة والفاكسات والتليفونات عبر الأقمار الصناعية. فقد أقامت شركة آي بي إم، مثلاً، غرف محادثة للموظفين للتحادث عبر مواقعها الجغرافية المختلفة التي يتجاوز عددها الخمسة والسبعين موقعاً، وذلك لمناقشة قيم الشركة والتخطيط للمستقبل. وبهذا المثال نلحظ كيف أن التكنولوجيا أتاحت لنا امكانيات لم تكن متاحة من قبل، فمثلاً لم نكن نستطيع عقد اجتماع طارئ لمديري مواقع الشركة في أقل من أسبوع، أو التشاور بين المهندسين في مواقع متباعدة إلا بصعوبة، حتى مع توافر الهواتف، إلا أن الإنترنت وتكنولوجيا الاتصالات وفرت تبادلاً سريعاً وفورياً ليس لمجرد الصوت بل للبيانات والملفات والصور والخرائط، وهذا أضاف الكثير ومكّن من تبادل المعرفة وبالتالي تحقيق القيمة للشركة.

متطلبات إدارتهم وكيفية التعامل معهم

في العقود الماضية، كانت العلاقة بين المديرين ومرؤسيهم تحكمها المركزية، وهذا المحور كان من أهم المحاور التي قضى بيتر دراكر حياته لتوضيحها وتركيز الضوء على المتغيرات التي يجب أن تطرأ عليها. فالمركزية تتحول الآن مع عمال المعرفة إلى التفويض، بمعنى إعطاء الرؤساء المزيد من الصلاحيات لعمال المعرفة لأداء أعمالهم المعقدة التي تتطلب سرعة اتخاذ القرارات، واعتماد مساحة أكبر وأكبر من اللامركزية في التعامل معهم. فنجد مثلاً أن السمسار في البورصة أو البنك يتحتم عليه اتخاذ القرارات بشكل فوري لاقتناص الفرص وجني الأرباح. وبالتالي، فإن اعتماد المركزية في إدارة هذا النوع من الأعمال وطلب الرجوع إلى الرئيس عند كل قرار من هذه القرارات يعني بالتأكيد ضياع الفرص. ونتيجة للمؤهلات العلمية الرفيعة التي يتمتع بها عمال المعرفة، فإن نمط التعامل معهم من خلال طرق وأساليب الإدارة التقليدية من سلسلة أوامر وتسلسل تنظيمي وعلاقة رئيس بمرؤوس قد لا تكون محفزة لهم لأداء عملهم وتطويره. ولذلك تكون العلاقة بينهم أشبه بعلاقة الشريك نتيجة لمساهمتهم الملموسة في وجود الشركة وتطورها وقدرتها على المنافسة. وهذا يؤدي إلى تغير في نمط اتخاذ القرارات داخل الشركة حيث تنحو أكثر نحو النمط الديمقراطي.

وتتطلب إدارة عمال المعرفة أيضاً التحفيز والتشجيع المستمر على التفكير وتطوير الأعمال المكلفين بأدائها

مهما كانت صغيرة، مما يؤدي إلى تطوير الشركة ككل. فشركة تويوتا مثلاً تشجع كل عمالها، أياً كانت مواقعهم الإنتاجية، على اعتبار أنفسهم عمال معرفة والتفكير في تطوير كل جزئية من العمل في الشركة، كما يقول ذلك أحد مديريها التنفيذيين.

ولأن الشركات تتسابق للحصول على كفاءات عمال المعرفة، فإن ولاء عامل المعرفة الأول والأخير هو لتخصصه. وهذا يضعف من ولائه للشركة ويؤدي إلى إمكانية تركه العمل لأي سبب خصوصاً مع درايته بأوضاع سوق العمل. وهذا يلقي على الشركة عبئاً كبيراً لجذبه والاحتفاظ به.

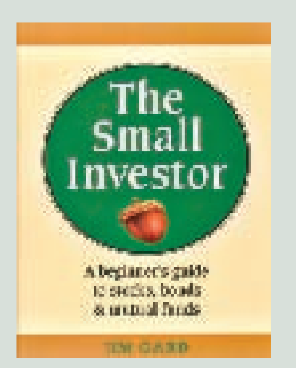
ونتيجةً لسرعة تقادم المعرفة، يتعين على الشركات إتاحة الفرصة لموظفيها من عمال المعرفة للتدريب والتطوير، حيث يؤدي هذا إلى زيادة رأس مال الشركة الفكري نتيجة لارتفاع مستوى كفاءة قواها البشرية. وهذا يتطلب معاملة العمال على أنهم مصادر لدخل الشركة، لا مجرد تكلفة، مما يؤدي إلى اعتبار ما ينفق على تدريبهم وتأهيلهم استثماراً في الموارد البشرية، وله عائد على الشركة متمثل في قيمة مضافة إلى منتجاتها وعملياتها. في الوقت نفسه، يجب توافر جو ملائم في المنظمة أو الشركة لمساعدة عمال المعرفة على الإبداع والابتكار، وممارسة عملهم بهدوء وراحة، فيجب تحلي المشرفين والرؤساء بالتفهم، وإدراك أهمية عامل المعرفة، ومعرفة دوره في الشركة، وإضافته لقيمتها عن طريق عمله المعرفي.

> **ولاء عامل المعرفة الأول والأخير هو لتخصصه، وهذا ما قد يضعف ولاءه للشركة التي ستتحمل عبء جذبه والاحتفاظ به**

عمالة المعرفة.. فرص، ومخاطر

يقدم الاحتياج المتزايد لعمالة المعرفة فرصة لفتح آفاق جديدة، وحلاً جزئياً لمشكلات البطالة. ويحقق العمل عن بعد العديد من المزايا الإضافية التي تعطيه بعداً اجتماعياً، منه أن العمل يمكن أن يقوم به رجل أو امرأة بغض النظر عن الجنس، وهذا يمكننا من حل الازدواجية القائمة بين رغبة المرأة في ممارسة دورها الاجتماعي وتحقيق جزء من رسالتها تجاه المجتمع بالعمل والإضافة إليه، ومهمتها كزوجة وأم مسؤولة عن تربية أبنائها ومرتبطة بالمنزل. من ناحية أخرى فإن تقادم المعرفة نتيجة التغيرات السريعة والمتلاحقة قد يضع عمال المعرفة أمام خطر تقادم معارفهم الذاتية إن لم يواكبوا على تطويرها المستمر عن طريق الدورات التدريبية أو البرامج المتطورة التي تتيح لهم البقاء في ساحة المنافسة.

اقرأ



المستثمر الصغير

كتاب يتخذ أهمية خاصة بعدما كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن دور صغار المستثمرين في الأسهم، واضطرابهم أمام تقلبات أسعارها، وهو بالإنجليزية ومن تأليف الاستشاري في الاستثمار جيم غارد، ومتوافر في المكتبات السعودية.
يقع هذا الكتاب في 282 صفحة، ويعتبر دليلاً مفيداً للمقبلين على الاستثمار في الأسهم والأوراق المالية والمحافظ.
وفي التعريف بالمستثمر الصغير يقول الكاتب: «يمكنه أن يكون أنت! إذا كنت تملك قليلاً من المال تريد أن تستثمره، أو تبحث عن مكان آمن لتوظيفه». ويضيف: «وإذا كنت تجد أن المسألة مربكة جداً، أو تعتقد أن ما تملكه أقل من أن يستحق التوظيف فهذا الكتاب هو لك».
فبلغة سهلة ومفهومة، يشرح المؤلف ماهية الأسواق، ونوعية العائدات التي يمكن أن تتوقعها، وكيفية تلافي أكثر الأخطاء شيوعاً ومطبات أسواق الأسهم والبورصة. وخطوة خطوة، يزيل الكاتب الغموض الذي يحيط بعالم الاستثمار، ويدعّم الانطباعات والملاحظات بالكثير من الرسوم البيانية، مما يسمح للمستثمر المبتدئ بالتقدم في عالم الاستثمار بمزيد من الثقة بنفسه وبخطواته.
وفي التوكيد على مكانة الكاتب، يقول عنه الناشر إنه كان هو نفسه مستثمراً صغيراً لبضع سنوات. أما عن جدوى النصائح التي يقدمها فيقول إن استثمارات الكتب الشخصية حققت في العام الذي سبق صدور الكتاب عوائد تجاوزت بنسبة 90 في المئة عوائد أفضل المحافظ المالية في أمريكا.
وحتى ولو لم يكن هناك ما يلزم القارئ باتباع نصائح المؤلف بحرفيتها، فإن قراءتها والتأمل فيها لا بد وأن يحمل معه بعض الفائدة.

رغم كثرة الحواجز التي تفصل تعريف العلوم الدقيقة خاصة التكنولوجيا عن تعريف الفن، ورغم أن لكل من كلمتي علم وفن وقعاً مختلفاً في الذهن، فثمة علاقة قربى ما بين هذين الاهتمامين الإنسانيين أقوى بكثير مما يبدو للوهلة الأولى. أمين نجيب يدرس هنا صلة القربى هذه، انطلاقاً من مفهوم الإبداع في المجالين، ويظهر كم أن الإبداع في الواحد منهما مدين للآخر.

في مملكة الإبداع.. الفن والعلم شريكان..

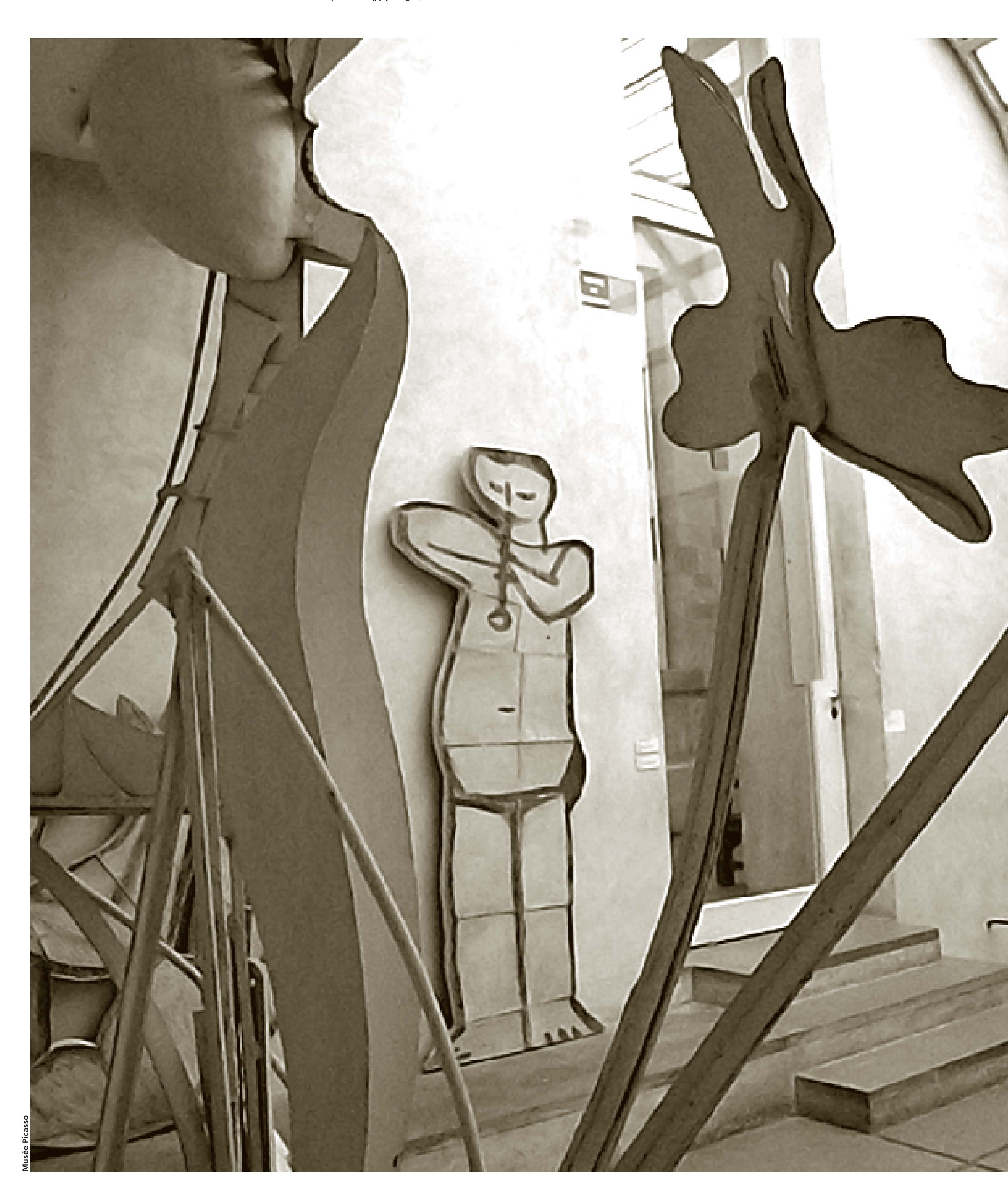
لم يكن نيلز بوهر الشهير سوى باحث عادي في علم الذرّات، تسكنه أسئلة كثيرة وشكوك بكل ما يعرفه. فهو رغم مثابرته إلى حد الهوس على أبحاثه، لم يتوصل سوى إلى نتائج متناقضة تبعث على اليأس أكثر من زيادة الشغف بمواصلة البحث والمعرفة.

وربما دفعه سأمه هذا إلى الترفيه عن نفسه بقراءة كتاب بعيد عن اختصاصه المباشر وعنوانه «Du Cubisme» أو «التكعيبية» في الرسم من تأليف ألبير غليرز وجان ميتزنغر، وشكّل هذا الحدث الشرارة التي أشعلت مخيلته التي توصلت إلى ما صار يعتبر محطة كبيرة في تاريخ العلم، ألا وهي نظرية «المتمم في فيزياء الكم» (Complementarity in Quantum Physics) والتي تقول بأن هناك بعض الأشياء التي هي جزيئات Particles وتموجات في الوقت نفسه، ولكنها دوماً عند قياسها تكون، إما هذا أو ذاك. بالمقابل، فإن التكعيبية التحليلية في الرسم تحاول أن تمثل مشهداً مرئياً من جوانب مختلفة على لوحة واحدة. لقد ألهمت هذه النظرية بوهر للافتراض أن الإلكترون هو تموجات وجزيء في الوقت نفسه، ولكن عند مشاهدتك له فإنك تختار أحد الاحتمالين.

وإذا كانت تطبيقات الإبداع العلمي حاضرة في حياتنا العصرية في كل زمان ومكان، في البيت والطريق والعمل والمدرسة، ونتعامل معها أينما تواجدنا وفي أي وقت، فإن الإبداعات الفنية وبالرغم من حضورها الظاهري الأقل، فإنها، كما سنرى لاحقاً، تتواجد بشكل متوازٍ مع ذاك. إن الإبداع العلمي أو التكنولوجي والفني مترابطان إلى أبعد الحدود منذ نشوء الحضارة البشرية إلى يومنا هذا، وسوف تستمر في المستقبل مهما تخلله من انقطاعات.

ما هو الإبداع

هناك تعريفات كثيرة وتحديدات لا تحصى حول مفهوم الإبداع للمهتمين بتحديده. ولكن الكثير من المبدعين



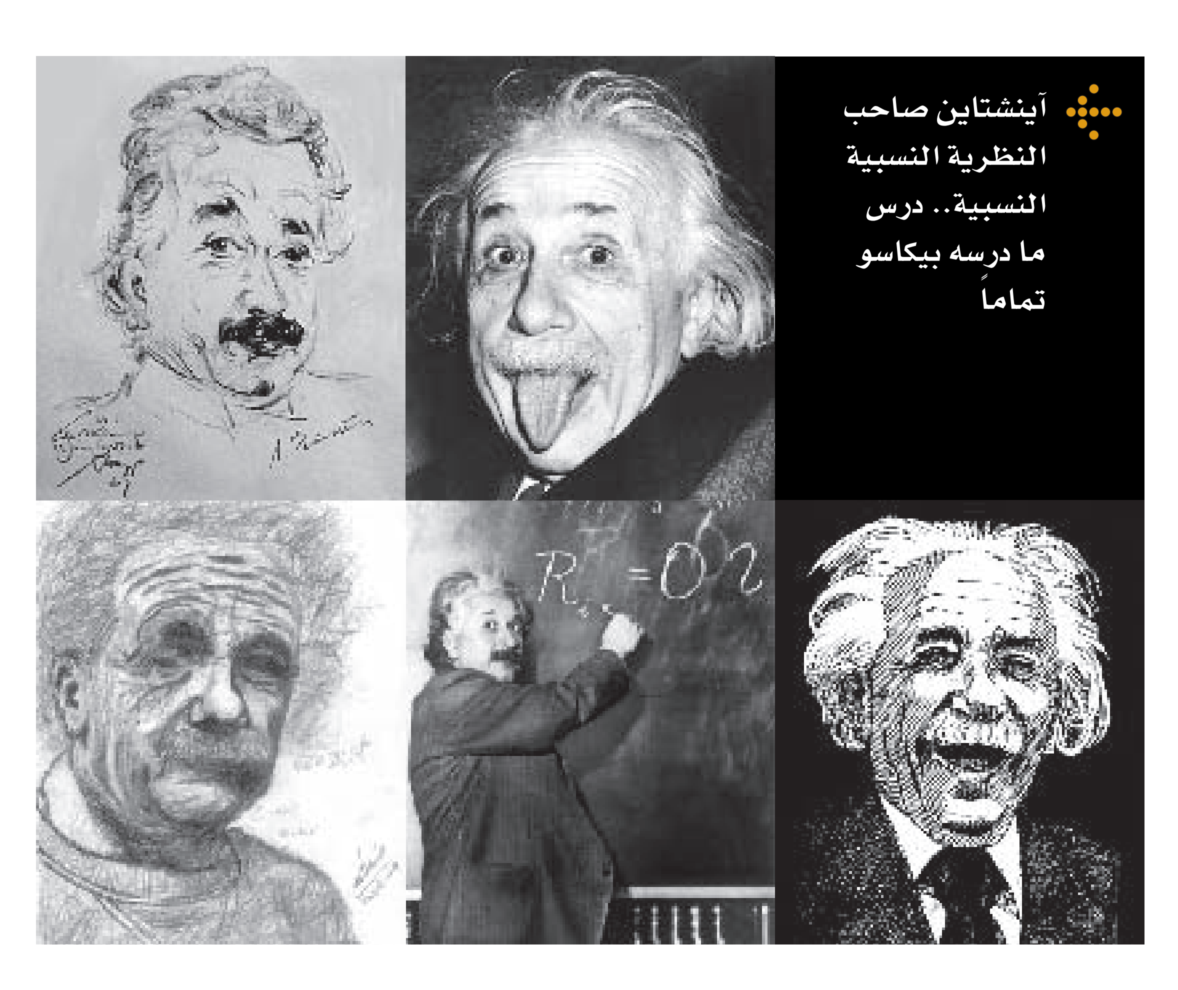
Musée Picasso

يستغربون التحديد. الإبداع، ربما يعلو على التحديد. وبالرغم من ذلك، فإنك تقع أحياناً على تعريفات مبدعة كما يقول دين سيمونتون «يجب أن تعرف مادتك، لكن لا يجب أن تعرفها جيداً. يجب أن تكون لك خبرة، لكن تجنب الاختصاص الزائد. كن مستعداً لخرق القواعد العامة والحكمة السائدة. كن مستعداً لنعتك بالجنون. كل شيء جديد يبدو جنوناً». وبالفعل، فإن أهم نظريات علم الفلك الحديث وهي نظرية «الانفجار الكبير» أطلق عليها في البدء هذه الكلمات كتعبير تهكمي بمعنى «المبالغة الكبرى»، وعندما تبين من خلال الاختبارات والحسابات صحتها، خصوصاً عندما التقطت المركبة الفضائية «كوب» الإشعاعات الأولى من هذا الانفجار في أواخر القرن العشرين، تكرس هذا النعت التهكمي كاسم لهذه النظرية.

الخيال في العلم والفن

وتختزن الإبداعات العلمية الكثير من الخيال كما في سائر الفنون. ويقول عالم البيوكيمياء روبرت روت «إن اللعب والتجريد وبناء النماذج وتمييز الأشكال والأنماط هي نفسها عند الصغار وعند كبار العلماء والفنانين». ويحضر هذا القول الشهير لـ آينشتاين «إن لي من شخصية الفنان ما يكفي لأنسج من خيالي ما أريد». ويضيف في محاضرة ألقاها سنة 1918م «أن هناك في الإبداع العلمي عنصراً لا يمكن القبض عليه. إنها حالة شعورية في الباحث قريبة من حالة العاشق، غير صادرة عن قرار عقلاني أو برنامج معين، بل عن حاجة شخصية». كما أنه يضيف في مكان آخر «أنه لو لم أقرأ قصة الجريمة والعقاب لدوستويفسكي، لما توصلت، ربما، إلى النظرية النسبية». والجدير بالذكر أن في قصة هذا الكاتب الروسي في القرن التاسع عشر بطلة هي امرأة ساقطة، لكنها في الوقت نفسه من أفضل نساء المجتمع، وخلاصتها أن القيم نسبية. وفي سيرته الذاتية يقول آينشتاين إنه في سن السادسة عشرة كان ينتابه هاجس تخيل نفسه ملاحقاً أو راكباً على شعاع من الضوء. وهذه كانت إحدى البذور التي جعلته يتوصل إلى نظريته. ويقول آرثر ميلر، أستاذ تاريخ العلوم والفلسفة في جامعة لندن، إن آينشتاين وبابلو بيكاسو كانا في وقت واحد يعالجان خاصية المكان أو الفضاء، وكيف التطلع إليه بطرق مختلفة من قبل مشاهدين عديدين. آينشتاين اكتشف النسبية وبيكاسو التكعيبية.

ويضيف ميلر أن الاكتشافات العلمية يتم التوصل إليها أحياناً عن طريق التخطيط النظري. مثلاً الرسم البياني



آينشتاين صاحب النظرية النسبية النسبية.. درس ما درسه بيكاسو تماماً

الشهير باسم (Hertzsprung-Russell) في الفيزياء الفلكية والمستعمل على نطاق واسع في الجامعات والمراصد وغيرهما يحتوي على الحرارة مقابل وهج النجوم. وقد اخترعه هنري راسل عندما أعطي فقط عشر دقائق ليتكلم عن حوالي 300 نجم. وقد وضعها جميعاً على بيان واحد ليكثف المعلومات. وعندما فعل ذلك من دون وعي منه، فإن هذه المجموعة من النجوم أخذت شكلاً معيناً ووقعت ضمن تسلسل معين. ومنذ ذلك الحين أصبح شرح هذا البيان موضوعاً رئيساً للتدريس في هذا الحقل.

وهناك مثال آخر على أن الرسم يساعد الاكتشافات العلمية: فقد كان هنري كروتو مولعاً بالرسم البياني، وكان كما يقول ميلر في كتابه الجديد الصادر سنة 2005م تحت عنوان «إمبراطورية النجوم»، فناناً مبدعاً وذا خيال خصب تمكن بواسطة هذه الصفات من بناء صورة ثلاثية الأبعاد من معلومات ثنائية الأبعاد، ليستنتج منها شكل مادة الكربون Carbon 60 والتي أخذ بموجبها جائزة نوبل سنة 1996م. والعكس يصح أيضاً، يضيف ميلر، فقد قرأ الفنان الفرنسي مارسيل دوشان بعض الأعمال عن النظرية النسبية، وتأثر بها. وهذا واضح في لوحته «العارية التي تهبط الدرج». كما أن فاسيلي كادينسكي تأثر كثيراً بالنظرية نفسها وكان مولعاً بالمعادلة الشهيرة التي تعبر عنها وهي $E=MC^2$ ومعناها أن الطاقة هي مادة ذات سرعة معينة، والتي فسرها أن كل شيء، في الأساس، غير متبلور أو لا شكل له وهذا ما رسمه خصوصاً في آخر أعماله.

> **الإبداع العلمي والفني مرتبط بالاقتصاد، وبراءات الاختراع تتمركز في أماكن مدينية قليلة**

علاقة قديمة الجذور

إن الترابط والتداخل بين الفن والعلم والتكنولوجيا يعود إلى فجر الحضارة الإنسانية. تؤكد ذلك الجداريات المكتشفة في الكهوف التي تعود إلى أكثر من ثلاثين ألف عام وغيرها. لكن الانقطاع بين الفن والعلم، وامتداداً إلى التكنولوجيا، لم يحصل إلا في مطلع القرن التاسع عشر. ويعود هذا الانقطاع، كما يرى الكثير من الباحثين، إلى عدة عوامل منها: المبالغة في الفصل بين العمل اليدوي والعمل على الآلة، بين المادة والروح وباقي الثنائيات المرافقة للعلوم الإنسانية كعلم الاجتماع والفلسفة. ونشأ عن كل ذلك النظرة المادية المتفوقة والنظرة الروحية المتخلفة عنها. وامتد ذلك إلى الإنتاج الرأسمالي المنظم مقابل الإنتاج الزراعي والحرفي الفوضوي والضعيف. فالأول ينتج دولاً منظمة وقوية اقتصادياً وعسكرياً والآخر دولاً ضعيفة وممزقة.

ومن ثم انتقلت الثنائية إلى الفصل بين العلم والفن أو التكنولوجيا. لكن هذا الانقطاع بدأ ينهار نتيجة تطور العلوم والتكنولوجيا نفسها، وبروز فروع جديدة مثل علوم الكمبيوتر وعلم الدماغ والتحليل النفسي وغيرها وغيرها. وقد بدأت بوادر هذا الانهيار في منتصف القرن العشرين مع بروز نظريات ما بعد الحداثة في العلم والفلسفة والفن والسينما وغيرها. ومن أبرز هذه النظريات هي فلسفة العلوم للعالم في جامعة هارفارد، والتي كانت لها السيطرة شبه الكاملة على الفكر الغربي في مجال تطوير العلوم. وتقول هذه النظرية بالانقطاع المفهومي (Paradigm Shift)، فالعلم لا يتقدم بشكل تراكمي وتقدمي بل من خلال انقطاعات وقفزات على شكل يتدرج من العلم العادي إلى الشذوذ فالأزمة وأخيراً الثورة، فمثلاً يقول توماس كوهن إن الانتقال من مقولة أن الأرض هي مسطحة والتي سادت قروناً عديدة، وكانت نظرة عادية جداً أصبحت شاذة، وأعقبتها ثورة مفاجئة استبدلت بكروية الأرض بظرف زمني سريع جداً. أي إن الإبداع العلمي يختزن في داخله المكونات نفسها التي في الإبداع الفني، وكلاهما إنتاج اجتماعي بامتياز.
وأكثر من ذلك، لقد بدأ كثير من العلماء يرى أن هذا الفصل له مخاطر كبيرة على مستقبل الإنسان، فهو يسهل عملية استغلال كليهما لأغراض سلبية، كما يرى المنتج السينمائي فرانكو زيفيريللي خلو الجيل الجديد من موقف إيجابي للفن والذي يجري اختزاله إلى عمليات اختبارية بسيطة. ويضيف أن العلم والفن هما كالفنان الذي يمارس الفن البصري وهو في الوقت نفسه عالم اجتماعي يجري تحقيقاً اجتماعياً معيناً تماماً، مثل مفهوم المكان السلبي والإيجابي والحدود التي يتشاركانها.

الإبداع والتقدم الاقتصادي

يحاول ريتشارد فلوريدا صاحب كتاب «انطلاق الطبقة المبدعة» الصادر سنة 2005م، مناقشة توماس فريدمان المعلق في صحيفة نيويورك تايمز والذي يقول في كتابه الأخير أنه «لا حاجة لك بعد اليوم أن تهاجر لكي تبدع» إن هذه المقولة خاطئة. فبعد دراسة مفصلة للأماكن المزدهرة في العالم، تبين أن الازدهار الاقتصادي والإبداع العلمي والفني مترابطان أكثر من أي يوم آخر. إذ إن براءات الاختراع متمركزة في أماكن مدينية قليلة جداً مثل طوكيو، سان فرانسيسكو، برلين، باريس، نيويورك وغيرها. حتى أن مراكز مشهورة جداً مثل بانكلور في الهند وشانغهاي في الصين لا تزالان متخلفتين جداً من هذه الناحية. في حين أن جامعة كاليفورنيا

وحدها مثلاً سجلت اختراعات أكثر من الهند والصين مجتمعتين، وأن السبب الأساس لنجاح الولايات المتحدة الأمريكية هو في جذب المبدعين في العلوم والفنون من كافة أنحاء العالم. ومن أهم العوامل في ذلك هو انفتاح هذه المراكز على الإبداع العلمي والفني كذلك. فبالإضافة إلى وجود جامعات من الصف الأول في هذه المراكز، فإن وجود حماسة للفنانين من كل الفئات والحس الجمالي القوي هو من أهم الصفات في هذه المراكز.

إن الاعتقاد السائد بأن الفن هو نتاج أناس عندهم الكثير من الوقت الضائع ويستعملونه للترفيه هو نظرة خاطئة. فالأعمال الفنية الأولى المكتشفة وهي الخرزات المستديرة التي تعود إلى حوالي مئة ألف عام هي دليل قوي على صلة الإبداع بالتضامن الاجتماعي. ويقول راندال وايت من جامعة نيويورك إن الفنانين الأوائل استعملوا جسم الإنسان نفسه كلوحة للرسم، فالخرزات العاجية كانت تعلق على أنحاء مختلفة من الجسم حيث تؤدي وظيفة بقائية قوية وتعطي أصحابها شعوراً قوياً بالانتماء إلى مجموعة واحدة. كان الفن، يضيف راندال، ضرورة حياتية. فالعلاقة بين الإبداع الفني والتكنولوجيا الأولى وبين الاستمرارية والبقاء قوية جداً. ويؤكد ذلك وليم المار بشرحه للجداريات المكتشفة حديثاً في كهوف فرنسية تعود إلى حوالي 30 ألف سنة: حيوانات الرنة تخوض النهر بقوة، رقابها ممدودة مشدودة، ثور ضخم يحدق كالشرر، وجنباته تومض، وقرن الوعل يزين مخلوقاً نصف بشري يحدق متوقعاً البدء باحتفالات طقوسية. وكان الناي المصنوع من عظام الطيور يرافق مشاهدة الجداريات، مما يوحي بأن الموسيقى كانت حاضرة في الاحتفالات جنباً إلى جنب مع أدوات الصيد وعبور الأنهار بواسطة هذه الحيوانات القوية. فالحربون، وهو كناية عن حجر أو عظم مثلث والذي استعمل للصيد وخصوصاً في الأنهار، كان الإبداع التكنولوجي الحاسم في بقاء جنسنا البشري على قيد الحياة. من دونه لم يستطع الجنس الآخر وهو النيوندرتال من الصمود عند حصول العصر الجليدي الأخير منذ ثلاثين ألف عام، وانقرض نهائياً لأنه كان يعتمد في معيشته على اصطياد الحيوانات الكبيرة التي انقرضت في تلك الفترة، ولم يتمكن من تطوير تكنولوجيا مطابقة للبيئة الجديدة كما فعل جنسنا وهو الهومو سابيان. فالحربون والفلوت والجداريات تطورت جنباً إلى جنب كشروط أساسية لتطور واستمرار الجنس البشري.

الشغف بالرسم عند جاليليو هو ما دفعه إلى دراسة الأجسام ثلاثية الأبعاد، والتحول إلى واحد من أعظم علماء الفلك في العالم

الإبداع الفني بداية العلوم الحديثة

ومنذ زمن ليس بالبعيد في القرن الخامس عشر، لم يكن ليوناردو دافينشي فقط رساماً عظيماً، كان وكما يعتبره كثر من مؤرخي العلوم في العالم، الأول في كثير من الحقول العلمية الحديثة. وحتى اليوم، فنحن لا نقول ليوناردو العالم في ميكانيكا السوائل مثلاً أو في الطيران وغيره، إنما نقول ليوناردو المبدع. لقد كانت أعماله بالنسبة إليه وبالنسبة إلى معاصريه عملاً واحداً ذا اختلافات متعددة.

بعد ليوناردو بسنوات قليلة كان جاليليو متدرباً في الرسم الرؤيوي Visualization وحتى سن الخامسة والعشرين كان يدرّس الرسم الهندسي إلى تلامذة فن العمارة وكان ولعه بالتحديد هو فن الظلمة والضوء وتوزيعهما في اللوحة. وتقول مارجوري نيكولسون في كتابها الجميل «العلم والخيال». إن هذا الشغف بالرسم عند جاليليو خصوصاً الضوء والظل هو ما دفعه إلى دراسة الأجسام ثلاثية الأبعاد وكيف تظهر للمشاهد بفعل الإضاءات المختلفة. وكان شائعاً في تلك الحقبة من عصر النهضة فن الرسم على نطاق واسع. وكان القمر موضوعاً شائعاً لهذا الفن وغيره. وكان الاعتقاد السائد منذ أرسطو اليوناني أن القمر ذو سطح ناعم بالكامل. وكان القمر هو رمز الوجود الطاهر والنقي خارج الأرض. لكن عند الرؤية بالعين المجردة كانت هناك مشكلة. فقد ظهرت مناطق فيه مظلمة أكثر من غيرها فدعاها توماس هاريوت في ذلك الحين «البقع الغريبة». وانتشرت النظريات حول هذه الظاهرة الغريبة إلى أن تمكن جاليليو بواسطة مهاراته الفنية أن يلاحظ أن هذه البقع تغير لونها كل ساعتين أو ثلاث عند تغير زاوية الشمس وأعلن بشكل مفاجئ للجميع أنها نتوءات وانخفاضات شبيهة بالجبال والوديان على الأرض. ولتأكيد نظريته استعمل جاليليو ما عرف في ذلك الوقت بـ «زجاجة التجسس» وسميت بعدها بالتلسكوب وذلك في يناير 1610م، واعتبر ذلك التاريخ بداية عصر العلوم الحديثة. وانتشر هذا الاعتقاد في كل أنحاء أوروبا بسرعة البرق. ولم يفرح هذا الاكتشاف العلماء فقط، بل الفنانين أيضاً، خصوصاً صديق غاليليو الحميم لودوفيكو كاردي والذي كان يعرف بسيجولي والذي كان أحد أشهر فناني فلورنسا. وكان هذا الاكتشاف هو ما دفع الفنان إلى أن يرسم القمر بصورته الواقعية في لوحة دينية، مما جعله يدفع حياته ثمناً لذلك.



الطائرة الآلة، الطائرة المنحوتة



مخطط ميكانيكي بريشة ليوناردو

الإبداع والتربية

تكشف بعض أبحاث الدماغ والأعصاب الحديثة نتائج مذهلة حول تأثير الفن على تطور الدماغ حتى قبل الولادة. فالتلامذة دون سن العاشرة الذين يتلقون تدريباً على الفنون كالرسم والموسيقى وغيرهما ينمون في الحقول الكهربائية والكيميائية المتصلة بالخلايا العصبية بنيات وارتباطات تدوم مدى العمر وتترجم إبداعات في شتى المجالات الفنية والعلمية وفي مجال الأعمال وغيرها. فالأطفال وكما هو معروف يقضون معظم أوقاتهم ببناء نظريات حول ما يشاهدون وما يعملون، ثم يتخلون عن هذه النظريات واستبدالها بأخرى مختلفة. لذلك فإن الذين تعطى لهم الفرصة لتقدير الجمال والأعمال الفنية أو اللعب بين الزهور والأشجار وملاحقة خيالاتهم يطورون إمكانياتهم الإبداعية في شتى المجالات أكثر من غيرهم.

ويعزو الكثير من الباحثين امتعاض الطلاب في الدول المتقدمة وابتعادهم عن المواد العلمية لهذا الفصل الميكانيكي بين العلم والفن. وبينما بدأت تظهر أكثر فأكثر فروع في التعليم يتداخل فيها الفن والعلم مثل «الرسم الكومبيوتري» والذي يتداخل فيه ويتفاعل الفن والتأليف وفن الألوان مع علم الكمبيوتر ورسم التوجيه والنموذج الأولي الرقمي والرياضيات وغيرها. والتطور الأوضح في حقل الموسيقى حيث أصبح يتداخل علم الفيزياء مع الرياضيات والتأليف الموسيقي مع الإنتاج ونظريات الصوت. ويقول دوغلاس هوفستار في كتابه الذي ألهم جيلاً بكامله من طلاب علوم الإدراك والذكاء الاصطناعي وعنوانه Godel, Escher, Bach إنه يعتمد في تطوير برامج الذكاء الكومبيوتري بشكل أساسي على السوناتا الإنجليزية الشعرية وبحور العروض المبني على مقطع قصير يتبعه مقطع طويل، الموجودة في هذه المعزوفات. وأن معظم الناس يفضلون أو يحفظون هذا الإيقاع دون غيره. ويضيف أن الإبداع بالنسبة إليه لم يعد علمياً أو فنياً فحسب بل أصبح لزاماً علينا أن نبرع لإيجاد «كليشيهات» شهيرة عديدة مثل «الموناليزا» أو معادلة آينشتاين: $E=MC^2$ والتي هي نوع من «التقبلية» في العقل البشري، يجد فيها معظم الناس الكثير مما يستطيعون الرجوع إليه.

وللتأكيد على الارتباط الوثيق بين الإبداع الفني والإبداع العلمي في برامج التعليم في المستقبل، فإن روبين شاندلر في كتابه الصادر سنة 1999م بعنوان «المناطق الإبداعية المتوازية في العلم والفن: المعرفة في عصر المعلومات، يتخيل صف الدراسة بعد مئة عام، أي سنة 2099م، وقد ظهر فيه ليوناردو دافينشي افتراضي وهو يتأمل كيف يجد فكرة جديدة أو حل لغز هندسي معين أو رسماً ما، وقد هرع إلى الأستوديو لتحقيق ذلك بشغف كبير. وبعدها كيف يصعد إلى مركبته الفضائية ذات الأجنحة بينما ينشد أحد المعلمين بعض القواعد الأدبية لتلامذة الرسم من دفتر ليوناردو الخاص.

من الحربون وجداريات الكهوف الأولى إلى برامج الذكاء الاصطناعي، ومن أثينا مروراً ببغداد إلى نيويورك، من أرسطو إلى عمر الخيام وزرياب وآينشتاين، يشكل كل ذلك مراكز للإبداع والفكر، الإبداع العلمي والتكنولوجي أو الفني. ومن المؤكد أن كلمة واحدة ترمز إلى الاثنين معاً ستجد طريقها يوماً ما إلى القاموس.

زاد العلوم

1 الصغير يكبر.. والكبير ينقرض

من المعروف أن كل الأنواع الحية الموجودة اليوم على سطح الأرض لا تشكل أكثر من 1 على 1000 من الأنواع التي عاشت على الأرض على مر التاريخ، بعدما انقرض 99.9 في المئة منها.

ويقول ميشال لوران من متحف التاريخ الطبيعي في فرنسا «إن الكائنات كبيرة الحجم هي الضحايا الأولى للأزمات والكوارث». ويذكر بالديناصورات التي انقرضت دفعة واحدة قبل 65 مليون سنة نتيجة عامل طبيعي غير محدد بدقة، وأيضاً فيلة الماموث والحصان البري اللذين انقرضا قبل 11 ألف سنة نتيجة الصيد، لأنه كان من الأسهل على الإنسان في ذلك العصر أن يلاحق ويقتل هذين الحيوانين الكبيرين المغريين بوفرة اللحم، وبطء الحركة.

ولكن لو ران يقول من جهة أخرى إن الحيوانات الضخمة لم تنقرض كلها. فلا يزال عندنا الكثير من الفيلة، والحيتان الزرقاء التي يزن الواحد منها ما بين 150 و190 طناً، وهي بالتالي أكبر الحيوانات المعروفة على مر التاريخ بأسره.

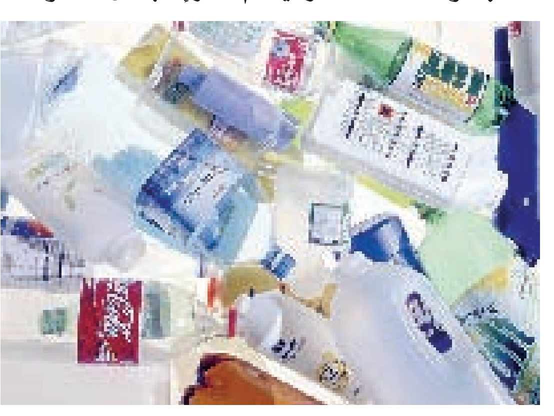
ويشير جان لوي هارتنبرغر من معهد العلوم والتطور في مونبليه «أنه في غياب الحيوان المفترس المحدد، فإن الأنواع الصغيرة، مثل الجرذان، تفقد مبرر الاختباء في أوكار صغيرة، وتنتقل إلى العيش في الهواء الطلق، ولذا تروح تكبر وتكبر باستمرار..»، وفي ختام مسيرة التطور هذه التي تستغرق ملايين السنين، تصبح الجرذان العملاقة، إما هدفاً أسهل لأعدائها كما هو حال الماموث أو الحصان الأمريكي، وإما أكثر تأثراً بالتغيرات المناخية والبيئية فتبدأ رحلتها نحو الانقراض.



StockXchange

2 وأكياس البلاستيك.. إلى الانقراض

بعدما شكّلت أكياس البلاستيك غير القابلة للتحلل العضوي مشكلة عالمية على صعيد التخلص من النفايات الصلبة، ولأن حملات التوعية لم تثمر إلا بشكل محدود،



فبقي استهلاك فرنسا مثلاً من أكياس النفايات المنزلية، فوق 12 مليار كيس لعام 2004م، أصدرت الحكومة الفرنسية قراراً يقضي بمنع استعمال كل أنواع أكياس البلاستيك غير القابلة للتحلل العضوي بدءاً من العام 2010م.

ويشمل قرار المنع أكياس النفايات المستعملة حالياً، وأيضاً أكياس توضيب المشتريات، واللفائف المستخدمة في توضيبها كهدايا وما شابه.

وبموجب هذا القرار سيصبح لزاماً على المشترين وربات المنازل استخدام الأكياس المصنوعة من مواد قابلة للتحلل العضوي مثل نشاء الذرة أو البطاطس.

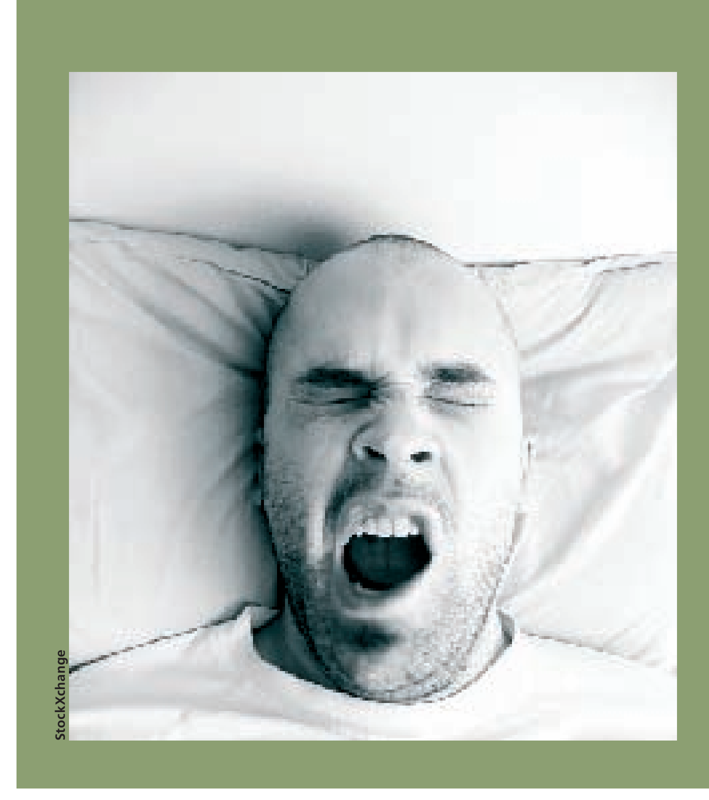
وفيما يرى عدد من الصناعيين أن هذا القرار غير واقعي خاصة بالنسبة إلى أكياس المتاجر، يرى البيئيون المتحمسون للمشروع أن دولاً عديدة ستحذو عاجلاً حذو فرنسا في هذا المجال، وأن كيس البلاستيك دخل فعلاً مرحلة الانقراض.

3 الضوضاء والتلاميذ


StockXchange

الضوضاء خارج حرم المدرسة تعيق التلاميذ من التحصيل الجيد ولها تأثير خاص على نتائج الامتحانات. وكلما ارتفع مستوى الضوضاء كلما انخفض معدل علامات الامتحانات. فقد أجرت بريدجيت شيلد من جامعة ساوث بانك في لندن اختباراً على الضوضاء خارج 142 مدرسة ابتدائية في لندن، ثم قارنت نتائج علامات الامتحانات مقابل معدل العلامات العام لجميع التلامذة ما بين سن السابعة والحادية عشرة من العمر. وكانت النتيجة أنه كلما ازدادت الضوضاء كلما انخفض معدل العلامات. وكانت هذه النتيجة تصح أيضاً عندما أُخذ في عين الاعتبار عامل "الحرمان الاجتماعي". بناءً على ذلك، أوصى مؤتمر للتربية عقد في فانكوفر كندا ببناء المدارس بعيداً عن الضوضاء أو حماية الأبنية الموجودة بأي وسيلة منه.

4 الربو يختبئ في الوسادة


StockXchange

خلال الأربعين سنة الماضية تضاعف عدد المصابين بداء الربو مرتين كل عقد، الأمر الذي شكّل لغزاً محيّراً للعلماء. ويقول آشلي وودكوك من جامعة مانشستر في بريطانيا الذي يتفحص على رأس فريق عمل وسادات النوم وما إذا كان لها دور في انتشار الربو، إنه لم يحصل أن أجريت أية دراسة لهذا الاحتمال منذ العام 1936م.

وأجرى فريق البحث هذا اختبارات على خمس وسائد من الريش وخمس وسادات من المواد المركبة التي تم استعمالها ما بين 18 شهراً و20 سنة، فتبين أنها تحتوي على أنظمة أيكولوجية مصغرة لطفيليات.

ومن الطفيليات المكتشفة ما هو معروف باسم Aspegillus Furrigatus، وهو الأكثر انتشاراً وأذية، كما أنه هو المسؤول عن تفاقم حالات الربو ويسبب حالات مميتة من التهابات الرئة.

ومعلوم أن الطفيليات تحافظ على استمراريتها بواسطة العرق الذي تفرزه الأجسام على الوسادة والفراش، والذي يقدر مجموعه بنحو مائة لتر في السنة. كما أنها تتغذى من قشر الجلد، وكذلك من براز العث. وتبين أن أسوأ أنواع الوسائد التي تحافظ على رطوبة العرق، هي المصنوعة من مواد مركبة.

في مصداقية المعلومات..

الويكيبيديا.. تحت السؤال!

بتزايد مصادر المعلومات على شبكة الإنترنت، يفترض بالحذر أن يتزايد أيضاً حول صدقية هذه المصادر ودقة معلوماتها. وإذا كانت بعض المواقع تكشف للقارئ الواعي بسرعة عن خفتها وعدم جديتها، فإن مواقعَ موسوعية، أو تسعى فعلاً إلى أن تكون كذلك، تواجه اليوم مشكلة مستعصية تتعلق بالدقة والصدقية.

هدى بتروبولوس* تتناول هنا واحداً من أكبر هذه المصادر: الويكيبيديا، التي تضم عشرين مرة ما تضمه الموسوعة «بريتانيكا»، ومع ذلك فإن موسوعيتها لا تزال موضع سؤال.

---

*باحثة عربية تقيم في اليونان

من الصعب على مستخدمي الإنترنت في بحثهم عن معلومة أن لا يطرقوا ولو من دون سابق تصميم باب «الويكيبيديا» باللغة الإنجليزية، التي تعرّف نفسها كموسوعة مفتوحة على مساهمة الجميع. أي أن أي شخص يمكنه الإسهام في كتابتها وتحريرها، كما وأنها متوافرة لاستخدام الجميع أيضاً بشكل مجاني في إطار الإنترنت، في حين يحتاج الدخول إلى الموسوعات التقليدية إلى دفع اشتراك مسبق. وتظهر هذه الموسوعة بشكل منتظم على صفحات المحَرك البحثي الأكثر استخداماً «غوغل».

لكن، هل تساءل المستخدمون حول ما تقدمه لهم «ويكيبيديا»؟ وما هي منافعها ومضارها؟ وكيف يجب التعامل مع معلوماتها؟ وهي أسئلة مشروعة إزاء مشروع لا يزال في طور الاختبار.

مجرد اختبار ناجح لهدف فاشل

حين نشأت «الويكيبيديا» في الشهر الأول من عام 2001م، أراد لها صانعوها أن تكون مختبراً لدعم مشروع آخر هو «نوبيديا» الهادف إلى بناء موسوعة مجانية عبر الإنترنت بطريقة تقليدية تعتمد فقط على خبراء ومتخصصين. واختاروا لها اسماً يجمع بين «ويكي»، وهو نظام يسمح للزائر أن يكتب فيه، وتظهر نتائج تدخله فوراً، وبين «بيديا» التعبير المختصر من كلمة موسوعة (إنسايكلوبيديا). إلا أن النجاح الاستقطابي للمشروع الاختباري، الذي استطاع أن يجمع في أشهره الستة الأولى 6 آلاف مقال، في حين لم يستطع المشروع الأصلي أن يستقطب أكثر من 20 مقالاً في سنة ونصف، دفع بروّاده إلى الاستغناء عن «نيوبيديا» لصالح «ويكيبيديا». وأسسوا على ذلك فلسفة تعتبر أن المقالات التي يمكن أن يكتبها ويحرّرها من أراد، وليس بالضرورة أن يكون متخصصاً، يمكن أن تتطوّر مع الوقت ومع تدخل عدد متزايد من الاشخاص في تحريرها. ويدير البرنامج عدد واسع من المتطوعين الذين يقومون بالمراقبة وحذف ما يعتبرونه غير مقبول، وتقوم مجموعة إدارية بتقرير المسائل التي تثير جدلاً. وهؤلاء المتطوعون والإداريون بدورهم ليسوا بالضرورة من المتخصصين.

رواج «ويكيبيديا» اليوم تختصره الأرقام التالية: يطلّع القرّاء على ألف صفحة منها كل ثانية، وهناك حوالي 40 ألف مسهم كتبوا ما يصل إلى 1,500,000 مقال في 92 لغة حية. والمقالات التي كتبت باللغة الإنجليزية هي الأكبر حجماً وناهزت نصف المليون، يليها من حيث العدد اللغات الألمانية والفرنسية واليابانية والسويدية. غزارة المقالات في ويكيبيديا لا تضاهيها الموسوعات الأخرى (موسوعة «بريتانيكا» تحتوي على 85 ألف مقال)، وهذا الاختلاف ناجم عن إمكانية الكتابة في أي موضوع مهما اختلف شأنه. أما ويكيبيديا اللغة العربية فقد وصل عدد مقالاتها إلى 10,831 مقالاً فقط، وبمقياس طبيعة مقالات ويكيبيديا، فالإسهامات العربية لا تزال قليلة بالمقارنة مع اللغات الأخرى المذكورة أعلاه. ولذلك، فإن الاهتمام في هذه المقالة سيتركّز على اللغة الأكثر رواجاً والأكثر قراءة، أي اللغة الإنجليزية، والتي تعطي فكرة أفضل لما يقدّمه مشروع كهذا عندما ينال نسبة عالية من النجاح في الاستقطاب.

أهي موسوعة حقاً؟

السؤال الأولي الذي يطرح في هذا المجال هو: هل يعطي رواج «ويكيبيديا» حق الادعاء أنها موسوعة؟ هذا الأمر لا يزال مثار جدل بين المطلعين عليها.

يأخذ عليها المنتقدون مسألة نوعية المقالات ودقّة المعلومات. ويعترف مؤسسها جيمي وايلز أن نوعية المقالات متفاوتة. بعضها يعاني من مشكلات والبعض الآخر ذو نوعية جيّدة. ولكن كيف يقاس عمل «مرجعي» بالعودة إلى المقالات الأسوأ أو الأفضل؟ وبالنسبة للمتشككين فان مسألة الدقة مأخذ أساسي للوثوق بها. فهل محرروها هم في موقع المعرفة الكافية لتحديد الأخطاء، وإلى أي حد يمكن تصديق ما يكتبه كتّابها الذين قد يكونون في موقع المعرفة المتخصصة أو قد لا يكونون؟ وهي أسئلة ازدادت إلحاحاً مؤخراً مع ورود خطأ تشهيري بحق أحد المساعدين السابقين للمرشح الرئاسي روبرت كينيدي ويدعى جون سيغينثيلر، الذي ادّعى مقال سيرة ذاتية عنه تورطه في حادث اغتيال كينيدي. وبعد أن قام المعني بنشر تنديد بمقال «ويكيبيديا» على صفحات المجلة الأميركية «يو أس إي توداي» في منتصف تشرين الثاني الماضي، وقيام اشخاص مستقلين عن ويكيبيديا بتعقب عنوان البريد الإلكتروني للكاتب، اعترف كاتب المقال لاحقاً أنه كان يمازح صديقاً له في هذا الخبر وقدّم اعتذاره.

ويبرز إزاء ذلك اعتراض آخر على ويكيبيديا حول من يتحمّل المسؤولية الأخلاقية عن صحّة المعلومات الواردة على صفحاتها؟ المؤسسة نفسها وأصحابها لا يتحملّون مسؤولية مباشرة عما يكتب فيها، باعتبار أن المشروع لا يعتبر مؤسسة نشر بل مضيفاً.

في الرد على هذه الانتقادات، عمل المشرفون على جعل التسجيل شرطاً مسبقاً للإسهام في بعض الحالات، لكن هذا الإجراء لا يزال غير مقنع بالنسبة إلى البعض. وفي خضم السجال الذي أثارته المغالطة المذكورة، جاء استطلاع ليقدم على العكس شيئاً من الثقة لويكيبيديا. فقد نشرت مجلة «الطبيعة» (في 15-12-2005) نتائج مراجعة قام بها اختصاصيون قارنت عيّنة محدودة من المقالات العلمية (وليس الجدلية) في ويكيبيديا (42 مقالاً) مع مقالات مماثلة في الموسوعات التقليدية، وخرجت باستنتاج أن أخطاء ويكيبيديا تزيد بنسبة بسيطة (31 في المئة) عن أخطاء الموسوعة التقليدية، مع ملاحظة 162 خطأً في ويكيبيديا و123 في بريتانيكا.

إن نتائج كهذه يستحسن تناولها بشيء من التحفّظ. لأن العيّنة صغيرة وقد تكون انتقائية، ولأن هناك فرقاً بين خطأ وآخر، لكنها معبرة في وجه آخر على ما يواجه القارئ من عدم دقّة حتى في المراجع الرسمية.

المعارضون يحجبون ثقتهم الكاملة عنها، والأنصار مقتنعون بأن «الذكاء الجماعي» هو مصدر الحقيقة!

وماذا عن الموضوعات المثيرة للجدل؟

يلاحظ من تعليقات المتابعين أن الإشكاليات الأهم هي في المقالات التي تثير جدلاً، كالموضوعات السياسية والسير الذاتية على سبيل المثال. وهنا يطرح مأخذ أساسي على المشروع، وهو موضوع «الانحياز». فهل يمكن تجنّب الانحياز المتأتي من نوع الناس الذين يرغبون المساهمة فيها، إن على مستوى المصالح الخاصة أو المنظمات أو الدول وأجهزتها أو المتعصبين لقضايا وأفكار.. الخ؟. الرد «الويكيبيدي» يقول إن الانحياز قد يجري تحييده مع الوقت من قبل مساهمات مغايرة. لكن هذا المنطق يتجاهل الاعتبار أن الواقع القائم غير سوي، والمشاركة في الإنترنت متفاوتة جداً بين البلدان المتطورة وغير المتطورة، وهي تفاوتات تؤسس للانحياز نحو الأقوى والأكثر نشاطاً.

بعض الذين أساءت إليهم طبيعة المقالات الجدلية اتهموا المشروع بسياسة «حرب معرفية» تخوضها بعض الجهات، و «إعادة كتابة التاريخ ومحو جزء من الذاكرة التاريخية». وبالنسبة للقارئ العربي، فإنه سيجد مشكلات الانحياز بارزة أكثر في ويكيبيديا اللغة الإنجليزية منه في اللغة العربية بسبب تفاوت القدرات في المساهمة.

«المقالات المثيرة للجدل»، يقول المدافعون عن مشروع ويكيبيديا، «لا يجب أن تحدد الموقف من المشروع ككل، حيث إن معظم المقالات مكتوبة بنّية صادقة». ويذهب آخرون إلى اعتبار أن «ما هو نظرياً وصفة لكارثة أنتج عملاً جيداً في معظم الأحيان، عاكساً الطيبة الجوهرية في الطبيعة الإنسانية». والنصيحة، حتى من هذا الجانب، تقول بتناول مقالات ويكيبيديا بذرّة من الملح. ويضيفون «إن عدم الاستخفاف بإنجازات ويكيبيديا لا يعني وضع ثقة كاملة بمصادر المعلومات، فليس هناك مصدر معلومات كامل الدّقة، خاصة إذا كان مثل ويكيبيديا يمكن بسهولة أن يشوّه من قبل كاتب جاهل أو مغرض». ومن جانب آخر، هناك عدد لا بأس به ممن يمكن اعتبارهم «أنصار» المشروع الويكيبيدي على قناعة راسخة بأن «الحقيقة» يمكن أن تأتي مما يسمونه «الذكاء الجماعي» (كوليكتيف إنتليجينس).

متاعب لقاء المتخصص بغيره

لقد أسس عالم الإنترنت لامكانيات اتصال لم تكن في التصور والحسبان سابقاً. وظهر ما يسمى بـ «الجماعات الافتراضية»، أي الالتقاء والتفاعل الطوعي بين أشخاص من ذوي ميول متشابهة وعبر شبكات اتصال كالإنترنت التي ألغت المسافة المادية وسهّلت إلى حد كبير عملية التواصل. وبدت مثل هذه الحالات بالنسبة إلى البعض قادرة على ضمان نتائج فريدة من خلال هذا الالتقاء الطوعي، خاصة منها الجماعات المنفتحة المصدر (أوبن سورس) والمكرّسة للإنتاج الجماعي لسلع استخدام عام (بابليك غوودز). ومما أعطى دفعاً لتصور كهذا هو النجاح المهم المتمثل في طريقة عمل «لينوكس»، العمل التعاوني الأهم في تاريخ الإنترنت ضمن مجال البرمجة الحاسوبية، الذي قدّم سابقة بدأ آخرون يستدلون بها.

لكن هل يمكن مقارنة ويكيبيديا بـ «لينوكس»، بما أن المشترك بينهما الطبيعة التعاونية لإنتاجهما عبر الإنترنت؟ لا، يقول أندرو أورلوسكي، الكاتب في موقع «الريجستر» (مجلة الإنترت البريطانية المنشأ المتعلقة بموضوعات الكومبيوتر) والناقد المستمر لويكيبيديا. فهو يعتبر أن «لينوكس» «مؤسسة على مبادئ مختلفة وتعمل ضمن هرمية من الاختصاصيين المعروفين، والذين يمارسون قدراً هاماً من السيطرة على القواعد المسموح بها، وليس جمهرة غير معروفة من البشر». كما أن برامج «لينوكس» يمكن اختبارها والتأكد من صحتها.

طريقة عمل ويكيبيديا اذن هي أيضاً موضوع جدل. الاحتمالات التي تهيئها لها درجة الاستقطاب العالية وغزارة الإنتاج تجعل منها تجربة فريدة. لكن البعض يجد صعوبة في الاعتقاد أنها ستصل في المستقبل إلى مستوى يقارن بـ «لينوكس» بسبب مواقفها المعادية للنخبوية التي لا تشجع المتخصصين على الاستمرار في المساهمة.

العضو المؤسس السابق في المشروع لاري سانغر يدعو إلى الدمج بين الخصوبة الإنتاجية التي يوفرها انفتاحها الواسع على المشاركة وبين الحاجة إلى تشجيع وإشراف اختصاصيين، ويطرح لذلك العودة إلى المشروع الأصلي «نيوبيديا». أصحاب الخبرة، في حال لم يتوفر لديهم الصبر الكافي، قد تردعهم الإلغاءات والتحريرات المستمرة. أمّا الصفحات التي يجري تثبيتها ولا يمكن تحريرها، وفي بعض الأحيان تكون الصفحات الأولى، فتطرح تساؤلاً حول ماهية السلطة العلمية والمعنوية لأصحاب القرار بتثبيت الصفحات؟ وماذا عن العدد الضخم من الإساءات والمشاكل التي قد لا تصل إلى التوسط والتحكيم بشأنها؟

الوعد لا يزال في المهد

لقد طرح تقدم الإنترنت في الاستخدام العام وعوداً مهمة على صعيد إمكانية الوصول إلى المصادر الكبرى للمعرفة في العالم. هذا الوعد، للأسف، يبدو أنه لا يزال في مستهل طريقه. فإن كان من الصعب التنكر إلى ما توفره الإنترنت اليوم من إمكانيات تواصل ومن معلومات، إلا أنه من غير الممكن أيضاً عدم الاعتراف أن المخزون الأساسي للمعرفة الإنسانية ليس متوفراً من خلالها، وبعضه محجوز لمن لديهم القدرة على الاشتراك. ولذلك فإن المعلومات المتوافرة بشكل طوعي اليوم عبر الإنترنت تترك باباً واسعاً للترهات وتحتاج إلى غربلة كبيرة وإلى عين ثاقبة وناقدة وإلى اعتمادها كمعلومات داعمة والعودة الدائمة إلى مراجع المعرفة الرئيسة للمقارنة. إنها مفيدة بالقدر الذي نعرف كيف نستفيد منها، ومضرّة إذا ما أخذناها بعلّاتها من دون تدقيق. لقد انبثقت ويكيبيديا لتملأ هذا الفراغ، حسب ما يراه أورلوسكي، لكن «بهوّة تفصل بين ادعائها الفظ بأنها «موسوعة» وبين الواقع وترهاتها المكتوبة بشكل سيء وتثير استياء العديدين».

ولذلك بدل التفكير كيف يمكن تصحيح ويكيبيديا أو غيرها، يقترح آخرون أن يجري التركيز على تثقيف مستخدميها. وربما يبدأ ذلك بالسؤال حول ماهية ويكيبيديا؟ الاعتبارات نفسها التي قد لا تضعها في مصاف «لينوكس» تحول دون وصفها بـ «الموسوعة»، التي تتطلب الدقة ودرجة من التوازن وسلطة مرجعية تعتمد على اختصاصيين. ماذا يجعل ذلك من مشروع ويكيبيديا؟ إنها أحد مصادر المعلومات التي توفرها الإنترنت، خصوصيته في أنه مصدر شامل وسريع الاستعمال، ويتأسس على طاقة مستديمة وكمّ معلوماتي غزير، لكن لديه مشاكل مهمة (قد تتفاوت بين مقال وآخر) في الدقة والنوعية والانحياز.

عادة، يُنصح المتصفح بتجنب الموضوعات المثيرة للجدل، وبتناول الموضوعات الفنية بحذر وعدد منها قد يكون بنوعية جيّدة. بينما في المواضيع التي تحظى باهتمام شعبي، فهناك كم من المعلومات قد لا يتوافر في غيره. نحن في «عصر معلوماتي» لم يعد يفاجئنا بأنواع من الكتابة والإعلام المسموع والمرئي، وبالأخص هذا الكم الهائل من المعلومات المتوافرة على الإنترنت والتي لا يمكن معرفة درجة دقتها. للاستفادة منها من دون أن نُخدع أو ننقاد، فإن بناء «القارئ الواعي» باتت مسألة مطلوبة. جزء من هذا الوضع المعلوماتي الذي يبدو فوضوياً ومتقلباً، ومفيداً ومضراً، ومنفتحاً ومتعسفاً، ونقدياً ومنحازاً، وطيباً ومغرضاً، يخاطبنا أيضاً بلغة جديدة، وهي أن سياسة التلقي لم تعد كافية، والمواكبة، بغض النظر عن أشكالها، هي من سماته.

الكثير الكثير من المعلومات..
ولكن ما مدى دقتها وصحتها؟

قصة ابتكار

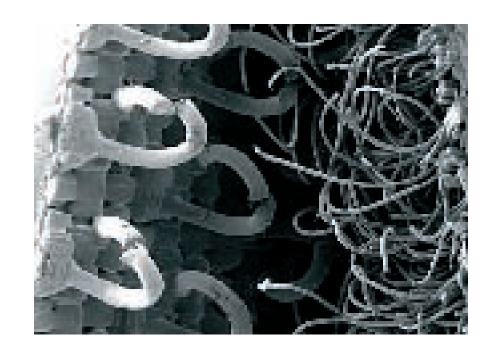
الفيلكـــرو المُثبّـت المستوحى مـــن الطـبـيـعـــة

كانت الطبيعة ولا تزال مصدراً للإلهام، وفيلكرو المثبت المشهور في الملابس والأحذية وكذلك في صناعة السيارات هو أحد الاختراعات التي أوحت بها الطبيعة.

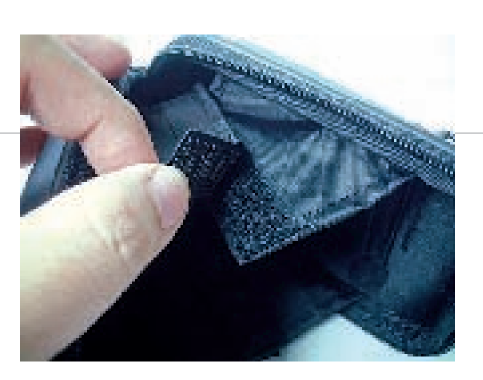
حدث ذلك في أحد أيام صيف 1948م، عندما عاد المهندس السويسري جورجس دي مسترال من رحلة في جبال الألب مصطحباً كلبه. لاحظ المهندس أن بنطاله وكذلك فرو كلبه مغطيان ببذور برية شائكة، وهذه الخاصية يستعملها النبات للالتصاق بفرو الحيوانات من أجل أن تجد هذه البذور أرضاً خصبة تنبت فيها.

وبعد تكبد المهندس جورجس عناءً في إزالة هذه البذور الشائكة قرر أن يفحصها تحت المجهر ليرى كيف تعمل بالضبط، ووجد أن كل بذرة من هذه البذور الشائكة تحتوي على مئات الخطاطيف الدقيقة التي تجعلها تشتبك بأي شيء له حلقات أو عراوي أو أهداب مثل قماش بنطلونه الصوفي. ولكونه مخترعاً، قرر جورجس أن يصمم مثبتاً مستخدماً ذات مبدأ البذور الشائكة.

واستغرق عمله ثماني سنوات لينتهي، وأطلق عليه اسم فيلكرو Velcro، واشتقه من الكلمتين الفرنسيتين Velours وتعني المخمل، و Crochet وتعني الخطاطيف.



يتكون الفيلكرو من قطعتين من النايلون المعد بصورة خاصة، إحداهما تحتوي على آلاف من الخطاطيف الدقيقة جداً، والثانية تحتوي على آلاف الأهداب الصغيرة الدقيقة، وهذا يجعل من القطعتين قطعة واحدة متماسكة بعد قليل من الضغط، ويمكن فصلهما بسهولة عند الحاجة. وذلك مبني على القاعدة التي تقول بأن ما يكفي من الخطاطيف في إحدى القاعدتين مع ما يكفي من الأهداب يشكل تماسكاً قوياً جداً.



وزيادة الضغط على القطعتين تجعل التماسك أقوى لأن مزيداً من الخطاطيف والأهداب تشتبك، فإذا حاولت فصل قليل من الخطاطيف عن الأهداب بقوة فإن البقية تتبع نفس الإجراء، مع صدور صوت مميز، ويمكن لكل شخص أن يجد أحد المنتجات التي تستعمل الفيلكرو في البيت أو السيارة.

وقد أجريت محاولات عديدة لابتكار فيلكرو لا يصدر صوتاً عن فصل القطعتين، ولكن مثل هذا المنتج ما زال نظرياً، ولم ير النور بعد.

قصة مبتكر

ليفي ستراوس مبتكر الجينز



ولد ليفي ستراوس عام 1829م في ألمانيا، وهاجر في مراهقته مع والدته وشقيقتيه إلى أمريكا عام 1847م، حيث سكنوا نيويورك.

في عام 1853م حصل ليفي على الجنسية الأمريكية، وسافر إلى سان فرانسيسكو عله يحصل على فرصة تجارية وسط حمى البحث عن الذهب. ومع مرور السنوات، انتعشت تجارته حيث عمل في تصميم سراويل من الخيش البني القاسي لعمال المناجم والباحثين عن الذهب، ثم انتقل إلى قماش الدنيم المصبوغ باللون الأزرق ليستخدمه في تصميم السراويل، بدلاً من الخيش الذي نفدت حصيلته.

في العام 1872م، تلقى ليفي رسالة من جاكوب دافيز، وهو خياط من نيفادا كان يتعامل معه بانتظام، يخبره فيها عن شرائه لقماش لاستخدامه في الخياطة، وحكى له عن الطريقة الجديدة التي يستخدمها لتصميم البناطيل لزبائنه، حيث يضع مسامير معدنية صغيرة في أماكن محددة من البنطال كزوايا الجيوب. المشكلة التي كانت تواجه دافيز هي كونه لا يمتلك المال الكافي ليستخرج براءة اختراع، ولهذا اقترح على ليفي أن يقوم بدفع المال اللازم لاستخراجها، مقابل إدراج اسمه أيضاً في هذه الوثيقة. وفي العشرين من شهر مايو لعام 1873م، استخرجت براءة الاختراع، وولد رسمياً، قماش الجينز الأزرق.

لقي الجينز الأزرق بالشكل الذي اشترك في تصميمه ليفي ستراوس وجاكوب دافيز شعبية كبيرة بين صفوف عمال المناجم وذلك لطبيعته القاسية التي تحتمل الصعوبات العديدة التي يواجهها هؤلاء العمال، وكان يباع في العام 1879م بدولار وستة وأربعين سنتاً فقط.



كانت بناطيل الجينز تباع فقط للرجال، وكان من الصعوبة أن تجد بين مرتديه نساء العائلات المتوسطة أو الغنية. ولكن المصممين راحوا تباعاً يضعون تصميمات خاصة يستخدم فيها الجينز للنساء. وعرض جينز ليفايز Levi's® للنساء على صفحات مجلة «فوج» لأول مرة عام 1935م، واكتسب شعبية كاسحة، لدرجة أن تصميمات كالفين كلاين للجينز في السبعينيات كانت تدر وحدها أرباحاً بقيمة اثني عشر مليوناً ونصف المليون دولار أسبوعياً.

وبعدما ظل قماش الجينز حتى ستينيات القرن الماضي لباس العمال وأبناء الطبقة المتوسطة وما دون، راح يتفشى في معظم الطبقات وصولاً إلى المشاهير وبعض رؤساء الدول. ورغم انتشار صناعته ووجود آلاف الماركات المنتجة له، لا يزال اسم مبتكرة طاغياً على كل الأسماء الأخرى، حتى أصبح مرادفاً للنوع أكثر منه اسم علم.

اطلب العلم

التوقيع هو إعلان عن تحمل صاحبه مسؤولية الوارد في النص مهما كان نوعه، سواء أكان رسالة شخصية أو عقد عمل أو تقريراً أو غير ذلك. وفي صيغته التقليدية، كان التوقيع يدوياً وسهل الإنجاز.. ولكن هذه الصيغة لم تعد وحيدة، إن لم نقل إنها لم تعد كافية.

فقد فرض التطور المعلوماتي وتكنولوجيا الاتصالات توقيعاً رقمياً لم يعرّف بشكل جيّد في دول العالم حتى الآن، رغم ازدياد الثقافة المعلوماتية ونمو الحكومات الإلكترونية والتبادل التجاري بالوسائط الإلكترونية. وأيضاً رغم أن عمر التوقيع الإلكتروني هو ثلاثون سنة، إذ تم ابتكاره عام 1976م على يد ديفي هيلمان.

يرتبط التوقيع الرقمي ببعض المعايير المتعلقة بالأمن المعلوماتي، ومنها سرية المعلومات التي يجب أن تكون محصورة بين المُرسِل والمُرسَل إليه، وسلامتها من حدوث أي تغيير أو تزوير فيها، وأصالتها من

التوقيع الرقمي

د. غازي سليمان حاتم*

خلال إمكانية التأكد من هوية المرسل أو المستقبل، وقدرة المتعاملين على إجبار الطرف الآخر على الاعتراف بصحة المعلومات المتبادلة.

ومن أهم العمليات المرتبطة بالتوقيع الرقمي هناك التشفير. والتشفير معروف منذ عصور قديمة واستخدم أساساً لغايات عسكرية. أما الآن فقد أصبح عملية معقدة جداً وبالغة السرية وذات ترميز معقد، يتم من خلالها إخفاء هوية البيانات من خلال اتباعها لخوارزمية ما. وهي بلا شك عملية أكثر تعقيداً من عملية الترميز التي هي مجرد تحويل من نظام إلى آخر.

ويصعب كشف عمليات التشفير التي يتم تبنيها عند إحداث التوقيع الرقمي، الذي هو ختم رقمي مشفر خاص بالشخص، يتم وضعه من قبل هيئات مخولة بإعطائه، تخضع كل من يطلبه إلى شروط محددة تُنظم من خلال ما يعرف بـ Public Key Infrastructure (PKI). ويتم لهذه الغاية إنشاء مفتاحين، مفتاح خاص معروف من قبل صاحب التوقيع ليوقع على الوثائق، ومفتاح عام يستخدمه المستلم للتأكد من صحة الوثائق. ومن خلال هذا التوقيع المعتمد على المفتاحين المذكورين -اللذين يقومان بدور القفل والمفتاح- يتم تأمين التعامل بين الأطراف بحرية وسرية عاليتين.

ومع تزايد الاعتماد على التكنولوجيا في تبادل الوثائق وخاصة التجارية والمالية منها، تزداد الحاجة إلى وضع الخطط المتقنة الضامنة لسلامة هذه المبادلات. ولهذا، فقد جرت في بعض الدول إعادة تحليل المعايير المعمول بها من أجل التأقلم مع هذه المتغيرات، وتطوير القوانين المتعلقة بالتوقيع الرقمي، فحاز هذا الشكل من التوقيع على رضا الكثير من الحكومات وقبولها له، وطبق في بعض الدول، فيما لا تزال تدرس دول أخرى إمكانات تطبيقه. ومهما يكن من أمر، فلا بد من أن يشهد التوقيع الرقمي في زمن قريب اعتماداً على صعيد العالم بأسره. شأنه في ذلك شأن معظم التطورات التكنولوجية التي اعتمدت بسرعة في بعض الأماكن، وببطء في أماكن أخرى، مما أدى إلى ظهور الفجوات ما بين السبّاقين واللاحقين.

* أستاذ في جامعة اللاذقية - سوريا

بين الورقة والشاشة

ما زال بين الورقة والشاشة في حياتنا اليومية بون شاسع، وما زال لكل منهما حيز منفصل عن الآخر. ولم تقترب الشاشة بعد من أن تصبح ورقة أو كالورقة، أما الورقة فلا تحاول.. فهي الأصل والأساس.

وربما ينقسم الناس بشكل عام بين حزب الورقة وحزب الشاشة. لكن بطبيعة الحال هناك المزيد من التحول النسبي إلى الأخيرة. ويلاحظ على البعض نوع من التعصب للشاشة، ومحاولة استخدامها استخداماً واسعاً، وكأنهم يسعون بوعي أو بلا وعي لإلغاء الورق من تعاملاتهم.. إحداث انقطاع مع القديم والانخراط في الجديث بشكل كامل. ولنسمهم اصطلاحاً «الكمبيوتريون» رغم أن طول الاسم لا يشجع على استخدامه، فدفتر «نوتتهم» جهاز صغير منظم للأعمال، عليه أرقام اتصالاتهم ومواعيدهم وملحوظاتهم يسجلونها للرجوع إليها، ومنهم من يضيف أفكاراً أو نكاتاً أو حتى أبيات شعر. وكثيراً ما تراهم يبادرون في منتصف حديث إلى «سحب» هذا الجهاز، وانتشال القلم «غير الحبري» من وسطه والنقر على شاشته أمراً من الأمور أو حاجة من الحاجات. وعادةً ما يكون هؤلاء من الموغلين في التعامل مع «الجوجل» وما شابهه (ولربما من الأسهل أن نطلق عليهم «الجوجليون» وهي في لفظها قريبة مما كان يوصف به أتباع الزعيم الفرنسي الراحل ديجول) يقرأون صحف الصباح على شاشة الإنترنت. هذه هي أكثر الممارسات إثارة لاستنكار «الورقيين» من الحزب الآخر. فهل من وسيلة لقراءة الأخبار والرأي أجمل من الجريدة الورقية؟ لقد حلت الشاشات الكبيرة والصغيرة محل كثير من الأوراق. أما بقاء بعض أنواع الورق في التداول فسببها الحاجة إلى التوقيع باليد. ويذكرنا التوقيع بنوعي الكتابة كتأليف الأول على الورق والثاني على الشاشة، ولا بد هنا من استعادة منافسة سبقت هذه، (وتوارت الآن عن الأنظار) تلك التي كانت قائمة بين الكتابة على الآلة الطابعة والقلم، مع الفارق أن الآلة الطابعة ظلت حتى الأمس القريب تستخدم الورق بخلاف الكمبيوتر.

ومن الصدمات الثقافية الأولى التي تعرض لها رومنطيقيو الكتابة بالقلم هي مشاهدة روائي أو شاعر أو حتى صحافي يؤلف مادته على الآلة الكاتبة بدلاً من القلم والورقة. واستمر الشعور لدى الكثيرين، وربما حتى يومنا هذا بأنه يستحيل أن تكون الكتابة بالطابعة على المستوى نفسه من الرفعة الروحية والإبداعية للتأليف «بالقرطاس والقلم»! من الصعب على أحد أن يجزم بأن هذا الانطباع عار كلياً من الصحة. فالورقة بلا شك جميلة بل وتستطيع أن تقول نبيلة. وفي الماضي الغابر كانت تعامل بدرجة ما من الوقار والمهابة.

إن القراءة للقراءة لا تزال تمارس في أغلبها على الورق، من كتب ومجلات وصحف. ولا يبدو أن التوقعات التي انتشرت منذ بضع سنين بأن الكتاب الرقمي سوف يحل محل الكتاب المطبوع مرشحة لأن تحدث، إلا في نطاق محدود.

ومن أسباب ذلك أن القراءة على الشاشة لا تزال متعبة إن طالت، ثم إن الشاشة لا تتناسب مع القراءة في وضعية الاسترخاء، ومراجعة أنواع معينة من «المرئيات» مثل المراسلات والصور الفوتوغرافية أو جداول الأرقام أو قائمة الطعام وغيرها أسهل وأوضح للنظر، لا بل أسرع على الورق من مراجعتها على الشاشة مهما كانت.

لكن يبقى أن ما تقوم به الشاشة من اختصار لاحتياجاتنا إلى الورق أمر محمود أيضاً. فمن المثير للتوتر في حياتنا الحاضرة تراكم هذا الكم الكبير من الأوراق الصغيرة في جيوبنا ومحافظنا، وما تقوم به الشاشات الصغيرة من إسقاط الحاجة لها فضل لا يمكن إنكاره.

غير أن هذه الازدواجية في الوجود بين الشاشة والورقة تشكل بدورها مشكلة، لأنها توجد ارتباكاً في سجلاتنا على اختلاف أنواعها ومهامها. بعضها ضمن الشاشة وبعضها على الورق، وهما لا يزالان على حالهما من النفور ورفض التواصل.

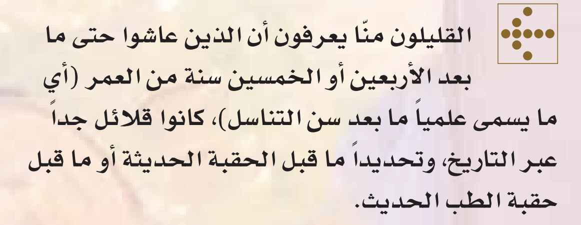
والورقة لا تزال ورقة

والشاشة شاشة!

كميل حوّا

الشيخوخة في ميزان الاقتصاد

أسهم تطور الطب والعلوم في العصر الحديث بإطالة معدل عمر الإنسان بشكل ملحوظ في معظم أنحاء العالم. ولكن هذا التطور الذي يستحق الثناء والتقدير من زاوية أخلاقية وإنسانية تسبب في ظهور قضية مستجدة بدأت ترخي بثقلها على المجتمعات المتقدمة.
القافلة تتناول هنا بعض الآراء التي تتناول شيخوخة المجتمع من زاوية اقتصادية ما بين قلق من نتائجها ومتفائل بمعالجتها من خلال تغيير النظرة التقليدية التي تدمج الشيخوخة بالعجز.



القليلون منّا يعرفون أن الذين عاشوا حتى ما بعد الأربعين أو الخمسين سنة من العمر (أي ما يسمى علمياً ما بعد سن التناسل)، كانوا قلائل جداً عبر التاريخ، وتحديداً ما قبل الحقبة الحديثة أو ما قبل حقبة الطب الحديث.

وقد كشف العالم الأمريكي أدومين بيتوك في محاضرة له ألقاها عام 2004م أن ثلثي عدد الأفراد الذين عاشوا حتى سن الخامسة والستين عبر التاريخ، هم أحياء اليوم. وأضاف أن عدد المسنين في الولايات المتحدة اليوم يفوق عدد سكان كندا بمجملها، وأن الشريحة العمرية التي تشهد نمواً أكثر بكثير من غيرها هي تلك التي تضم الذين تجاوزوا الخامسة والثمانين، وأن الخمسة عشر عاماً المقبلة ستشهد نمو عدد الذين هم فوق سن الخمسين إلى 74 في المئة، بينما لن يزيد نمو عدد الذين هم تحت الخمسين سوى 10 في المئة.

«الوقت المصنع»

يطلق بعض الباحثين على طول العمر هذا تسمية «الوقت المصنع». ويردونه إلى التطور الكبير الذي حصل في مجال الطب والأدوية وعلوم الأمراض ومكافحتها. فمنذ سنة 1918م، تاريخ انتشار وباء إنفلونزا الطيور الذي حصد عشرات الملايين من البشر في أنحاء مختلفة من العالم، لم يشهد العالم أوبئة بمثل حجمه، ومع اكتشاف المضادات الحيوية والبنسلين، قضي على الكثير من الأمراض وتمكن الجنس البشري، من خلال سيطرته على البيئة التي يعيش فيها من إطالة معدل الأعمار حتى 80 عاماً في المجتمعات المتقدمة، وأصبح معدل العمر العام في العالم فوق الخمسين.

الخبر الجيد يتضمن خطرين!

يشير بيتوك إلى أن من نتائج هذا التطور ظهور خطرين حقيقيين أشبه بقنبلتين موقوتتين. تكمن الأولى في أن سيطرة الإنسان على الجراثيم والبكتيريا سوف تدفعها إلى تطوير استراتيجيات جديدة للبقاء والهجوم. وقد بدأت طلائعها من خلال امتلاك بعض الأجيال الحالية من هذه الجراثيم مناعة ضد العقاقير المصنعة، بدأت تقلق المؤسسات الصحية في كافة أنحاء العالم.

كميل حوّا



بعد تخفيضات سن التقاعد، عودة إلى التفكير برفعه إلى ما بعد الخامسة والستين وثلث المتقاعدين في أمريكا يتوجهون إلى شغل وظائف أخرى

أما القنبلة الثانية فهي آثار العمر المديد على المجتمع والاقتصاد بشكل عام. وهذا ما يستحق التوسع فيه قليلاً، انطلاقاً من مثل محدد.

لقد توفيت مؤخراً في أحد مآوي العجزة في ولاية بنسلفانيا امرأة تُدعى سارة كناوس عن عمر بلغ 119 سنة، وكانت لا تزال في وضع صحي مقبول نسبياً بالرغم من تردي وظائف بعض أعضائها كالنظر والسمع. كانت ابنتها تأتي إلى زيارتها باستمرار، وهذه الابنة بلغت بدورها سن السابعة والتسعين، ولها ابن (أي حفيد للعجوز) تقاعد من العمل قبل 15 سنة. ولأن سارة كانت تعيش على نفقة الضمان الاجتماعي طوال 53 سنة وابنتها لمدة 35 سنة، فقد أجرى بعض الباحثين حسابات لما صرفته هذه العائلة وما أنتجته طوال عمرها، فكانت النتيجة أن الإنتاج كان أقل بكثير.

حسابات سوق العمل

من المعروف أن حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، شهدت ما يسمى «ازدهار نمو الأطفال» (Baby Boomers). لكن هذه الحقبة انتهت، وحلّت محلها ظاهرة انخفاض الولادات وزيادة نسبة المسنين بشكل لافت. ولذا، يتساءل الباحث المشار إليه آنفاً: «كيف ستكون أوضاعنا في المستقبل القريب عندما سيكون لدينا عشرات الملايين من العائلات مثل عائلة سارة، وفي الوقت نفسه منتجين من صغار السن أقل؟».

مجلة الإيكونوميست البريطانية وفي عددها الصادر في 26 نوفمبر 2005م، تطرقت إلى هذه المشكلة انطلاقاً من قضية سن التقاعد. وكشفت أن نسبة المعتمدين على المعاش التقاعدي سترتفع في بريطانيا من 27 في المئة إلى 45 في المئة خلال الثلاثين سنة المقبلة. وتقول المجلة أن هناك محاولة لإصلاح نظام معاشات التقاعد، وهذا لا يكفي. إذ يجب التطلع إلى مكان العمل نفسه وإلى سن التقاعد.

ففي ألمانيا، خفضت الحكومة سن التقاعد من 70 سنة إلى 65 سنة. كما أن سن التقاعد في بريطانيا محدد بـ 65 سنة بالقانون الذي صدر سنة 1925م، وكان المقياس آنذاك هو التوقع بأن يعيش الفرد قليلاً فقط بعد سن التقاعد. وفي فرنسا فإن سن التقاعد الرسمي هو 60 سنة أما الفعلي فهو أقل من ذلك، بينما ينقلب الوضع في اليابان، حيث السن الرسمي هو 60 سنة أما الفعلي فيقارب الـ 70 سنة.

وبينما يتوقع علماء الاقتصاد تباطؤ النمو الاقتصادي في الدول الغربية نتيجة انخفاض عدد الشبّان الذين يدخلون سوق العمل، يقترح البعض إطالة فترة العمل إلى ما بعد سن الخامسة والستين، والتشديد على الإنتاجية وليس على السن. أمرٌ كهذا يتوقف مدى قبوله بين كبار السن على نظرتهم لسنوات التقاعد، ففي بلجيكا وإيطاليا وفرنسا قامت الاحتجاجات على مشروع نظام يقضي بتأخير سن التقاعد إلى ما بعد الخامسة والستين، وأجبرت بعض التوجهات السياسية حكومة ألمانيا على تعديل النظام المقدم لإطالة سن التقاعد من 65 سنة إلى 67 ليطال شهراً واحداً كل سنة حتى العام 2032م. وفي الوقت نفسه، تؤكد التقارير أن ثلث المتقاعدين في سوق العمل الأمريكية يتوجهون لشغل وظائف أخرى لا تبالي لأعمارهم بل لنوعية أدائهم المهني، أما عن أولئك الذين لم يصلوا إلى سن التقاعد بعد من الموظفين في أمريكا، فيتوقع نصفهم العمل لما بعد السبعين عاماً، إما لضرورة مالية ترغمهم على هذا الخيار، وإما لنمط حياتهم الذي يدور حول كونهم في سوق العمل. وإذا كان صحيحاً أن كبار السن يصبحون أقل قدرة على فهم بعض القضايا وسرعة الإنجاز، فيمكن للخبرة أن تعوض عن ذلك. كما أنهم يصبحون أكثر استعداداً للقبول بمرتبات أقل.

إلى ذلك، هناك أسباب أخرى لإطالة سن التقاعد، منها أن الاقتصاد يشهد تحولين رئيسين في معظم الدول المتقدمة وهما ازدياد الاعتماد على العمل الذهني بدلاً من اليدوي، واتساع قطاع الخدمات على حساب قطاعي الصناعة والزراعة. ولهذا، فإن التردي في الأوضاع الصحية للعاملين تصبح أقل شأناً مما مضى.

الشيخوخة لم تعد تعني العجز

نتيجة لتطور الطب والعلوم، لم تعد السن المتقدمة مرادفاً للعجز كما كان سائداً في الماضي. يقول آرنولد شيبل البالغ من العمر 82 سنة ولا يزال يُدرّس في جامعة كاليفورنيا، إن دماغ الإنسان يحتوي على 100 مليار خلية



أدمغة الأصحاء من كبار السن تتطور باتجاه المزيد من القدرة على الاستيعاب وتحليل المعلومات، فيبرعون في مجالات أفضل من الشبّان

عصبية. ولا أحد ينكر أن التقدم في السن يجعل بعض هذه الخلايا يموت. لكن هذا التراجع يتفاوت بين شخص وآخر.

فالتراجع الكبير هو عند الذين يتعرضون لمرض الزهايمر، لكنه ليس خطيراً عند الأصحاء الذين يمارسون التمارين الجسدية والذهنية، وخصوصاً أولئك الذين يواجهون تحديات. فعند هؤلاء تسهم هذه النشاطات في تشكيل تشعبات جديدة في المناطق الدماغية المختصة باستيعاب وتحليل المعلومات.

والدكتور جين كوها مؤلف كتاب «السن المبدعة» يؤكد ذلك، مضيفاً أن هذه التشعبات تزدهر في سن الخمسين والستين وما بعد الستين. أما شيبل وهو عالم أعصاب، فيضيف أن الفرد في السن المتقدمة يستطيع أن يرتب المعلومات العادية بطرق غير عادية، وما هذا إلا الإبداع بعينه. ويقول إنك إذا أعطيت شاباً تحت الأربعين مشبكاً عادياً للأوراق (clip)، أو عود أسنان وطلبت منه أن يصنع منه أشكالاً، للاحظت أن قدرته تفوق حتماً قدرة من هو فوق هذه السن. لكنك إذا نظرت إلى مسائل أخرى تتعلق بالإبداع العملي مثل حل المشكلات اليومية، للاحظت أن المبدعين من كبار السن هم أكثر عدداً من الصغار. ومن الأمثلة التي يضربها شيبل في هذا المجال هناك بين فرانكلين الذي ابتكر النظارة ثنائية البؤرة في سن الثامنة والسبعين. كما أن رسامين كباراً من أمثال بيكاسو وماتيس وكونينغ كانوا يتطورون نحو الأفضل كلما تقدمت بهم السن كما يقول الرسام شيرش كلوز.

وتدعيماً لهذا الرأي، تؤكد الأبحاث الدماغية وخصوصاً من خلال التصوير بواسطة الطنين المغناطيسي أن مختلف مناطق الدماغ تتفاعل فيما بينها خلال السن المتقدمة أكثر منها في سن الشباب. فالمتقدم في السن يستطيع أن يبدع في مجالات تستعصي على الشبّان. وربما كان الإنسان في هذه السن المتقدمة هو من يستطيع إيجاد الحلول للمشكلات المعقدة التي تنتظر المجتمعات عل صعد عديدة.



زكي غواص

القدرة على العمل تفك ارتباطها بالتقدم في السن

ما بين سن التقاعد، خاصة إذا كان مبكراً، والشيخوخة، لا بد وأن يخطر ببال المتقاعد أن يؤسس عملاً حراً يُشغله. فكيف السبيل إلى ذلك؟ وما هي المخاطر والمحاذير؟
رياض ملك، يتناول هنا موضوع الانطلاق في العمل الحر، شاملاً حتى أولئك الذين يميلون إلى ترك وظائفهم الثابتة لإبدالها بالعمل الحر.

كيف تبدأ عملاً حراً؟





إضافة إلى كونه فرصة عمل متاحة للذين تقاعدوا من وظائفهم، وهم لا يزالون يشعرون بالعافية والرغبة في العمل، يبدو العمل الحر جذاباً بالنسبة إلى الكثيرين أكثر من الوظيفة الثابتة التي يمارسونها. ولذا، فلا بد من التوقف أمام سلامة القرار ببدء عمل حر والدوافع إليه.

فإذا كان الدافع إليه خلافاً مع رب العمل، على سبيل المثال، أو الحلم بالثروة الطائلة بدلاً من الراتب الشهري المحدد، أو الاستمتاع بالدوام الحر بحيث يأتي المرء إلى العمل ساعة يشاء ويغادر عندما يشاء... فإن ذلك يعني انطلاقة في الطريق الخطأ؛ لأن هذه الأسباب لا تشكل أساساً لعمل حر ناجح.

الدافع السليم إلى العمل الحر يجب أن ينطلق من فكرة يعتقد صاحبها أنها ستكون ناجحة تجارياً ومجزية على الصعيد الشخصي، وعلى صاحبها أن يتمتع بصفات ومؤهلات الذين يمارسون العمل الحر.

تشمل هذه الصفات أولاً الرغبة الملحة في امتلاك عمل خاص والقدرة على المثابرة، وبذل أي جهد لتخطي العقبات والمشكلات التي قد تنشأ خصوصاً في بدايات العمل الحر. وتشمل أيضاً المعرفة العملية بما هية العمل، إضافة إلى المال اللازم لوضع الفكرة أو المشروع قيد التنفيذ. وفي حين أن المتقاعد باكراً، أو الذي سبق له أن ترك وظيفته لسبب أو لآخر، يعتبر حراً في التصرف، فإن الموظف الذي سيتقدم باستقالته لبدء عمل حر، عليه أن يفعل ذلك وهو على علاقة طيبة مع رؤسائه وزملائه، لأن هؤلاء سيكونون على الأرجح أول زبائنه والمروجين المحتملين لعمله الجديد.

تحديد المشروع

منذ اللحظة الأولى التي يستقر فيها الرأي على دخول ميدان العمل الحر، تقوى ملاحظات المرء للنشاطات والأشياء وتصبح متابعته للأحاديث أدق وأكثر انتباهاً، وذلك لأنه في حالة استنفار لا شعورية بحثاً عن شيء. قد تكون الفكرة في بعض الأحيان أمامه، ولكنه لم يلحظها من قبل لأن تفكيره لم يكن يأخذ هذا الاتجاه. وفي كل الأحوال، فإن اعتماد مشروع معين هو الخطوة الأولى والأهم. ولذلك يجب أن تكون متأنية ومدروسة جيداً. ففيها مفتاح النجاح والفشل.

مبادئ أساسية

هنا، يمكننا أن نعدد للقارئ بعض المبادئ التي يمكنه

الغرف التجارية والصناعية توفر كل المعطيات اللازمة للعمل الحر من الناحية القانونية

الاستفادة منها لتلافي بعض مخاطر هذه الخطوة الأولية والكبيرة:

- لا تدخل مجالاً يتجه نحو الأفول، وابحث عن مجال لا يزال في بداياته. وهذا ما يتطلب منك أن تكون متابعاً لما يجري في عالمك. فلا تبدأ مثلاً مشروعاً لبيع الآلات الكاتبة في حين أنه باتت أجهزة الكومبيوتر معتمدة حتى في أصغر الأعمال.
- ادرس البيئة التي ستعمل ضمنها جيداً، ولا تسقط عليها معطيات رائجة في بيئة أخرى بشكل تلقائي. فقد يستعمل الناس في بيئة معينة مثلاً ورق الجدران في بيوتهم. ولكنهم في بيئة أخرى يفضلون طلاء الجدران ويعتبرون الورق مجرد ساتر للعيوب.
- فكّر في المشروعات غير المثيرة التي تبدو أنها ستلازم مجتمعك لمدة طويلة، كمكتب المحاسبة، على سبيل المثال. فطالما أن هناك شركات وضرائب ستكون هناك الحاجة إلى مكاتب محاسبة، ولا يبدو أن هناك أي مجال لتغيير هذا الوضع في المستقبل المنظور.
- حاول أن تعرف حدة المنافسة في مجالك وأوضاع منافسيك في محيطك القريب. والنصيحة في هذا المجال أن لا تكون منافستك للغير مستندة على مقارنة الأسعار فقط. لأن هناك عناصر أخرى قد تقلب المفاضلة بينك وبينهم بالاتجاه المعاكس.
- عندما تتبلور لديك فكرة ما، ناقشها مع أصدقائك المقربين، ولا تعتبر أية تعليقات سلبية من جانبهم إحباطاً لهمّتك. بل حلل آراءهم بشكل موضوعي.
- لا بد أن تسأل نفسك إن كنت تود ممارسة هذا العمل المحدد دون غيره، وتجد فيه المتعة. فأكثر الناجحين في العمل الحر يحبون ما يقومون به، وربما كان هوايتهم أصلاً.
- السؤال التالي هو حول مدى علمك بما ستقوم به.

ولا نقصد بالعلم هنا الشهادة الجامعية، وإنما المعرفة والدراية العملية بالموضوع. فإذا كان مشروعك مثلاً أن تفتح مكتباً لتأمين السيارات، ولم تكلف نفسك سابقاً عناء قراءة بوليصة التأمين الخاصة بسيارتك، فهذا يعني أنك غير مؤهل معرفياً لهذا المشروع.

إن هذا لا يعني حتماً أنك غير قادر على سد هذه الفجوة، وإنما عليك الانتباه إليها والعمل جاهداً لكسب اللازم من المعرفة. قد تحتاج إلى قراءة كتاب حول الموضوع، أو العمل متدرباً، ولو مجاناً لدى أحد مكاتب التأمين لفترة من الزمن.

- أما السؤال الأخير الذي لا بد وأن تطرحه على نفسك فهو حول استعداداتك لتغيير نظام حياتك الرتيب إلى آخر أقل رتابة وراحة خاصة في السنة الأولى من المشروع. فهي سنة العقبات والصعوبات. ستبذل فيها جهداً أكبر مما هو الحال في الوظيفة، والمردود المالي قد يكون أقل.. ومن الأفضل بحث هذه الناحية مع العائلة أيضاً كي تسير الأمور على ما يرام.

أول الخطوات التنفيذية: القانون

أما ويكون المرء قد اختار مشروعاً نظرياً، فمن أين يبدأ التنفيذ؟

تكمن الخطوة الأولى في التأكد من أن العمل المنوي تأسيسه هو ضمن القانون. وهذا ما يمكن إثباته بسهولة من خلال استشارة قانونية أو الغرفة التجارية في البلد. فهذه الجهات تستطيع تزويد صاحب العمل الحر بكل المعلومات عن النواحي القانونية لنشاطه، وعن أي شروط أو متطلبات قد لا يكون على علم بها. ولا داعي للقول إنه يجب القيام بهذه الخطوة قبل الدخول في أية ارتباطات أو توقيع أية عقود قد يترتب عليها التزامات يعجز عن تنفيذها.

أما كيفية التنفيذ فيمكنها أن تتخذ أكثر من شكل واحد، فإذا كان المرء متقاعداً يمكنه أن ينصرف كلية إلى مشروعه. وإذا كان موظفاً فمن الأفضل أن يحتفظ بوظيفته ويبدأ عمله الحر بنشاط محدود على سبيل الاختبار، الأمر الذي يسمح له بالاحتفاظ بمدخول ثابت لفترة تجنبه مأزقاً مالياً محتملاً. أما سلبيات هذا التدبير فتكمن في أن المرء قد يجد نفسه في موقف يضطره إلى مسايرة أحد العملين على حساب الآخر. أضف إلى ذلك أن الوضع قد يصبح أكثر تعقيداً إن كان العمل الحر يقترب بشكل أو بآخر من نوعية العمل الوظيفي. فهذا قد يؤدي إلى تضارب في المصالح والتصادم ما بين العملين. والحل المناسب في هذه الحالة، يتوقف على طبيعة المشروع. وفي جميع الأحوال، فإن فترة العمل في مكانين معاً لا بد وأن تكون مؤقتة وقصيرة قدر الإمكان.

بين التفرد والشراكة

بالوصول إلى نقطة التفرغ للعمل الجديد، تكون الخطوة التالية اختيار الشكل القانوني للعمل. فقد يصبح المرء صاحب مؤسسة فردية أو شريكاً لطرف آخر أو أكثر، أو مساهماً في شركة محدودة المسؤولية. ولكل من هذه الأشكال القانونية حسناته وسيئاته سواءً لناحية تنفيذ العمل نفسه أو لناحية الضرائب. وقد يتأثر اعتماد الشكل بالحاجة إلى التمويل، أو خبرات الآخرين. وبصرف النظر عن الشكل الذي يتم اختياره في النهاية، فإن أي اتفاق يتم التوصل إليه مع طرف آخر يجب أن يكون واضحاً تماماً، وأن يوضع بشكل خطي من قبل محامٍ ذي خبرة في حقل العقود والاتفاقات.

بعد التأسيس لا بد من الاهتمام بمسألتي التعريف بالعمل وضمان استمراره من خلال رضا الزبائن والعملاء

الجدوى الاقتصادية

عندما يصل صاحب العمل الحر إلى مثل هذه المرحلة المتقدمة، فلا بد من أن يكون قد استند مسبقاً إلى توقعات لنتائج العمل، توصل إليها أو دوّنها في صيغة أولية. هنا، لا بد من التدقيق بهذه التوقعات بشكل أعمق ومفصل، ووضعها خطياً بشكل مهني، وهو ما يسميه أرباب العمل بالجدوى الاقتصادية.

إن وجود دراسة من هذا النوع سيكون مفيداً في عدة أمور: **أولاً**، إن وضع الأرقام على الورق سيحفز صاحب العمل على التفكير بها أكثر من مرة، ومحاولة تبرير كل رقم منها. فهو لا يستطيع أن يفترض كل شيء عشوائياً، خاصة بالنسبة إلى الأرقام الأساسية. إذ قد يضطر إلى الاستفسار عن بعض الأمور بشكل أدق مثل إيجار المكتب الذي قد يشكل عنصراً أساساً في المصروفات الثابتة. فهذه الأرقام المدروسة بعناية قد تكشف صورة لا تتطابق مع التصورات الأولية، وقد تدفع صاحب العمل إلى تغيير خططه في بعض المجالات.

ثانياً، إن وجود مثل هذه الدراسة هو أمرٌ حتمي عند البحث عن مصادر تمويل للمشروع من أطراف أخرى كالمصارف أو الشركاء وحتى الزملاء والأقارب. ومما لا شك فيه أن المشروع الذي أُخضع لدراسة دقيقة ومقنعة سيدل على أن صاحبه منظم التفكير وأهل للثقة، ويمكن ائتمانه على المال المطلوب.

ثالثاً، هناك حاجة للعودة إلى هذه الدراسة كلما تقدم تنفيذ المشروع، ليرى صاحبه إذا كانت الأمور تسير كما رسم لها، وإذا لم تكن فما هي الاختلافات، أسبابها، وحجمها وجديتها في التأثير على نتيجة المشروع النهائية.

ومن المفترض أن تشتمل دراسة الجدوى هذه على أرقام مستقبلية تظهر التوقعات لما ستكون عليه الأرباح والخسائر للسنوات الثلاث الأولى من بدء النشاط. كما أن هناك كشفاً مستقبلياً مهماً يجب إعداده بعناية حول الحاجات المتوقعة من السيولة. وذلك لأن ما تربحه من العمل لا يتحول بالضرورة بشكل فوري إلى سيولة، إلا إذا كان تعاملك كله على أساس نقدي. لذلك، فإن كان ربحك الصافي 20 ألف ريال مثلاً، فذلك لا يعني بالضرورة أن لديك هذا المبلغ. فقد يكون أكثر من نصفه ديوناً تطلبها من الآخرين. الهدف من حساب السيولة هذا هو أن يظهر لك متى سيكون لديك فائض من النقد، ومتى ستقع في العجز. وهذه المعلومات بالغة الأهمية إذا كنت تنوي الاقتراض لتستثمر في مشروعك. إذ ليس هناك أسوأ من الاكتشاف المفاجئ للحاجة إلى النقد. فحتى ولو تمكن المرء من الحصول عليه، فإن ذلك يكون عادة بأقسى الشروط، طالما أن موقفه التفاوضي سيكون في منتهى الضعف نظراً لحاجته الملحة. وهناك مشروعات ناجحة كثيرة انتهت إلى الفشل بسبب عدم توقع أصحابها سلفاً لحاجتهم من السيولة وتأمينها من دون ضغط وبشروط مقبولة.

عند بدء العمل

وبالوصول إلى مرحلة العمل الفعلي في الحقل الذي تم اختياره، يجد صاحب العمل الحر نفسه أمام مهمتين: مهمة التعريف بالعمل، ومهمة الاستمرار فيه.

يمكن للتعريف أن يتم بوسائل عديدة تبعاً لنوع العمل. فقد يعمد صاحبه إلى إرسال رسائل تعريفية إلى من يعتقد أنهم يهتمون بالأمر، وربما أرفق مع الرسالة كتيباً صغيراً فيه بعض الشروحات والصور. كما يستطيع الإعلان عن العمل في وسائل الإعلام وخاصة المجلات المتخصصة بهذا النوع من العمل. إضافة إلى إقامة حفل افتتاح يدعو إليه أصدقاءه الذين يزاولون عملاً على تماس مع عمله، لتعزيز اتصالاته الشخصية بهم. كما يجب عليه أن لا ينسى إدراج اسمه واسم مؤسسته الجديدة في دليل الهاتف والدليل التجاري وأية نشرة أخرى من هذا النوع. وفي عصرنا هذا، قد يكون من المفيد أن يكون له موقع على الإنترنت يعطي نشاطه دفعاً قد يكون مؤثراً.

أما لجهة الاستمرار، فالسبيل الرئيس والفاعل هو رضا الزبائن والعملاء. إذ لا شيء يأتي بالزبون الجديد مثل السمعة الطيبة عند زبون سابق مرتاح إليك. والواقع أنه في معظم مجالات العمل اليوم، يطلب ممن يتقدم بعرض لتنفيذ عمل ما أن يذكر أسماء عملاء سابقين وعناوينهم. وربما قام العميل الجديد بالاتصال بهؤلاء فعلاً، لأخذ شهادتهم ورضاهم عن العمل والطريقة التي عوملوا بها. وفي غياب سجل كهذا، فإن أي ترويج دعائي سيثبت أنه قصير الحياة وقليل الفاعلية وغالي الثمن.

أما السبيل الآخر للاستمرار فهو في الاطلاع المتواصل على ما يدور في مجال العمل وتطويره وتحديثه بشكل مستمر. فالجمود سواءً في مجال العمل هو طريق الزوال. الجمود الوحيد المقبول هو الثبات على نوعية ما تقدمه من سلع أو خدمات، وإعطاء عملائك دائماً الانطباع بأنهم يحصلون فعلاً على قيمة عادلة مقابل ما يدفعون.


Flickr

الأهل وفروض الأولاد المدرسية

يستيقظون في الصباح الباكر، يتناولون وجبة الفطور ثم ينطلقون إلى مدارسهم ليمضوا أكثر من ثلث النهار هناك وبعدها يعودوا ليأكلوا ويرتاحوا قليلاً، ومن ثمّ يبدأون بتحضير واجباتهم المدرسية. ينطبق هذا على خمسة من أصل سبعة أيام من الأسبوع على الأقل. لذلك يجب أن تكون الفترة التي يمارسون فيها واجباتهم المدرسية هي الفترة التي يجب علينا استغلالها للتقرّب منهم ومشاركتهم بعض أوقات نهارهم والمساهمة في اهتماماتهم. **مهى قمرالدين*** تتحدث عن دور الأهل في هذا المجال.

قبل الحديث عن كيفية مساهمة الأهل في مساعدة أطفالهم في الواجبات المدرسية، يجب أن نسأل عن أهمية إعطاء فروض مدرسية من الناحية الأكاديمية. وفي هذا الإطار، يقول الأخصائيون بأن هناك فوائد أساسية ثلاث للواجبات المدرسية:

أولاً: إنّ الواجبات المدرسية تزيد من استيعاب المفاهيم المختلفة التي تم شرحها في المدرسة. أي أنه كلما أجاب التلميذ عن أسئلة تطبيقية أكثر، كلما استطاع فهم المادة بشكل أفضل.

ثانياً: يساعد إعطاء التلميذ واجبات مختلفة على توزيع الوقت بالشكل السليم الذي يسهل عليه إنجاز جميع واجباته على أكمل وجه.

ثالثاً: تساعد تلك الفروض على تنمية قدرات التلميذ الإبداعية وذلك من خلال القيام ببحوث لا يمكنه القيام بها خلال النهار الدراسي في المدرسة، وذلك لضيق الوقت المخصص للحصة المعينة.

الحضور وتوافر الجو الملائم

أمّا عن الطريقة المثلى لمساعدة الأهل لأولادهم في إنجاز واجباتهم المدرسية، ففي البداية جداً، كما تقول الخبيرة في الشؤون التعليمية مارشا باس حول موضوع مساعدة الأهل في تحقيق النجاح المدرسي لأولادهم: «إن الأمر في غاية البساطة - أول الأمور هو أن تكون هناك». إن تواجد الأهل عندما يعود الطفل متعباً بعد نهار دراسي طويل يعطي الراحة النفسية والطمأنينة إلى نفس الطفل. كما أن تأمين الجو المريح يوفر له الراحة الملائمة للقيام

* أخصائية تربية من لبنان

بواجباته المدرسية. وهذا الجو المريح يتضمن التقليل من العوامل الخارجية التي يمكنها أن تشتت ذهنه مثل تواجد الزائرين الكثر في المنزل ومكالمات الأهل الهاتفية الطويلة، إلخ.

وضع النظام

ثم هناك أهمية وضع القوانين في المنزل التي من دونها يمكن للطفل أن يشعر بالضياع. إذ من المهم أن يعرف الطفل ماذا ينتظره. فمثلاً، يمكننا أن نحدد له ساعة واحدة للأكل والراحة ومن ثم الدرس لفترة ساعتين على الأقل يتخللها وقت قصير من الراحة، وبعدها يمكنه مشاهدة التلفزيون وتحضير نفسه للنوم. وهذا يساعده على تنظيم وقته بشكل فعّال. أمّا بالنسبة إلى فترة الدرس، فعلينا أن نعوّد أولادنا على وضع برنامج منظم لإنجاز كل المهمات. وحتى في المراحل الدراسية الأولى يمكننا أن نضع نحن برنامج الدرس اليومي، فمثلاً الحساب أولاً، ثم اللغة، ثم العلوم إلخ... إلى أن يكبر الطفل ويعتاد أن يضع البرنامج هو بنفسه.

المطلوب هنا هو الحزم في فرض هذا القانون أو البرنامج إنما ليس المطلوب القسوة. فهناك فرق بين الحزم والقسوة. الأصح والأنسب هو التحفيز والتشجيع مع بعض الحزم والشدة. إن التحفيز والتشجيع هما الأجدى كما يقول الخبراء، وليس فقط في الحث على الدرس وإنجاز الفروض المدرسية، إنما في جميع الأمور التربوية الأخرى. علينا تشجيع الطفل ومكافأته إذا ما قام بواجباته على أكمل وجه، خصوصاً إذا لمسنا لديه بعض اللهو و عدم الجدية في فترات سابقة.

خلال فترة الدرس يجب أن لا نتجاوز الخط الرفيع الذي يفصل بين إشرافنا على تدريس أطفالنا والقيام بواجباتهم المدرسية نحن بأنفسنا، وهذا خطأ يمكن أن يقع فيه الكثير من الأهل. وحتى إذا عجز الولد عن حل كل المسائل المطلوبة منه، فلا يجب علينا أن نحلّها له. لأن مجرد التفكير فيها من جهته هو تمرين ذهني مفيد قد يساعده على حلها في وقت لاحق.

أما إذا تركنا الأولاد يعتمدون علينا في كل شيء، فإننا نكون قد أسهمنا في جعلهم أولاداً تابعين لا يتحلّون بالاستقلالية. إذ أن الولد الاستقلالي يعرف الصعوبة التي تكمن وراء أي إنجاز، ويدرك أنه لن يصل إلى المكافأة إذا لم يعرف العناء. كما أننا بالتقرير عنه وأخذ المبادرة عنه، نحرمه من اكتساب مهارة التعامل مع المسؤوليات المحددة التي ستواجهه في المستقبل.

الإشراف

والإشراف على التدريس قد يتضمن إحضار المصادر العلمية التي تساعد في كتابة أي بحث مطلوب من التلميذ أو حتى الطلب إليه أن يشرح لنا الدرس بدل العكس، إذ أنه بمجرد هذه المحاولة يمكنه فهم المادة بشكل أفضل. وفي أحيان أخرى يمكننا فقط الإرشاد وإعطاء الأمثال عن الحياة اليومية.

وهذا الإشراف يجب أن يبدأ منذ السنوات الأولى، إذ إن الأساس هو الأهم. وعدم البدء من الصغر هو خطأ غالباً ما يقع فيه عدد كبير من الأهالي. إذ يسود الاعتقاد بين بعضهم بأن الطفل لا يزال صغيراً وليس من المهم تدريسه في المنزل أو إعطاء أية أهمية لواجباته المدرسية. ويبدأ التدخل عندما تقع المشكلة ويبدأ التقصير المدرسي. وهنا يكون التدخل متأخراً كثيراً. فتعلو الصرخة ويسرع الأهل للاستعانة بالمدرسين الخصوصيين، الذين يمكن أن يكونوا على درجة كبيرة من الكفاءة، ولكن يكون أساس فهم الولد لدروسه ضعيفاً. ومن الصعب البناء على أساس مهزوز كما أن مساعدة المدرّس الخصوصي لا يمكنها تأمين هذا الرابط الذي ينشأ من مساعدة الأهل لأولادهم التي تعطي الأولاد هذا الرابط النفسي الذي يسهم كثيراً في تحقيق النجاح المدرسي. لذلك، إذا ما نظرنا إلى هذه التجارب فنجد أنه من النادر أن يساعد المدرّس الخصوصي في تحقيق النجاح المبتغى.

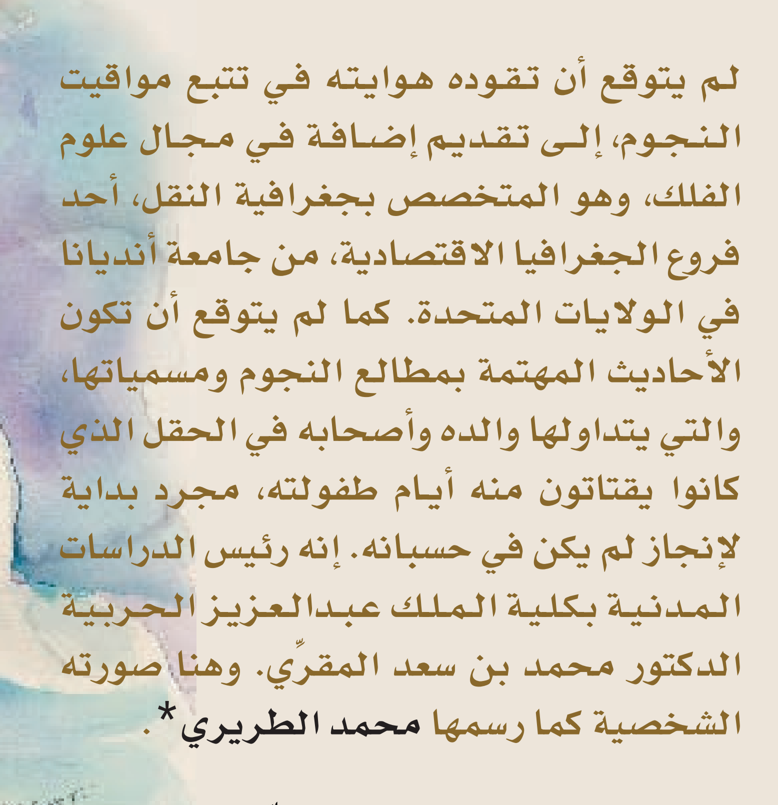
وهناك بعض الأهل الذين يلجأون إلى دعوة أصدقاء أطفالهم للدرس سوية لاعتقادهم أن الدرس في مجموعات يمكن أن تكون له فائدة أكبر. ولكن علينا تجنب هذا الوضع، خصوصاً في مرحلة الطفولة الوسطى، أي ما بين سن السادسة والحادية عشرة. إذ إنه لا يمكن للطفل في تلك الفترة التمييز بين ما هو اجتماعي ترفيهي وبين ما هو عمل جدّي. لذلك لا يمكن أن تكون لتلك التجمعات أية فائدة أو نتيجة مثمرة.

وفي أحيان كثيرة يعتري بعض الأهل الخوف. فهم ليسو على درجة عالية من التعلم، لذلك يتجنبون التدخل في المساعدة في تدريس أطفالهم. ولكن المطلوب هنا هو فقط تأمين الدعم النفسي والقليل من المعرفة، وليس المطلوب هو أن نحل مكان الأستاذ الذي يشرح ويعلم في المدرسة.

وكل ما ذكرناه آنفاً ينطبق على الأولاد العاديين الذين لا يعانون من مشكلات تعليمية كبرى، مثل «الاهتياج الحركي» أي مرض نقص التركيز والإفراط الحركي اللا إرادي. أو «القراء» التي لا بد معها من الاستعانة بالخبرة المتخصصة التي لا يمكننا من دونها مساعدة أطفالنا إلى الوصول وتحقيق النجاح المدرسي والعلمي المطلوب.

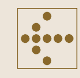
وهكذا، فإن مساعدتنا لأطفالنا في إنجاز واجباتهم المدرسية لا تقف فائدتها فقط عند تحقيق النجاح المدرسي المباشر، وإنما تتعداها لتخولنا الدخول إلى عالم يمثل حيزاً كبيراً من حياتهم. وبهذا تكثر الموضوعات التي يمكننا التحدث بها معهم، لنبني هذا الجسر النفسي غير المرئي الذي يدعم أولادنا في الصغر فيساعدهم على تحقيق النجاح العملي في الكبر.

صورة شخصية



لم يتوقع أن تقوده هوايته في تتبع مواقيت النجوم، إلى تقديم إضافة في مجال علوم الفلك، وهو المتخصص بجغرافية النقل، أحد فروع الجغرافيا الاقتصادية، من جامعة أنديانا في الولايات المتحدة. كما لم يتوقع أن تكون الأحاديث المهتمة بمطالع النجوم ومسمياتها، والتي يتداولها والده وأصحابه في الحقل الذي كانوا يقتاتون منه أيام طفولته، مجرد بداية لإنجاز لم يكن في حسبانه. إنه رئيس الدراسات المدنية بكلية الملك عبدالعزيز الحربية الدكتور محمد بن سعد المقرِّي. وهنا صورته الشخصية كما رسمها محمد الطريري*.

محمد بن سعد المقرِّي...
من حقل صغير إلى الخارطة السماوية



ولد الدكتور محمد بن سعد المقرِّي في محافظة الدوادمي عام 1372هـ، وكانت طفولته موزعة بين الدراسة ومساعدة أهله في زراعة الحقل الصغير، وكما كان كل شيء صغيراً ابتداءً من الدار ومروراً بالحقل وانتهاءً بالقرية، كانت الهموم كذلك صغيرة. ولم يكن الأفق آنذاك ليسمح للطفل الذي غدا أستاذاً جامعياً بإطلاق خياله إلى خارج قريته فضلاً عن مدارات النجوم البعيدة.

مدرسته الأولى حياة الريف

كان الطفل الصغير يحضر مجلس «الرجال الكبار» وهي العبارة التي يرمز بها الفتيان إلى مجالس آبائهم وما يدور فيها من أحداث وروايات لا تخرج عن اهتمامات القرية البسيطة. وكان من أهم الموضوعات التي كان الكبار يدرجونها ضمن جدول النقاش و لا يملون من تكرارها، قضية مطالع النجوم وأوقاتها، وما يترتب عليها من دخول أوقات الشتاء والصيف وتفاصيلها المتنوعة من حيث اختلاف درجات البرودة والحرارة. إذ تتقابل «مربعانية الشتاء» مع «مربعانية القيظ» في المسمى واختلاف التفاصيل، مع بعض الروايات الأسطورية المتعلقة بالمواسم. إذ تفترض إحدى الأساطير وجود أبناء لموسم الشبط الواقع بعد موسم المربعانية في فصل الشتاء، وتقوم الشبط باعتبارها أماً لهؤلاء الأبناء بالتشديد عليهم أن لا يتركوا الناس من دون القيام بزيادة البرد القارس عليهم، حيث يكون الشتاء في نهايته. وهكذا يتداخل الأسطوري بالواقعي في سلسلة، ولكنها تتفق في النهاية على أهمية أخبار النجوم والمطالع في حياة ريفيين يعنيهم دخول موسم «الوسم» لأنه أفضل وقت لنزول المطر، وما يتبع ذلك من اخضرار الصحراء القاحلة، وظهور نباتات وأعشاب لاستخدامات مختلفة، ويصدق حينذاك «الحديث عن النجوم والمطالع ذو شجون».

في هذه البيئة نشأ الدكتور محمد المقرِّي، غير أن اهتمامه بالنجوم والمطالع لم يتجاوز اعتبارها حديثاً

* صحافي سعودي

يتكرر مع اختلاف فصول السنة، وتفرضه البيئة المحيطة. وسرعان ما انهمك في دراسته الثانوية التي أنهاها في الدوادمي لينتقل بعدها إلى الرياض، حيث واصل دراسته الجامعية في كلية التربية في جامعة الرياض، وتخرج منها ليعيّن معيداً في كلية الملك عبدالعزيز الحربية. وبعد سنتين غادر إلى الولايات المتحدة في بعثة دراسية أنهى خلالها الماجستير والدكتوراة في جامعة إنديانا في مدينة بلومنغتون، متخصصاً في الجغرافيا الاقتصادية، وجغرافية النقل كتخصص دقيق، واستغرقت دراسته تسع سنواتٍ اعتبرها أجمل سني حياته.

تطلعه إلى قبة السماء

وحول بداية اهتمامه بموضوع النجوم والمطالع، ذكر المقرِّي أن اهتمامه بها جاء متأخراً. وللوصول إلى نقطة التماس التي أشعلت هذا الاهتمام، أكد على أنه «فلاح ابن فلاح»، ولم يكن يرمي لغزاً وإنما يتحدث عن واقع. وهنا يجيب عن العلاقة بين مهنة فلاحة الأرض والاهتمام بالنجوم ومطالعها. إذ يقول: «يحتاج الفلاح إلى مطالع النجوم ليقوم بتحديد أوقات الحرث والبذر والتلقيح، فكل وقت من أوقات السنة له أنواعه من المزروعات، وهي أوقات لا تختلف على مدار العام، غير أن انتقالي إلى العمل في الرياض مع عدد من إخوتي، أوحى لنا بشراء مزرعة في أطراف المدينة لتكون متنفساً لنا، وبالفعل قمنا بشرائها غير أننا وقعنا في إشكالية انعدام الخبرة بأوقات زراعة المحاصيل، الأمر الذي أجبرني على تتبع هذه الأوقات، ومن هنا كانت بدايتي بهذا الاهتمام، وهي بداية متأخرة لهذه الهواية، حيث جاءت بعد أن استقريت في وظيفتي، ولم تصاحبني منذ البداية».

إعداد تقويم الحرمين

ومن هذه الحيثيات، انطلقت فكرة إعداد تقويم الحرمين الفلكي، الذي مر بأربع سنوات كمرحلة أولى لجمع المعلومات، وسنتين كمرحلة ثانية من العمل المحدد، ابتداءً من التصميم إلى وقت خروجه من المطبعة بشكله النهائي.

وتقويم الحرمين الفلكي عبارة عن لوحة فلكية تمثل فصول السنة وبروجها ونجومها (منازل القمر)، وتم تصميمه على قدر عالٍ من الدقة، وتم اختيار الألوان التي تعكس طبيعة المناخ وتدرجه، كما أنه يشتمل على العديد من المعلومات الأساسية المبنية على أسس علمية، والتي تم عرض معلوماتها بأسلوب مبسط ليتمكن الجميع من استخدامها.

ويفيد هذا التقويم في التعرف على الفصول والبروج والنجوم، ومواقيتها وخصائصها المناخية، إضافة إلى التعرف على أشكال النجوم ومواقعها من البروج وأسمائها العلمية والدارجة، وتحديد الجهات ليلاً ونهاراً وفي حالة الغيوم كذلك، ومعرفة هجرة الطيور، ومواعيد زراعة بعض المحاصيل الزراعية.

..واسطرلاب الحرمين

ويأتي اسطرلاب الحرمين الحديث مشابهاً للاسطرلاب القديم من حيث الشكل، إذ يعتبر المقرِّي «أن تصميمه واسمه يمثلان علامة احترام لأسلافنا وما تعلمناه منهم، غير أنه تم استخدام التقنية الحديثة في إعداده وتصميمه».

ويفيد الاسطرلاب في التعرف على النجوم والمجموعات النجمية التي يمكن مشاهدتها في القبة السماوية بالعين المجردة في أي وقت من الليل طوال العام، حسب دائرة عرض مكة المكرمة. وهو مناسب لمعظم الدول الإسلامية التي تقع على دوائر عرض مماثلة، مع إمكانية استخدامه لتحديد أوقات الصلاة. بينما صممت خارطة الحرمين السماوية على أساس دائرة عرض مكة المكرمة، وتضم أكثر من 85 كوكبة وُضعت أسماؤها باللغتين العربية واللاتينية، وكذلك أسماء بعض النجوم المشهورة ومنازل القمر.

وتشمل الخارطة خطوط الطول السماوية «الطالع المستقيم»، ودوائر العرض السماوية «الميل الزاوي»، ومنها دائرة الاستواء ودائرة عرض مكة المكرمة، ودائرة البروج، وتمثل المسار الظاهري للشمس بين النجوم خلال العام، إضافة إلى مجرّة درب التبانة.

ويلاحظ على هذه الخارطة أن التواريخ الموضوعة تحت تقاطعات دائرة البروج مع خطوط الطول تبين موضع الشمس الفعلي على هذه الدوائر في تلك التواريخ، كما أن دائرة البروج تتقاطع مع دائرة الاستواء في نقطتين تعرفان بالاعتدالين، حيث يتساوى الليل والنهار، أحدهما في 21 مارس ويطلق عليه الاعتدال الربيعي، والأخرى في 21 سبتمبر ويطلق عليها الاعتدال الخريفي، كما يلاحظ أن دائرة البروج تتقاطع مع دائرة عرض مكة المكرمة في نقطتين، الأولى في 31 مايو والثانية في 21 يوليو، وعندهما تتعامد الشمس على دائرة عرض مكة المكرمة، ما يعني أن الشمس تتعامد على دائرة عرض مكة المكرمة مرتين في الصيف.

وكان المقرِّي يتوقع أن يكون إنجازه لتقويم الحرمين الفلكي هو الغاية التي وصل إليها من اهتمامه بعلم الفلك. غير أنه ذكر أنها مثلت البداية للعديد من المشروعات التي تدور في الاهتمام ذاته، والتي أرجأ الإفصاح عنها لحين اكتمال ترتيباتها النهائية.



أزهار الكرز

المرأة اليابانية الشاعرة..

بتزايد انفتاح الثقافات على بعضها خلال القرن العشرين، كان الأدب الياباني مصدر إلهام وتأثير بالنسبة إلى العديد من الأدباء العالميين. علاء الدين رمضان* يفاجئنا هنا بالدور الذي لعبته المرأة الشاعرة والأديبة والرسَّامة في تاريخ الشعر الياباني قديماً وحديثاً، معتمداً على عمل موسوعي صدرت منه حتى الآن عدة أجزاء.

* كاتب وناقد من مصر

للشعر الياباني تأثير رئيس على أدب العديد من الثقافات، ممثلاً في الواكا أولاً، ثم لاحقاً في الهايكو، حيث كافح الشعراء من أجل التكثيف والإيجاز إلى جانب العمل على تحقيق الحيوية القصوى لأعمالهم؛ حتى تألقت أعمالهم في أشكال شديدة الإحكام الفني، واجتذبت العديدين من الشعراء الغربيين المحدثين لينسجوا على منوالها.

وقد أسهمت المرأة في ذلك مساهمة مهمة، فسجلت المجموعات الشعرية الموروثة - منذ فجر التاريخ الياباني القديم وحتى الآن - جوانبَ مهمة من أدوارهن في هذا السياق. ومن أولئك الشاعرات الرائدات كانت السيدة أونو نو كوماتشي جا- آني، التي تنتمي إلى حقبة هيان المبكرة (794 - 898)، وهي شاعرة لطيفة ذات تصرف فني فريد، إذ مالت في عدد كبير من قصائدها إلى استعمال التورية المضاعفة (التي تسمى «الكلمات المحورية») لإنشاء طبقات معقدة من المعاني، فعلى أي نحو تقارن الشاعرة نفسها بأزهار الكرز في مطر الربيع؟.. إذ تقول:

صِبْغَةُ الكرز
تخبو بسرعة أيضاً .. في لمحة
كُلّ شيء للزوال
هذا جسد تعهده العجز
والمطر الربيعي ينهمر دون انقطاع.

شاعرات في عالم البلاط

كان يُقال دائماً إن الكاتبات والشاعرات اليابانيات على خلاف الحال في الغرب، ليس لديهن الوازع لإنشاء «حرملك»، لأنهن كنَّ دائماً يمتلكن مكاناً مقبولاً في عالم الأدب الياباني الرفيع، وحتى في عالم البلاط الإمبراطوري. لذا سيجد أولئك الذين تآلفوا مع تاريخ اليابان الأدبي أن النساء من الناحية التاريخية والقومية تمتّعن بمكانة مرموقة بوصفهن كاتبات ومجددات رائدات؛ حيث لا غنى عنهن لإنشاء المجموعات الشعرية الكلاسيكية اليابانية المبكرة، التي ضمت أعمالاً كبرى ألفتها نساء، إلى جانب الأعمال غير الشعرية مثل تحفة القرن الحادي عشر للسّيدة موراساكي، «حكاية جينجي» التي تعد أولى الروايات الكبرى في الأدب العالمي. وبينما يعد الهايكو حتى الآن فناً ذكورياً، فإن « كاجا نو تشايو» (1703 - 1775)، التي درست علي أيدي سادة الهايكو، تُعدُّ إحدى أعظم شعراء الهايكو اليابانيين منذ حقبة إيدو (1615 - 1867)، وحتى الآن مروراً بحقبة مئيجي (1868 - 1912) التي تعد عصراً لانحطاط الأدب النسائي في اليابان.

ففي إحدى حقب التاريخ الياباني، عبّرت المرأة في شكل شاعري مستقيم، عن تعاليم الدراما والترجمة والتربية، لذا احتفت الذاكرة اليابانية بنسائها، وأبقت على مساهماتها حية في دواوينها الكبرى مثل الماني يوشي Manyóshú (مختارات أدبية من عشرة آلاف صحيفة، حوالي 780م)، والكوكينشو Kokinshú (مجموعة من العصور القديمة والحديثة، حوالي 905م)، فثلث القصائد في ماني يوشي Manyóshú كتبتها نساء، وثمان وعشرون كاتبة كُنَّ ممثَّلات في المجموعة الإمبراطورية الأولى من المختارات الأدبية الإحدى والعشرين؛ وشاركن كذلك في المجموعة الإمبراطورية اليابانية الشهيرة المعروفة باسم «أوجورا هياكونين إزشو»، التي يرجع تاريخها إلى المرحلة الواقعة بين عهد الإمبراطور تينجي والإمبراطور جيانتونو، ويعني اسمها بشكل حرفي «مائة قصيدة ألفها مائة شاعر مختلفين»؛ ومن بين هؤلاء المائة هناك أربع عشرة امرأة، تنتمي قصائدهن إلى فن «الواكا» وهو الأقرب إلى ما يعرف الآن بفن التانكا، وهي قصائد مكونة من خمسة أسطر في سياق يتألف من واحد وثلاثين مقطعاً. وكانت الواكا تمثل في ذلك العصر شعر البلاط الإمبراطوري؛ وسيدات هذه المجموعة هن: إيسي وإيسي نو أوسوكي، وأوكون، وإزومي شيكيبو، وكوشيكيبو نو نايشي، وسي شوناجون، وتايكين مون-إن نو هوريكاوا، وكاتائيكو دايني نو سانمي، وسوو نو نايشي، وغيرهن الكثيرات.

أما الشاعرات الثلاث اللواتي قدَّمْن أعظم القصائد للمختارات الأدبية الإمبراطورية الرابعة جوشيشو (وهي

مجموعة اكتشفت مؤخراً وقد حوت 1218 قصيدة)، فهن: السيدة إيزومي Lady Izumi التي أسهمت بسبع وستين قصيدة، وساجامي بأربعين قصيدة؛ وأكازوئيمون باثنتين وثلاثين قصيدة. وأيضاً من أصل 2211 قصيدة في المختارات الأدبية الإمبراطورية السابعة عشرة فوجاشو (المجموعة الرشيقة، التي جُمِعَت ما بين 1344 – 1349)، كانت المشاركة النسائية لكل من: الإمبراطورة آيفوكومونين التي نظمت تسعاً وستين قصيدة؛ وبالطبع كانت من بينهن امرأة البلاط السيدة موراساكي، التي كتبت حكاية جينجي، تحفة القرن الحادي عشر، والرواية الأولى في الأدب العالمي.

وبينما كان معاصروهن من الذكور ينظمون بلغة صينية مهمة في «الثقافة الرفيعة»؛ كانت النساء الكاتبات في القصر الإمبراطوري الياباني يُتْقِنَّ التعبير بلغتهن المحلية في أغلب الأحوال؛ فكان ميراثهن الشاعري من الرشاقة والمهارة التقنية ملتحماً دائماً بالجماليات المحلية.

ازدهار الدور النسائي

إن يابان اليوم، على أية حال، تختلف على نطاق واسع عن يابان البلاط منذ ألف سنة مضت. وكذلك، تختلف شاعراتها والكاتبات. فأدب المرأة الياباني كان دائماً مرتبطاً عن قرب بالسياق الثقافي والاجتماعي في أيهما نشأ. ففي حقبة هيان (764 – 1185م)، زمن السيدة موراساكي، كتبت الشاعرات واكا (من أنماط الشعر الياباني الكلاسيكي) حسيَّة وغير متحفظة، استدعت بعد ذلك تانكا (مقطوعات شعرية كلاسيكية قصيرة)؛ بخبرة كانت لا ترقى إلى مستوى الواكا – إذ تتشكل فقط من واحد وثلاثين مقطعاً طويلاً – تُنظم للإشارة إلى مناسبة ما. علاوة على ذلك، وتتخذ تيمة واحدة جاذبة كالعاشق، وكانت محصورة في نوع شعري واحد. وفي الوقت نفسه، تضمنت هذه الأشعار العاطفية غالباً أشكالاً لطيفة من النقد الاجتماعي أو تعليقاً متوارياً على العلاقات بين الرجل والمرأة.

وقد نشأت في اليابان مجموعة عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية فريدة، أدّت إلى ازدهار المشاركات النسائية في الفنون المختلفة ولا سيما الشعر والرسم. ففي القرنين الثامن والتاسع عشر، وعلى الرغم من الحقيقة القائلة بأنّ موقع النساء في مجتمع اليابان الأبوي آنذاك كان متدنياً جداً، فإن النساء جئنَ من القطاعات المتنوّعة من المجتمع، وعملن في العديد من المدارس والتقاليد، وأبدعن أعمالاً مهمة تعرض تشكيلة واسعة من الأفكار والأساليب. فكسبن مؤازرة نظرائهن وكُنَّ شخصيات مهمة في كل الأوساط الأدبية والفنية.

بونجينجا: طبقة الشاعرات الرسامات

لعل أسباب زيادة عدد الشاعرات من النساء أثناء حقبة إيدو (1600–1868) كانت منوّعة. فبعد حوالي قرن من الحرب الأهلية، كانت اليابان تتمتع بعصر من السلام والازدهار، فانتشرت الرفاهية حتى وصلت إلى الطبقات الوسطى والدنيا. وتطور المواطنون الجدد وكليات الفنون والآداب الجديدة. وشاركت النساء في الفَنِّ والأدب، وحفزهن أيضاً انتشار التعليم، ونمو المدارس الخاصة والأهلية، فشاع التعلّم والتثقيف بين كُلّ الطبقات؛ والنساء اللواتي تعلّمن كُنّ على الأرجح أكثر تطلعاً من غيرهن وتحرُّكاً إلى ما بعد الأدوار المصدّق عليها اجتماعياً، أي الزوجة والأمِّ.

فمعظم النساء اللواتي انفصلن في تلك الحقبة عن أدوارهن التقليدية وحققن اعترافاً بوصفهن شاعرات أو فنانات كن أفراداً من الطبقات غير الأرستقراطية؛ وهذا لا يعني أن نساء الحاشية أو عائلات الساموراي العليا كن غير موهوبات. بل كان هناك عدد من الشاعرات نبيلات بارزات، إنما فاقتهن النساء اللواتي حاصرهن شظف الحياة. لكن نساء تلك الحقبة عموماً كنّ نشيطات في عدّة ميادين. فمعظم اليابانيات العظيمات الناجحات بوصفهن شاعرات كن فنانات موهوبات أيضاً. فالعديدات من نبيلات الأعصر المبكرة اشتهرن برواياتهن، وشعرهن، كما أن الحياة الأدبية في حقبة إيدو وطنت لتقبل النساء شريكاً مهماً فيها، فظهرت أشعار من فن الواكا كانت تعد المناسبة جداً للنساء آنذاك؛ ومعظم اللواتي كسبن الإطراء الشعبي، حققن ذلك لأن مواهبهن كانت متاحة للجمهور. وكثيرات منهن كن وصيفات، استخدمن في إحدى المهن القليلة التي فيها نساء ذكيات من طبقات العامة حيث شُجّعن على عرض مواهبهن. وضمن هذه المهنة كان هناك العديد من المستويات: في القاع كانت



المحظيات من الطبقة الدنيا، لكن في القمة كانت النساء الموهوبات جداً الماهرات في الشعر التقليدي، وخط اليد، والتصوير.

هذه الثورة الفكرية دفعت الخبراء إلى البحث عن أشعار كتبتها وصيفات بارزات مثل أوهاشي، التي نشطت في منتصف القرن الثامن عشر، وكانت تكتب شعرها من فن الواكا على أوراق مُزَيَّنة، وتميزت بتصميماتها المعروفة باسم «شيراشي جاكي» أو «الكتابة المبعثرة»، ومن بين أعمالها الفنية لوحة تضمنت قصيدة يشير موضوعها إلى الفراق الحتمي بين الأحبة عند بزوغ الفجر، والحزن الذي يتبعه، تقول فيها:

«يأتي الصباحُ فيما بعدُ،
فدع فراقك
يكون مثل حلم
فأنا لا أستطيع نسيان
بكاء الطير التعس».

وقد بدأت الشاعرات من ذوات المواهب المتعددة يرتقين إلى مطالع الصفوف داخل البلاط وبين الشعب، حتى إن إحداهن من الوصيفات لم تكن مجرد وصيفة. وشاع أن هذا الوصف كانت تعرف به تلك التي برزت وتميزت لمهارتها الفنية في قصائد الواكا.

شاعرات من طبقة العامة

العديد من النساء غير أرستقراطيات المولد، مثل أوتاجاكي رينجيتسو (1791–1875م)، شاعرة من حقبة إيدو (1615 – 1867م) أحرزت شهرةً كبرى، إذ ظلت شاعرة الواكا النسائية المقدرة بسبب أسلوبها الرائع في الكتابة وفي الخط الذي عنيت به وطوّرته. فكانت تكتب قصائدها في شكل رقيق طويل يعرف باسم «تانزوكو»، إذ كان هو الشكل المفضل لدى اليابانيين لكتابة الأشعار القصيرة؛ حيث تصبغ الورقة بألوان زاهية جميلة في أغلب الأحيان و/أو تزين بالذهب والفضة فيكتب بهما على التصاميم؛ أعمال رينجيتسو الفنية في هذا الصدد فريدة، ولأول وهلة، تبدو كتابتها الخيطية قد تبدو ناعمة ومحكمة، لكنها مكتظة بالتوتر الداخلي، وتوصف في أغلب الأحيان بأنها تشبه أغصان الربيع.

وكما أن النساء أصبحن أفضل تعليماً، فإمكاناتهن الفنية ازدادت كذلك. إذ كن مدفوعات من قبل العديد من الرجال علماء وشعراء إلى الانضمام إلى ركب الهايكو والجماعات الشعرية. وكانت واحدة من أفضل النساء المعروفات بشاعرة الهايكو الرسامة تاجامي كيكوشا- ني (1752–1826م). ومن أعمالها الشهيرة لوحة خطية رسمتها بلون أرجواني خفيف مصحوبة بقصيدة هايكو، تقول فيها:

بينما تُزهرين كثيراً
لا تَنْسي شذاك،
أيتها الزهور الأرجوانية.

طاقة كيكوشا الكبيرة ترددت في الإيقاع النشط في أسطر الكتابة المنحدرة. وكذلك في الأوراق والزهور الأرجوانية، فالأزهار مُشَبَّعة بمثل هذه الحركة الحيوية التي تشبه فراشات مجنّحة أوشكت أن تشرع في الرحيل وترمز إلى التواضع والصفاء. فالزهور الأرجوانية أصبحت موضوعاً شعبياً بين الرسامين لأن أشكال هذه النباتات أعارت نفسها لأعمال الفرشاة الخطّية مبكراً على أيدي هؤلاء الشعراء الرسامين.

كثيرات من النساء الشاعرات أضفن بحكم العادة رسوماً يسيرة إلى أشعارهن. فالصورة والشعر على الرغم من أنهما لم يُعدا ليكونا شكلاً فنياً لصيقاً متميزاً في اليابان التقليدية، فإنهما اتحدا كثيراً على أيدي زمرة من الشعراء والشاعرات كانوا رسامين وخطاطين ماهرين بشكل دائم تقريباً إلى جانب ما عرفوا به من شعر. فكل شكل فني منهما يسهم في مماثلة تقنيات الفرشاة، المهارة المحترفة لم تكن القاعدة للأهمية الكبرى في العديد من الدوائر الأدبية اليابانية، والأهم هو المميزات الشخصية للشاعرة التي كانت معروفة فيها أو لأعمالها من الأشعار واللوحات. وحتى أواخر القرن التاسع عشر، كانت نساء قليلات جداً ببساطة شاعرات شهيرات، كما كن شريكات فاعلات في عالم الفنون التشكيلية ولاسيما عالم اللوحات الخطية الذي يسوده الرجال. هذه الصلة القوية جداً بالأدب سمة مهمة عند النساء اليابانيات. ويزيد من أهميتها هنا أن العدد الأكبر من النساء الفنانات المعترف بهن ظهرن من بين الصفوف التي درست الشعر والرسم الصيني بتعطّش، فالاهتمام



بتقليد الأدباء الصينيين أثير لدى اليابانيين في حقبة إيدو بالترويج لحكومة كونفوشيوسية جديدة، أدّت إلى دراسة العديد من مظاهر الثقافة الصينية، في نهاية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. تمتع الأدباء التشكيليون (تطلق عليهم الثقافة اليابانية اسم: بونجينجا bunjinga، أو نانجا nanga) بشعبية واسعة الانتشار بين قطاع عريض من الحضريين وسكان الأرياف.

لكن معظم هؤلاء الأديبات اللواتي مارسن فني الرسم والخط كن زوجات، أو أخوات، أو بنات لفنانين يعملون في تقليد الفنون والأعراف الفنية الصينية. فرسموا مواضيع الطبيعة قبل كل شيء. لذ صار المنظر الطبيعي هو الموضوع المسيطر لأنه يعكس حنين الفنانين المدرسيين إلى الوصول إلى مشاركة روحية مع الطبيعة. ومن بين هؤلاء الفنانات الشاعرات، الشاعرة كو راجكين من حقبة إيدو، التي كانت ناشطة في نهايات القرن الثامن عشر وأنجزت لوحات لمناظر طبيعية رائعة تبرز تفاصيل أنيقة في أعمالها من الرسوم التشكيلية.

ومنهن أيضاً الشاعرة إيما سايكو (1787-1861م) التي اشتهرت بأن لشعرها طرازاً صينياً، كما اشتهرت بلوحاتها الخيزرانية. وكان هذا الموضوع لوقت طويل مفضلاً لدى الأدباء الذين احترموا قوّة وقدرة النبات على التحمل. فأعواد الخيزران تظل خضراء طوال عام كامل وتقوّسها الريح لكنها لا تنكسر. فهو عندهم يضاهي السادة المحترمين كبار السن المستقيمين، بقدرتهم على مقاومة المشقة. وتُبْرِز أعمال سايكو التشكيلية الخيزران متموجاً ومتفكراً، مشبعاً بالقوّة، فنوعت التناغمات اللونية لأحبارها، مصورة الخيزران بالحبر الأسود الغني، وعلى نحو تدريجي خففت درجات اللون لخلق وهم انحسار المسطحات.

وهناك أيضاً أعمال للشاعرة تاتشيهارا شونسا (1814 – 1855م) في الفن التشكيلي يتجلى فيها التطبيق الهادئ للونها الشاحب. فقد أضافت شونسا إلى لوحاتها قصائدها التي من بينها رباعية تقول فيها :

في الريح الصافية وعربات الندى البيضاء شذى منفرد
ليس سوى الأقحوان يمكن أن يُرى عند هذا المساء البارد
عند ذلك أستدعي الشعر القديم
وفي هذه الأجواء أهمل كل طموحاتي الدنيوية .

نساء العصر الحديث

وخلال خمسمائة سنة قبل القرن العشرين – ذلك الامتداد الزمني الطويل جداً – أشاعت النساء الراويات المتجولات التقليد الشفهي من خلال قصصهن الشعبية الخيالية. وأثناء حقبة ميجي (1868–1912م)، عندما بدأ تحديث اليابان، شجعت الحكومة اليابانية بكل قوة دَوْرَ «الزوجة الطيبة، والأم الحكيمة»، ذلك الدور الذي أكد فضائل الارتقاء بالعائلة والعناية بالقوانين. هكذا مُنِحت المرأة بعض الفرص لتكتب أو تنشر.

وبنهاية القرن التاسع عشر، كان هناك العديد من النساء الشاعرات النشيطات اللواتي لا ينتمين إلى عائلات فنية أو علمية. ويشير ذلك إلى أن أبواب عالم الآداب والفنون في اليابان أثناء تلك الحقبة، كانت مشرعة تماماً أمام النساء.

وفي العام 1911م، استطاعت النهضة أن تدفع بحركة المساواة بين الجنسين إلى التأثير على الحركة الأدبية الشعبية للعشرينيات. بعدئذ جاءت الحرب مع الصين والحرب العالمية الثانية فولدتا تغييرات ثقافية أخرى؛ إذ بدأت المنشورات الأدبية بفتح المجالات للنساء الكاتبات، كما بدأ المحرّرون من الرجال بفتح الأبواب، مروجين للحركة الأدبية النسائية. وظهرت أيضاً مجلات جديدة للنساء، فكن ينتجن أعمالهن بانتظام وينشرن أعمالاً مميزة.

المرأة الشاعرة في اليابان المعاصرة

واحدة من تلك النساء اللواتي نشرن أعمالهن الأدبية والفكرية، وأظهرن جرأة جديدة، كانت أكيكو يوسانو، التي استطاعت بمجموعتها ميداريجامي (شعر معقوص) عام 1901م، أن تحيي الشكل القديم للتانكا، في جرأة حسية على نحو واضح.

في أثناء حقبة تايشو المبكرة (1912–1926م)، خضعت اليابان لعملية تغيير اجتماعي واسع النطاق اقتفى النموذج الغربي. فبدأت النساء اليابانيات بالكفاح من أجل الحقوق التربوية والقانونية والاجتماعية. وبدأت النساء الكاتبات من اليابانيات يُعانقن انفتاح هذه الحريات الجديدة في قصائدهن ومقالاتهن. وخاصة اللواتي نشرن في المجلة الأدبية «رايشو هيراتسوكا سيئيتو» (الجورب الأزرق)، والمجلة الشعرية «مايوجو» (نجم الصباح) التي أصدرها زوج الشاعرة أكيكو يوسانو، السيد تيكّان، تلك المجلة التي كان لها تأثير كبير على الشعراء الرومانتيكيين الجدد في اليابان. بينما المجلات الشعبية النسائية مثل «فوجين كورون» (منتدى النساء، 1918م)، و «نيونين جيياجوتسو» (الفنون النسائية، 1928م)، دعمت نمو الوعي النسائي، والمجموعة السياسية للمرأة. أما «شينفوجين كيوكائي» (رابطة المرأة الجديدة)، التي كانت قد أسست في عام 1919م بوساطة فوساي إتشيكاوا، وموميو أوكو، التي دفعت بحنكتها السياسية العديد من النساء إلى الكفاح من أجل المساواة والفاعلية الاجتماعية.

في مقدمتها لكتاب «فصل ممطر طويل»، استطاعت ليزا لويتز أن ترسم الحدود التاريخية والفكرية لتطور وعي المرأة اليابانية منذ مراحل مشاركاتها الأولى.، وأرجعت إلى المرأة اليابانية فضل تأليف الرواية العالمية الأولى «حكاية جينجي»، وأحيتها مجدداً في العصر الحديث السيدة يوسانو أكيكو الشاعرة اليابانية المقدرة؛ وقد اشتركت مع ليزا في هذا العمل الذي يمتاز بالأهمية والقوة والضخامة كذلك كلا من ميبوكي أوياما، وأكيميؤكا. وقد صدرت عدة أجزاء من هذا الكتاب في طبعات أنيقة عن دار «ستون بريدج» بكاليفورنيا؛ لتكون نواة منظمة لحديث طويل حول التاريخ الفكري والوجداني للمرأة اليابانية عامة والشاعرات منهن بخاصة.

سيدة الشعر الياباني الحديث

تعد أكيكو يوسانو أميرة الشاعرات اليابانيات وسيدة الشعر الياباني الحديث؛ ولدت في ضاحية ساكاي بالقرب من أوساكا، في اليابان في السابع من ديسمبر عام 1878م.

كانت واحدة من ثمانية أطفال في عائلة من الحلوانيين، لأب يملك متجر حلوى في ضاحية أوساكا، ومع ذلك كان محباً للفنون، ووالد جدها اشتهر بوصفه «عالم العلماء» في الإقليم، لمعرفته العميقة بالأدب الصيني الكلاسيكي ومنجزاته من الهايكو.

تخرجت أكيكو من مدرسة ساكي الثانوية العليا للبنات، ودرست المختارات الأدبية من الشعر الياباني الإمبراطوري الأول، «ماني يوشي»، والأدب الكلاسيكي الياباني إضافة إلى الأدب والتاريخ الأوروبيين وشعراً معاصراً من عصرها.

في سن التاسعة عشرة بدأت كتابة الشعر، ونشرت قصيدتها الأولى من شعر التانكا في جريدة محلية، وخلال السنوات الثلاث التالية أصبحت بارزة في الدوائر الأدبية في نطاق أوساكا وكيوتو. حيث كانت الشاعرة الرئيسة، ثم تطورت إلى ناقدة اجتماعية.

وفي عام 1900م، انتقلت للعيش في طوكيو بعد أن تزوجت من الشاعر يوسانو هيروشي الشهير بـ «تيكان» الذي يعد زعيماً للحركة الرومانتيكية الجديدة في الشعر الياباني الحديث. وفي نوفمبر 1911م، سافرت بحراً معه في زيارة إلى فرنسا لسنوات ثلاث، لكنها بقيت هناك ستة أشهر فقط، ثم زارت ألمانيا، وهولندا، وإنجلترا، ومانشوريا، وألهمتها تلك السفرات وعززت إدانتها لما يتعلق باضطهاد النساء.

ماتت أكيكو يوسانو في الثالثة والستين من عمرها (1942م). وكانت قد أصبحت الشاعرة والكاتبة اليابانية الأكثر شهرة. فقد نشرت خمسة وسبعين كتاباً، منها عشرون مجلداً من الشعر المبتكر تحتوي على ألف وسبع عشرة قصيدة تانكا وخمسمائة قصيدة من الشعر الحر. وجمعت أيضاً خمسين مجلداً محققاً وموثقاً من حكاية جينجي التي ألفتها موراساكي شيكيبو، وأعادت صياغتها باللغة اليابانية الحديثة، والتي صارت حجر الزاوية في الأدب الياباني الحديث.






من قصائد أكيكو يوسانو

(1)

« اختبار، يغريني إلى الأبد،
تلك الشفاه الغضة
على وشك أن تمس
قطرات الندى الباردة المكسوة بالصقيع
على زهرةِ لوتس بيضاء».

(2)

كانت ألفاً
تلك السنوات الماضية أم فقط
بالأمس افترقنا؟
فعلى كتفي، حتى الآن،
أشعر بيدك الودودة.

(3)

مطر على البحيرة...
وأوراق طافية، للوتس أبيض
فناني الصديق،
أنا سأمسك لك المظلة
هنا في مركبنا الصغير جداً.

(4)

يمكن أن أعطي أوامري
إلى تلك الريح كلما نفثت،
سأقول لها:
«هناك .. هنا ..
شجرة وحيدة
من أيهما عليك أَن تبقي بعيداً».

(5)

ريح أثير
تأتي ملفحة بالظلام
في ليل ربيعي،
فلا تنفث فوق شعرها
حتى الآن لبرهة قصيرة .



(6)

«أنا يجب أن أتركك الآن،
وداعاً.. !»
قالها طائف الليل،
فاقتربت من حافة ردائه الذي يمر
ماضياً
قطراتُ الرطوبة التي تبلل شعري.

(7)

بلا أسف :
السيف المكسور،
منكساً شنق
في غمده اختنق ؛
المثالي المطلق يجب أن يكون
زهرة بلا شوك .

(8)

مبللاً بمطر الربيع،
حبيبي يأتي أخيراً
إِلى داري المتواضعة
مثل إمرأة عاشقة
تحت أشجار الزهور الوردية.

(9)

همست، «عم مساءً»،
وانسللت بصمت من غرفته
في مساء ربيعيْ .
ثم تمهلت عند عباءته
وجربت حجمها عليَّ .

(10)

القبطان الوسيم،
مغرداً، يمتطي النهر،
يملأني بالشوق
إنه استثار وحسب
ذكرى ليلة الأمس
لبنت ميناء الوداع.

عُرف الدكتور غازي القصيبي وزيراً وسفيراً ناجحاً وشاعراً مبدعاً وكاتباً ومحاوراً ومتمرساً.. ولكن ماذا عن غازي الناقد؟

في كتابيه «قصائد أعجبتني» و «بيت» يتناول القصيبي بعض كنوز الشعر العربي التي راقت له أكثر من غيرها. ويعلق عليها في محاولة لإرجاع الشعر إلى طبيعته تعبيراً عفوياً عن تجارب النفس البشرية، وتحريره من أغلال النقد التي كثيراً ما تغتال أجمل ما فيه.

خالد آل حمدء* اختار لنا عينات من الأبيات التي أعجبت القصيبي وألحق كلاً منها بقراءة الشاعر الكبير لها.

أبيات في ذاكرة القصيبي

هـذا جـزاء امـرئ أقـرانـه درجـوا
مـن قبلـه.. فتمنى فُسحة الأجـلِ!

(الطغرائي)

تجربة إنسانية مؤلمة أن يتمنى المرء أن يطول بقاؤه، وتتحقق الأمنية ويموت أصحابه ورفاقه، ويبقى وحيداً وتعود أمنيته القديمة وبالاً عليه. عندما يتحدث بيت شعر عن تجربة إنسانية يحس بها الناس في كل مكان، يرويه الناس في كل مكان وهذا شأن هذا البيت الرائع.

فيا للناس! كيف غلبتُ نفسي
على شيء.. ويكرهه ضميري؟!

(عروة بن الورد)

يقول الرئيس الأمريكي «نيكسون» في مذكراته إنه كلما اتخذ قراراً يختلف عن القرار الذي تمليه طبيعته ندم على هذا القرار! وهذه التجربة هي ما يتحدث عنها عروة بن الورد في اضطراره إلى القبول بشيء يرفضه ضميره. وهي تجربة قد تمر بالناس أجمعين؛ فتكون النتيجة الحتمية حينئذ هي الندم، وتجد نفسك -بعد فوات الأوان- تردد مع عروة بيته المأساوي هذا!



المحترف السعودي

* أكاديمي سعودي

مات لم يدرُج.. ولم يلعب.. ولم
يشهد الدنيا.. ولم يعرف أباه!
(عباس العقاد)

يتحدث العقاد عن الحب الذي وُئد في المهد -وهذا ليس فتحاً عقادياً جديداً- لكن الجميل هو هذه التفاصيل التي ذهب الحب/الطفل دون أن يعرفها: لم يُقدَّر له أن يحبو، أو أن يلعب، ولم يستمتع بمرأى الدنيا حوله! وقوله «لم يعرف أباه» هذه ثلاث كلمات تحمل الكثير من المعاني؛ إذا استطعت -عزيزي القارئ- أن تصل إلى ثلاثة منها فاعلم أنك متذوق جيد للشعر!

وكنتُ وإياها سحابةَ مُمحل
رجاها فلما جاوزته استهلّت
(كُثيّر)

يا للموقف! لا تكمن المأساة في رفض السحابة أن تقف عند الظامئ الذي يموت! بل المأساة الحقيقية في أن السحابة قرّرتْ بعد أن تركتْ الظامئ لقدره المحتوم، أن تعطي ما تملك لمن لا يستحق. تُرى ماذا فعلت الحبيبة ليجيء هذا البيت الدامي؟ عند مَنْ توقفتْ بعد أن هجرتْ شاعرنا؟ وماذا أعطتْ هذا الذي توقفتْ عنده؟ الجواب في بطن السحابة!

ويا ليت أن الله إذْ لم ألاقها
قضى بين كل اثنين ألا تلاقيا
(حفص العليمي)

ليس للقارئ أن يبحث عند الشعراء عن المُثل العليا والمبادئ السامية؛ فهذه توجد لدى الأنبياء والصديقين والصالحين، ولا توجد عند الذين «يقولون مالا يفعلون». أليس من حق شاعرنا العليمي أن نهنئه على صراحته التي تضمنها بيته الدامع هذا؟ أليس من حقه أن نقول له: إننا جميعاً شعرنا خلال مواقف مختلفة بشعوره ولكننا جبنّا عن التعبير عنه؟! الشعر يا قوم ليس فلسفة إنسانية ولكنه تجربة إنسانية ، لا تنسوا هذا وأنتم تقرؤونه وتحاكمونه!

وكنتِ جميلةً.. كالأرض
كالأطفال.. كالفُلّ
(محمود درويش)

عهدنا الحبيبة عبر شعرنا العربي كله، جميلةً كالقمر أو كالمهاة، أو كالوردة؛ فكيف أصبحت هنا جميلةً كالأرض وكالأطفال؟ سيقول القائل: إن الشاعر لم يقصد بالأرض سوى فلسطين وهي في نظرة قمة الجمال، ولم يعنِ بالأطفال سوى أطفال فلسطين، وهم في عينيه ذروة الحسن. إلا أن شاعرنا ظل عربياً محملاً بتراثه فتراجع بسرعة البرق خشية أن تنزع الحبيبة فشبهها بالفل! يا للأسى يبدو أن قدر المرأة العربية حتى في الشعر الثوري أن تظل قمراً أو مهاةً أو فُلّة!

وصحتُ: «يافتنتي! ماتفعلين هنا؟
البردُ يؤذيك.. عودي.. لن أعود أنا!»
(عمر أبو ريشة)

كان الشاعر في جبال الهمالايا حيث قابل أميرةً حسناء تسكن الجبال مع قبيلتها هناك! فانفجر حب متبادل بينهما من أول نظرة، إلا أن الشاعر اضطر في منتصف الليل إلى الفرار، كان يمشي مسرعاً على الثلوج عندما سمع صوتاً وراءه؛ فالتفت وفوجئ بالأميرة تطارده! فما كان منه إلا أن وقف وصاح بها «البرد يؤذيك.. عودي لن أعود أنا» وعادت الأميرة الحسناء كسيرة الجناح دامعة العينين. لا أعتقد أن الشاعر كان يكذب، أعتقد أنه كان يتمتع بخيال وثّاب واسع يستطيع أن يحوّل الحبة قبة أعظم من قبة تاج محل.. أبهى.

فلا يزال المرء في فُسحةٍ
من عقله.. ما لم يقل شعرا
(مجهول)

يجيء البيت الذي نحن بصدده بمثابة النشاز الذي يصك الآذان ويجرح المشاعر، آذان سادتي الشعراء ومشاعرهم فمنزلة الشعر ومكانة الشعراء ونرجسيتهم معروفة منذ امرئ القيس إلى الآن. ولا يكتفي القائل المجهول بالتقليل من شأن الشعر ولكنه يصف ناظميه بالجنون! لا عجب إذا ظل صاحب هذا البيت «الفلتة» مجهولاً، ومن حسن حظه أنه ظل مجهولاً وإلا لداهمته في ليلة ليلاء كتيبة من الشعراء مدججة بالألسنة القاتلة والأقلام المسمومة، وتعاملت معه كما تتعامل إسرائيل مع أطفال فلسطين وشيوخها ونسائها!

يا عبقرياً في شناعته
ولدتك أمك وهي معتذرة!
(إبراهيم ناجي)

لابد إن الكيل قد طفح بناجي (الشاعر الرقيق) حين قال هذا البيت في هجاء أحد الثقلاء، وجاء الهجاء ككل هجاءٍ راقٍ في شكل رسم كاريكاتيري لاذع موجع. المهجو ليس دميماً فحسب؛ ولكنه عبقري الدمامة، الأم التي ترى في وليدها أجمل طفل في الدنيا حتى لو كان قرداً، تخلتْ في حالة صاحبنا عن غريزة الأمومة لتلد هذا الطفل البشع وهي تعتذر عما تسببه بشاعته للدنيا من ألم! لاشك أن مهنة ناجي (الطب) كانت ذات أثر ملموس في هذه الصورة العجيبة؛ فاتقوا غضبة الحليم، وأضيف «وغضبة الشاعر الرقيق!».

وأجمل القصائد

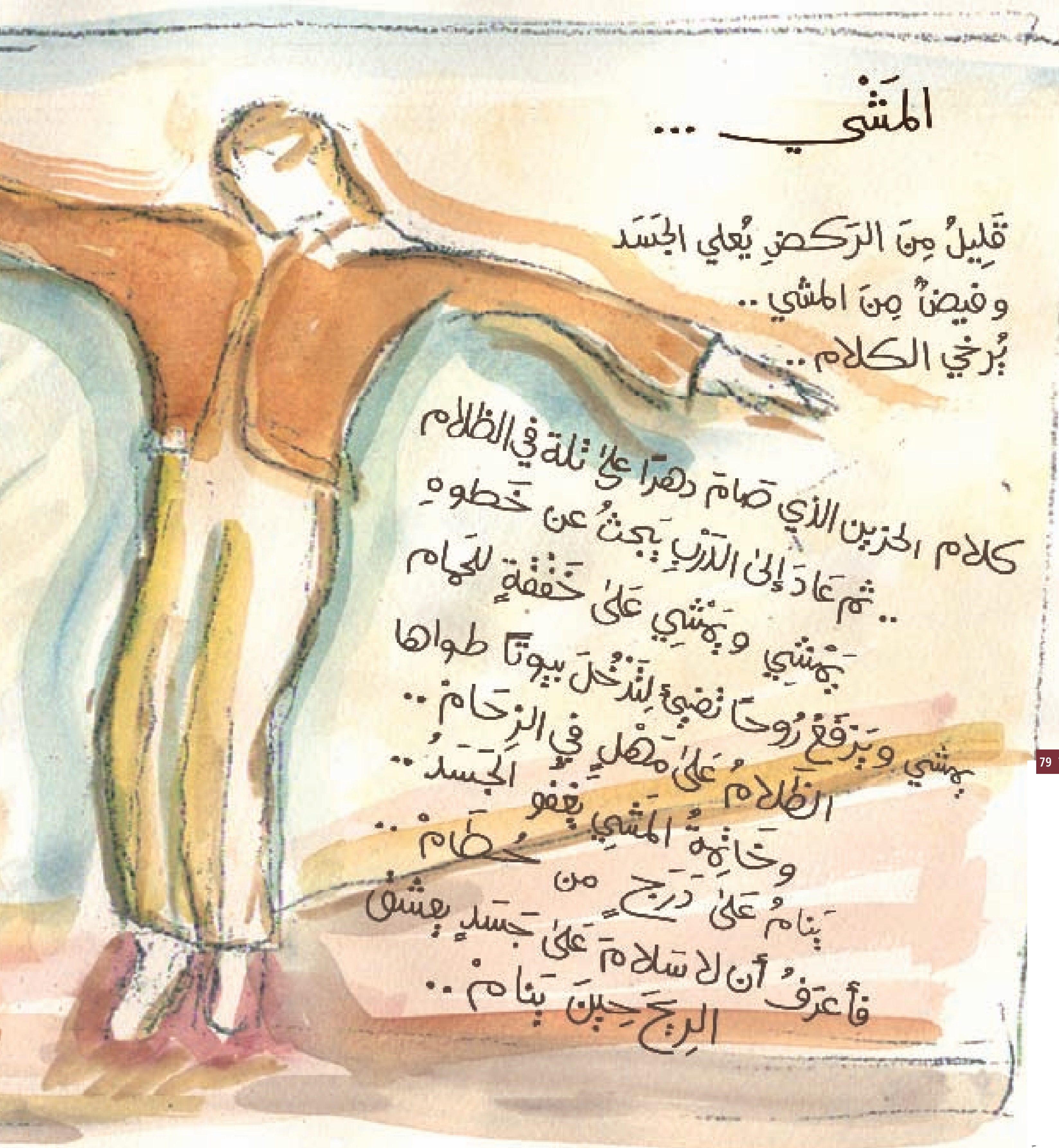
ربما كانت القصيدة التي رثى بها مالك ابن الريب نفسه (وهو أحد الصعاليك الفاتكين «روبن هود عربي») ربما كانت أعظم القصائد في شعرنا العربي كله قديمه وحديثه، وخشية أن تروع هذه الجملة أحداً أود أن أسارع فأضيف أن هذا حكم شخصي بحت، تَرْجَمَتُه: إن هذه أقرب قصيدة في شعرنا العربي إلى قلبي، وللناس فيما يعشقون مذاهب!

هذه القصيدة فيلمٌ سينمائي متكامل، فيه كل ما في الأفلام من كاميرا تلاحق وتصور كل شيء، ومن مشاهد تنكشف فسيحة مبسوطة أمام الكاميرا، ومن مخرج يتابع أدق التفاصيل، ومن ألوان وأنوار وظلال، ومن قدرة على الحركة السريعة.

تبدأ القصيدة/الفيلم بدايةً أخّاذة بلقطات من الماضي (شجر الغضا) في تكرار جميل يسقيك الأسى جرعة بعد جرعة:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً
بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركبُ عرضَه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
لو كان في أهل الغضا لودنا الغضا
مزارٌ ولكن الغضا ليس دانيا

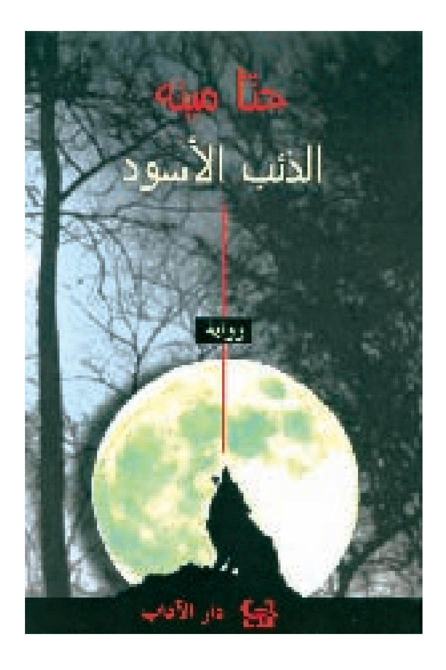
هذه القصيدة رائعة عظيمة لا للغتها، ولا للفكر العبقري وراءها، ولا لصورها المبتكرة؛ ولكن لأنها تصور بروعة وأمانة ودقة موقفاً حقيقياً لإنسانٍ حقيقي يوشك أن يدخل أبواب أعنف التجارب البشرية: الموت!


المشي...
قليلٌ من الركض يُعلي الجسد
وفيضٌ من المشي..
يُرخي الكلام..
كلام الحزين الذي صام دهراً على تلة في الظلام
ثم عاد إلى الدرب يبحث عن خطوة
يمشي ويمشي على خفقة للحمام..
يمشي ويرفع روحاً تضيء لتدخل بيوتاً طواها
الظلام على مهلٍ في الزحام..
وخاتمة المشي يغفو الجسد..
ينام على درج من حطام..
فأعرف أن لا سلام على جسدٍ يعشق
الريح حين ينام..

ديوان اليوم ديوان الأمس

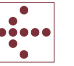
شعر: عبدالرحمن الحبيب





«الذئب الأسود» هو عنوان رواية جديدة للأديب السوري حنّا مينه، وهي الجزء الأول من ثنائية يحمل الجزء الثاني منها عنوان «الأرقش والغجرية».
عامر الصومعي* يعرض هنا لهذه الرواية التي صدرت عن دار الآداب في بيروت، بانتظار صدور الجزء الثاني الذي نشر على حلقات في إحدى الصحف اليومية السورية. ويختار لنا بعض المقاطع المعبرة عن مضمونها.

حنّا مينه في الغابة بعد البحر
«الذئب الأسود»



يعتبر حنّا مينه من قادة الرواية العربية التي خرجت من المحلية لتحتل مكانتها على مساحة الوطن العربي ككل. وما جائزة الكاتب العربي التي منحه إياها اتحاد كتاب مصر لأول مرة لمناسبة مرور ثلاثين سنة على تأسيسه إلا من المؤشرات إلى المكانة التي تحتلها أعماله عربياً.

اشتهر حنّا مينه بكونه من الرواد الذين كتبوا عن البحر في الرواية العربية. وروايته «الشراع والعاصفة» كانت الأولى في هذا المجال في الأدب العربي. وهو أيضاً أول من تناول الغابة كمسرح روائي في «الياطر». حيث تذكرنا صورة الغابة لديه بصورتها لدى الأديب الفرنسي غي دو ماباسان الذي كتب في القرن التاسع عشر على لسان أحد

*** كاتب صحافي من سوريا**

الهنود: «الغابة تنفذ إلي، تغريني، تجري في دمي، ويخيل إليّ أنني ألتهمها وأنها تملأ بطني. أنا نفسي أغدو غابة».

الغابة في «الذئب الأسود» هي مسرح تحرك مجموعة من الصيادين والصيادات، الذين يطاردون الذئب الأسود لقتله. أما الذئب المستهدف فيصفه الكاتب بالقول «إنه نادر أو غير موجود أصلاً، إنه وهم، إنه رمز لشيء ما سينكشف يومياً». وهذا الذئب «ينتشر» في الغابات الاثنتين والعشرين، ويتوالد ويتناسل في كل غابة من هذه الغابات من دون أن يستطيع أحد أن يوقفه.

ووسط الصيادين، تظهر شخصية الحكيم بشير، الذي يمكن وصفه بأنه المتحدث باسم المؤلف، يحاول من خلاله نقل أفكاره وتوجيه النصح والإرشاد إلى الصيادين

لأنه صاحب رؤية منطقية، وقادر على الكلام المقنع بأسلوب مبسّط.

فأثناء لقاءاته مع الصيادين الواحد تلو الآخر، كان الحكيم يجد عند كل واحد منهم الآراء نفسها ويسمع منهم الكلام نفسه. فكل منهم يريد أن يقتل الذئب الأسود بمفرده، ويزعم القدرة على ذلك. الأمر الذي يدفع الحكيم إلى القول: «علة هذا الشرق يا دغمش الفردية. ماذا تستطيع أنت وحدك كفرد أن تفعل؟ أنت على حق يا دغمش، أنت وفيّ لآبائك، وأجدادك كانوا مثلك أفراداً. كانوا شجعاناً وأفراداً في سلوكهم من المهد إلى اللحد. حافظوا على فرديتهم وهذا سر نجاحهم».

وفيما يتورط الصياد دغمش هذا في قصة حب عاصف مع صيادة التقاها عند النبع حيث يتربص جميع الصيادين بالذئب الأسود، يحذره الحكيم، كما يحذر باقي الصيادين، من نسيان القضية الأولى، وهي قتل الذئب الأسود الذي هو سبب وجودهم في الغابة ويدعوهم إلى الاتحاد وتشكيل قوة واحدة، لأنهم بغير ذلك لن يستطيعوا أن يقتلوا الذئب.

وضوح الإسقاطات السياسية

منذ الصفحات الأولى، يلحظ قارئ هذه الرواية أنه أمام عمل شاءه الكاتب أن يكون سياسياً بامتياز. فمعظم عناصر هذه الرواية ومقوماتها مصممة لأن تكون مجرد صور رمزية لخطاب سياسي طويل. والرواية بمجملها هي إسقاطات لاهتمامات عالمية، وعربية حكماً، على الواقع المتخيل.

فالذئب هو الظلم والاستغلال، والصيادون هم أفراد لا يجمعهم سوى السعي إلى التخلص منه. وهو يعيش في القلاع التي لا يسهل التغلب عليها، والتي إن لم يتخلصوا منها، لن يستفيدوا شيئاً من قتل الذئب الأسود، لأنها ستطلق سلالات وسلالات منه تملأ الغابات وتعيث فيها فساداً وتخريباً. لذلك يجب تحديد الهدف الحقيقي وعدم تجاهله أو الانخداع بالنوايا الحسنة التي تظهرها القلاع للناس.



«كان الأرقش ينظر بإشفاق للذين تخدعهم هذه القلاع برمي الفتات لهم كما ترميها لكلابهم تماماً. وكان هؤلاء المخدوعون يتلقفون هذه الفتات شاكرين للقلاع صنيعها، مسبحين بحمدها، متدافعين لخدمتها، عيوناً بصاصة وسواعد فتاكة وأزلاماً خنوعة بسبب الجهالة والضلالة والحاجة إلى لقمة العيش والخوف لفقدانها ورغبة في الاستزادة منها».

الغابة واقعية أدبياً وغرائبية جداً لجهة الإسقاطات. فهي المدينة المعاصرة بكل ما فيها والذئب هو رمز الطغيان

ووسط هذا الهم السياسي بامتياز، تتبعثر جهود الصيادين، فيغرق دغمش في حب رئيفة، أما رئيفة فتحب الأرقش الذي يحب فدوى... «الطريق طويلة إلى القلاع والبحث عن الذئب الأسود قد يطول ويطول. لذلك لا بد من التساؤل والشوق، لا بد من التسلية التي لا يمكن تحقيقها إلا من خلال الحب».

التأرجح بين العمق وخلافه

الغابة في هذه الرواية واقعية جداً بالمقياس الأدبي، وغرائبية جداً لجهة الإسقاطات. فهي المدينة المعاصرة وما فيها من اختلال في توازن العلاقات والمصير. والحدث الذي هو حملة لصيد الذئب الأسود، يدور وسط حوارات عالية المستوى تبدو حيناً وكأنها صادرة عن أفواه البسطاء من القرويين، وأحياناً عن مثقفي المدن:

– رهيب: قال أكرم، هذا تقرير سياسي كامل، تقرير فظيع يا بشير، يا صاحب المانيفيستو..

– قال بشير: هناك ما هو أفظع: الاختزال! نحن مختزلون. فكل قلعة تختزل النمل الذي في غابتها إلى نملة واحدة، ككل ذاتها، لذلك عددنا قليل بعدد غاباتنا. إننا اثنتان وعشرون نملة فقط لا غير!

ولكن ماذا لو شاء القارئ أن يستخلص من هذه الرواية كل بنود الخطاب السياسي للمؤلف؟ ماذا سيجد؟

على الأرجح لن يجد الكثير من المبادئ والأفكار الجديدة: وجوب التضامن للوصول إلى الهدف، أن يكون هذا الهدف إحقاق العدل والتخلص من الظلم والمفسدين في الأرض.. استئصال الشر من جذوره وعدم الاكتفاء بمحاربة ظواهره.. وهل هناك من يعترض على مثل هذه المبادئ أو المفاهيم الشائعة حتى في صفوف البسطاء؟ بعبارة أخرى هل تكفي هذه الخطوط العامة لبناء رواية عليها بكل ما فيها من غابة وصيادين وعاشقين وحِكَم الحكيم؟ الجواب هو حتماً: «لا». ومع ذلك؟ تبقى هذه الرواية على قدر كبير من الإمتاع، وذات جاذبية قوية تشد اهتمام القارئ.

جاذبيتها

فبين المسقط والواقعي هناك مساحة غامضة يتمكن فيها الكاتب من شد انتباه القارئ، وتعود بالدرجة الأولى إلى مشاهداته التي جمعها في الغابة والمدينة على حد سواء رغم أنه ينكر ذلك على غيره. إذ سبق لحنّا مينه أن قال في كتابه «كيف حملت القلم»: «أما الذين يحسبون أن المشاهدة الخارجية السطحية، القادرة على صياغة خبر هي القادرة، ووفق المطلوب، على صياغة فن، فإنهم واهمون، ومن الأفضل لهم ولنا أن يتحولوا عن مهنة الكتابة إلى مهنة أخرى».

فالكاتب، ومن خلال مشاهداته الخارجية - التي لم تكن سطحية على الإطلاق - استطاع أن يزخرف روايته بعشرات ومئات التفاصيل الممتعة والعميقة والحساسة التي تعوّض عن بساطة المحور العام، خاصة لجهة تعقيدات العلاقات الإنسانية ما بين أبطالها وتراوحها ما بين حساسية الحب الرقيق، والاندفاعات المجنونة نحو الرغبة في القتل.

عالمه الضخم

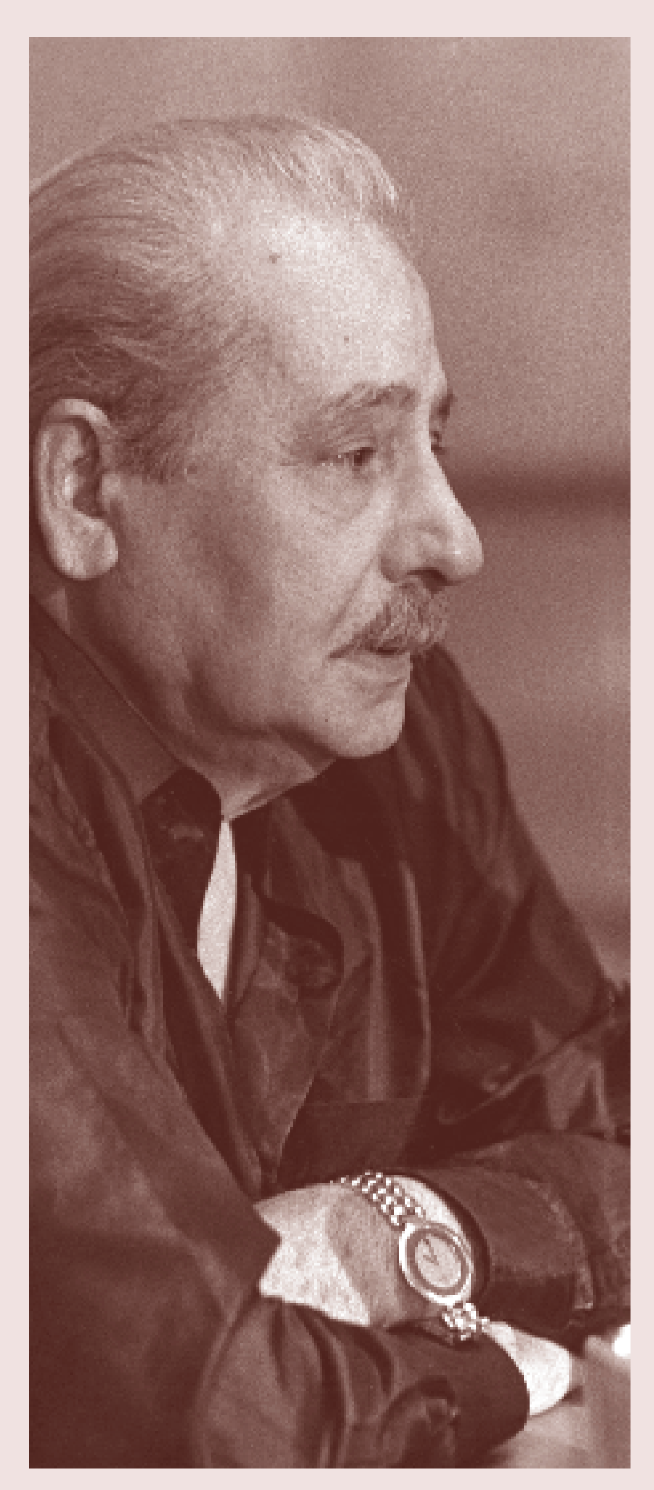
عالم حنّا مينه غني وضخم. يتشكل من ثلاثة وثلاثين رواية بالإضافة إلى المجموعات القصصية. وهو الروائي العربي الذي كتب ثلاثية حول الصين تقع في ألف صفحة «حديث في بيتاخو / عروس الموجة السوداء / المغامرة السوداء» وهي تشكل امتداداً لما كتبته الروائية الأمريكية بيرل باك حول الصين في روايتها «الأرض الطيبة».

كما رصد حنّا مينه قضايا ذات أبعاد عالمية مثل واقع الصين في الستينيات، والثورة المضادة في المجر. وتناول المجتمعات الغربية وما تعانيه من مشكلات اجتماعية وصولاً في التفاصيل إلى السلوكيات الأخلاقية.

ثمة من يتهمه بالإكثار تأليفاً ونشراً بإصداره رواية كل عام. إلا أنه يقول: «عشت الحياة بكل طاقتي، بكل ذرة من كياني، وجمعت تجاربي الكثيرة». وهو يصب كل هذه التجارب في قالب أدبي واحد: الرواية.

حنّا مينه..

في رحلته الروائية



تكاد السيرة الشخصية للأديب السوري حنّا مينه أن تكون رواية بحد ذاتها. فقد ولد في مدينة اللاذقية عام 1924م. وانتقل شاباً فقيراً إلى دمشق ليعمل محرراً في جريدة الإنشاء منذ العام 1947م.

لمع اسمه تدريجياً في عالم الصحافة، واستمر نجمه في الصعود حتى العام 1959م، حين بدأت أقسى مراحل حياته. فعرف الغربة والتشرد في أوروبا والصين. ولم يعد إلى وطنه إلا سنة 1967م، ليجد نفسه من دون عمل، فقرر أن يعمل حلاقاً. ولكن صديقه سعيد حورانية وفر له عملاً في إذاعة دمشق، وساعده بتحويل روايته «الشراع والعاصفة» إلى مسلسل، ليتعاقد لاحقاً بصفة مترجم مع وزارة الثقافة في نهاية العام 1969م. أما الفترة الممتدة من العام 1970م وحتى اليوم، فتميزت بالاستقرار النفسي والمادي وغزارة الإنتاج الأدبي.

حاز حنّا مينه على جوائز عربية وعالمية عديدة أهمها:

- جائزة سلطان العويس لعام 1991م على عطائه الروائي.
- جائزة المجلس الثقافي لجنوب إيطاليا لعام 1993م عن روايته «الشراع والعاصفة».
- وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة عام 2005م.

أعماله الأدبية:

المصابيح الزرق - الشراع والعاصفة - الثلج يأتي من النافذة - الشمس في يوم غائم - الياطر - بقايا صور - المستنقع - القطاف - الأبنوسة البيضاء - المرصد - حكاية بحار - الدقل - المرفأ البعيد - الربيع والخريف - حمامة زرقاء في السحب - نهاية رجل شجاع - الولاعة - فوق الجبل وتحت الثلج - الرحيل عند الغروب - النجوم تحاكم القمر - القمر في المحاق - المرأة ذات الثوب الأسود - حدث في بيتاخو - عروس الموجة السوداء - المغامرة الأخيرة - الرجل الذي يكره نفسه - القم الكرزي - ناظم حكمت: السجن ، المرأة ، الحياة - ناظم حكمت ثائرا - هواجس في التجربة الروائية - كيف حملت القلم - الذئب الأسود - الأرقش والغجرية.



مقتطفات

من رواية الذئب الأسود
دغمش والحكيم في الغابة

كانت البقعة الغابيّة، التي استراح إليها الحكيم بشير، مسوّرة بالأدغال، بعيدة نسبياً عن مرتاد أي صيّاد. ورغم ذلك احتاط، خلع ثيابه المبللة كلها ما عدا السروال الداخلي، نشرها في الشمس، جلس يتشمّس هو أيضاً، أراح بندقيته على مقربة منه، لا خوفاً بل تحسباً. فالغدر، في الغابة، يسيء إلى بهاء الغابة، والغدر في الغابة من طبيعة الغابة: ثمّة وحوش كاسرة، من الحيوان والإنسان، وغدر الإنسان هو الأفظع، هو الأسهل والأيسر معاً. وإذا كان الحكيم بشير، في يقينه الراسخ كصنوبرة، على معرفة ألا أعداء له، وأن الصيادين والصيادات جميعاً يؤثرونه، يبدون له المودة والاحترام، فإن هذا بالذات ما يجعله هدفاً لهم. والسبب هو حكمته التي تجعله متميزاً عنهم. وامتيازه يغري به، فالآخرون غير المتميزين في شيء، لا يغفرون له تميزه، تماماً كالشريف في طغمة اللاشرفاء، الذين إذا تاب أحدهم بصدقٍ عن السرقة، تحسسوا، في دواخلهم من توبته، وعليه في هذه الحال أن يرحل عنهم، أو يقتلوه لأنه لم يعد منهم.

عزيف الجنّ في الصنوبر هبوب ريح رهوةٍ، يتداح وسط السكينة مسافراً بغير حقيبة، على رسْل الأماني لكل مشوق، اعتاده اللاعج من الشوق فأضناه الفراق. والفراق صدأ الحب، يبريه ولو كان حديداً «وداعاً عذارى الهوى» والوداع، في الاستبدال. لقاء مأمول تباركه الغابة، كما يبارك البحر شبوب اللجة، في توقها لعناق نورس أبيض الجناحين. والحكيم الذي حُرم من العناق، لم يكْسُفْهُ الحرمان، لم يخجله، لم يرَ فيه عيباً. فالطالب طلب، والمطلوب نفر من الطالب لأنه يطلب آخر، فاتلاً القنّب حبلاً طويلاً للأمل.. رئيفة، في دلّ الأنثى، لم تستجب للذكر، استجابتها لذكر آخر، منذورة للأرقش الهارب من الحمّى إلى الحمّى، وليس من برء، في حميّات الجسد، إلا بالوصال. وخشية الحكيم أن تتفشّى الحميات في الغابات، أن تصبح جانحة تعمّم العدوى، فيمرض الناس، وتكون البليّة مضاعفة: النحول والقعود عن مطاردة الذئاب السود (...)

الغابة مكان للصمت، ومع الصمت يكون التفكير، وقد ترحّل الحكيم بشير مع صمته، بعيداً في أفكاره، وكان هذا أفضل له، كي لا يحسب دقائق الزمن، أو يبهظه انتظار أن تجفّ ثيابه. إنه، في بحرانه الذهني، نسي الثياب التي فرح بها لأنها جفّت، ولأنه بارتدائها صار بإمكانه التطواف في الغابة، ومن حسن الحظ أن سرواله الداخلي جفّ على جسمه، وجفّت، بدورها، بركة ماء النبع التي أسقطته رئيفة فيها، انتفت، غدت ذكرى «والذكريات صدى السنين الحاكي!». غير أنّ الصدى يتلاشى، يبقى الصوت وحقيقته، والحقيقة لها طعم الحقيقة. وبفعل إرادة، حاول أن ينسى الحكيم بشير ما جرى، أن يبتلع طعْمَ الحقيقة. لكنّه، في اللاّ شعور لم يبتلع شيئاً ، هجع التفكير بالمرأة، ولكن إلى متى! إلى متى يا حكيم؟ لا أدري. الحكيم لا يدري.. وعندما أفاق من شروده، من ذكرياته، كان دغمش قد اختفى.

لكنّه، في طريقه إلى ماء النبع، التقاه ثانية، كان دغمش قنّاص البشر. يطوف في المنطقة نفسها، غير قادر على الابتعاد عنها، وكان، من وقت لآخر، خلال النهار والليل، يعتاده الشوق لا إلى الديار، بل إلى من سكنها، لا إلى النبع، ولكن إلى رئيفة التي عينها في مائه. وفي هذا كانت له شراكة مع الحكيم بشير، فهذا أيضاً غَوَتْه رئيفة عند النبع، وكما يعود المجرم إلى مكان جريمته ولو متخفياً، عاد دغمش والحكيم إلى مكان جريمتهما في الحب الذي أزهر ولم يثمر، وكان دغمش حانقاً لإفلات فريستين منه: رئيفة والذئب الأسود! قال:

- أنت، يا حكيم، وضعت عقلي في كفي!
- إذن لم أضع شيئاً.
- تعني لا عقل لي؟

ابتسم الحكيم وقال:

- تقريباً!
- لماذا؟
- لأنك لم تتأدب حتى الآن. حاولت مرة ومرة ومرات، ولقيت الرفض نفسه من رئيفة في كل مرة، فماذا ترتجي؟ أن يرقّ قلبها عليك؟ أن تشفق على جنونك بها؟ الموت ولا الشفقة في الحب. فالشفقة هنا هي الإذلال، رئيفة أذلّتك بما يكفي، وأنت الآن مُذلّ مُهان، ومَن يكن على هذا القدر من المهانة يصبح فاقداً للكرامة. والذي بغير كرامة، بغير شرف، وبغير نخوة، لا نفع منه في هذه الغابة.. إنك تحب، وأنا أتفهم أن تحب، لكنك في حبك تخلط ما بين الرضا والقسر، تريد أن تكون محبوباً بالقوة، وهذا محال. القوة قد تجلب الغنى، النفوذ، القدرة، السطوة، لكنها عاجزة عن جلب الحب. أنت معذّب! هذا صحيح، إلا أن رئيفة معذّبة أيضاً، كم قلت لك إنها تحب الأرقش، وإن الأرقش يحب غيرها، وإنّ شقاءك في مرامِك شقاؤها في مرامها، وإنّ التضحية قسمة واجبة بينكما، تضحّي لأجلها كما تضحي هي لأجله، وبذلك ترتفعان إلى المستوى الإنساني اللائق: هناك كثير من النساء، وهناك الكثير من الرجال، والفراق وحده كفيل بالنسيان والسلوان، الفراق يشفي من الحب، من الوجد... ابتعد، ففي البعد النجاة من هذا المرض اللذيذ الذي أنت مصاب به.

هتف هدهد من فوق شجرة:

ألا يا صبا نجدٍ متى هجتَ من نجدِ
فقد زادني مسراك وجداً على وجدِ

أردف هدهد آخر:

وقد زعموا أن المحب إذا نأى
يسلو، وأنّ النايَ يشفي من الوجدِ

أضاف الهدهد الأول:

بكلٍّ تداوينا فلم يشفَ ما بنا
على أن قربَ الدار خيرٌ من البعدِ

قال دغمش:

– أسمعت يا حكيم؟

قال الحكيم:

– سمعت يا دغمش، لكنني لا أزال عند رأيي، بعد الدار لا قربها هو الذي يشفي..

أضاف:

– صاحبك الشاعر لا يزال على أوّل درجات السلم.. إنه مثلنا تماماً، في سفح الجبل، أنا لا مطمح لي في ارتقائه، أما أنت، وإذا كنت مصرّاً على حب رئيفة، فإن عليك أن تبدأ من السفح، وأن تجاهد وتضنى في الصعود إلى الذروة، وهناك تنال حظّك من حبّها، هذا إذا أحبتك هي.

– وبعد الوصول إلى الذروة.

– الثبات عليها قليلاً، إن أمكن ذلك، وبعده الانحدار من الجانب الآخر للجبل.

– أيّ جبل؟

– هل أنت أهبل؟ جبل الحب طبعاً! هذا إذا كانت معك التي تحب، رئيفة أو غيرها.

– وإذا لم تكن؟ أصعد وحدي!؟ المسألة سهلة إذن، دلّني على هذا الجبل، وأنا أتكفّل بالباقي.. سأصعد إلى ذروته وثباً، وأبقى عليها إلى آخر العمر.. ما قولك؟

– قولي إنك أخرق.. الجبل، يا دغمش، مجاز.. جبل الحب غير جبل الحجارة، صعود جبل الحجارة سهل، في وسع الجميع ارتقاؤه، أما جبل الحب فإنه صعب المرتقى، وشرطه أن يكون معك من يرتقيه.

– كن أنت معي إذن!

– وبماذا أنفعك أنا؟ أنا يا دغمش! يا حيواناً يمشي على رجلين، رغم أنك نلت بعض الحظ من التعليم، وكنت في المدينة، وقنصت البشر، وكنت تفهم قبل أن يخبّلك الحب.. ماذا جرى لك؟ أضعت عقلك؟ كل الأشياء، في هذه الدنيا، قابلة للشرح، إلا الحب.. فيه يكون الصمت، صمت اللسان وكلام العين، ماذا قالت لك العين؟

– عن أي عين تتكلم؟

– ليس عن عيني طبعاً!

– عن عين رئيفة؟ أنت، يا حكيم، أضعت حكمتك، إذا كنت أنا قد أضعت عقلي. رئيفة، يا حكيم، لا تؤخذ إلا قنصاً.. نعم! المسألة هكذا.. أقتنصها كما قنصت غيرها.. رصاصة في الدماغ وينتهي كل شيء.. تستريح هي وأستريح أنا.

تفرّس فيه الحكيم، وقال:

– رئيفة تستريح بالموت إذا قتلتها، أمّا أنت فبماذا تستريح؟

– بالعيش نهائياً في هذه الغابة أو غيرها..

(...)

نهض الحكيم من مجلسه على صخرة النبع، جاء إلى دغمش، ربّت على كتفه، مسح على رأسه، أشعل له سيجارة، دعاه إلى الجلوس على الصخرة معه، تركه يدخن حتى يصفو رأسه، قال له بنبرة حانية:

– كبرنا يا دغمش وكبر همّ الهوى معنا..

أضاف الحكيم بتؤدة:

– من كان يظن أنني بعد هذا العمر، أشتهي رئيفة، وأحاول، رغم تحذيرها، أن أضمها إلى صدري؟ الظنّ، هنا، صار حقيقة.. فعلتها، أخطأت، الخطأ يتطلب ثمنه، دفعت الثمن صاغراً، وجدت نفسي في ماء النبع، خجلت وماذا ينفع الخجل بعد فوات الأوان؟ الحكيم أضاع حكمته، تعلمت درساً مفاده ألا حكمة مع الشهوة، نسيت أن الرجل لا تذله إلا شهوته، اشتهيتها وصار الذي صار، ذهبت إلى بقعة معزولة في الغابة، جففت ثيابي، تذكرت أقوال الهداهد: «قرب الدار خير من البعد».. ابتسمت على أسى، ارتديت ثيابي، عدت إلى مكان سقطتي، وجدتك، أنت أيضاً، في مكان هذه السقطة، وهذا طبيعي

«ما حبّ الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارَ»

نعم! ما حب النبع الذي أعادنا، أنت وأنا، إلى هنا، ولكن حب التي كانت على النبع. وكم كنت حقيقياً وصادقاً حين قلت: «قنصتُ البشر، وقنصتني امرأة من البشر». كلانا، يا دغمش، وقع في الورطة نفسها، دعنا نبتسم من المهزلة، من الورطة، من البهدلة، فإذا ابتسمنا سرّينا عن نفسينا، وإذا ضحكنا تعافينا، فليس مثل الضحك مجلبة للعافية..

(...)

قال دغمش بحسم:

– أنا لا أستطيع أن أضحك!

قال الحكيم:

– بلى! ستستطيع في المستقبل أن تضحك «من هذه المهزلة ونذالة الأيام!».

– أما أن الأيام نذلة فهذا صحيح، وأما أنا، دغمش، أضحك من النذالة، فهذا فوق إرادتي، إنني خلقت لمحاربة النذالة، وسأفعل..

أضاف وهو يشعل سيجارة:

– قل لي، يا حكيم، الذئب الأسود حقيقة أم وهم؟

قال الحكيم:

– الاثنان معاً.

زمجر دغمش:

– كيف هذا، الاثنان معاً؟

قال الحكيم هادئاً مبتسماً:

– الاثنان معاً، وهذا ما ستفهمه مع الأيام.

– والذئب، كما في الرمز، هو الفساد كما تقول؟

– نعم!

– لكن هذا الذئب غير موجود في الغابة.

– موجود في الغابة، بين أشجارها، في أدغالها، في طرقاتها، وموجود أيضاً في المدن. إنه يمشي في شوارع المدن، دون أن يراه الناس بعيونهم، بل بشعورهم، يحسّونه بغيضاً، كريهاً، ناهشاً في لحومهم، في خبزهم اليومي، في صحتهم والعافية، وبكلمة: في أرزاقهم التي لا تكاد تسدّ جوعهم، فهم ضامرو البطون، صفر الوجوه، متعبون إلى درجة لا تصدّق، ولكن ماذا يفعلون؟ كيف يرون من لا يُرى؟ الأرقش على حق، الذئاب السود تولد، تتكاثر في القلاع، ومنها تنتشر..

قال دغمش:

– إنني، كما تعلم، أكره الأرقش حتى الموت، لكنني معه في أن القلاع هي السبب. لماذا.. لا نهاجم القلاع؟

ابتسم بشير الحكيم دون أن يجيب، دون أن يقول له: هذا سيصير يوماً ما! ■

قول آخر

ليست أزمة قراءة

أحمد العمران*

إن الأزمة عائدة إلى دور النشر، قبل أي شيء، وأكثر من كل شيء آخر. معظم دور النشر العربية لا تزال تعمل بعقلية قديمة ومتخلفة وسط كل هذا التطور الذي يعيشه عالمنا، ووسط كل المتغيرات والظروف التي ألمت بصناعة النشر حول العالم. تتذمر دور النشر العربية من تدني عوائد بيع الكتب، وكأن عملها هو صناعة الربح وليس صناعة الكتاب، في الوقت الذي تفتقر فيه طريقة عملها إلى العديد من المبادئ الواجب توافرها في هذا النوع من الصناعة. فعملية صناعة الكتاب تتألف من ثلاث مراحل أساسية، الأولى هي إيجاد المحتوى المناسب، والثانية هي الإنتاج الفني للكتاب، والثالثة هي عملية التسويق والدعاية. وأعتقد أن دور النشر العربية تعاني مشكلات وعوائق متعددة في هذه المراحل جميعاً.

يكثر الحديث حول أزمة قراءة في العالم العربي، والواقع أن العالم العربي يعاني فعلاً من مشكلة تتعلق بالقراءة، لكن كثيراً من التحليلات لأسباب هذه الأزمة جانبت الصواب وابتعدت عن الحقيقة. والجهات المختلفة تتبادل الاتهامات حول هذه الأزمة، فدور النشر وقسم من المؤلفين يلومون ندرة القرّاء في العالم العربي، فيما يضع المهتمون بالقراءة وقسم آخر من المثقفين اللوم على دور النشر والمؤلفين باتهامهم بقلة الإنتاج وضعف مستواه.

إن الأزمة ليست أزمة قرّاء، ولعل الاهتمام المنقطع النظير الذي شهدته المملكة مؤخراً ببعض الإصدارات المحلية، هي مؤشر واضح على أن أفراد المجتمع على استعداد للدخول إلى عالم الكتاب متى ما وجدوا المحتوى القادر على جذب انتباههم. كما أن الأزمة ليست أزمة مؤلفين؛ لأن عالمنا العربي يحفل بالعديد من المثقفين والمفكرين الذين تحوي جعبتهم الكثير مما يمكن أن يضيف إلى المعرفة الإنسانية، متى ما أتيحت لهم الفرصة الكافية ووجدوا الرعاية اللازمة والاهتمام اللائق.

في الغرب، لكل دار نشر مجموعة من المحررين الذين يتمتعون بعين ثاقبة وذوق رفيع يمكِّنهم من اقتناص الكتّاب الموهوبين التي يرون نتاجهم في الصحف والمجلات والإنترنت ووسائل الإعلام الأخرى. ويقوم هذا المحرر بطرح عرض على الكاتب يتضمن اقتراحاً بموضوع كتاب، وغالباً ما يتضمن العرض دفعة مالية مقدمة (بالإضافة إلى المبلغ الذي يحصل عليه الكاتب عن الكتاب من دار النشر، يحصل الكاتب عادة على نسبة محددة من أرباح بيع الكتاب). وإذا اتفق الطرفان، يبدأ الكاتب في العمل على الكتاب، فيما يقوم المحرر بمتابعة العمل أولاً بأول، مقدماً النصائح والاقتراحات، ومحفزاً الكاتب على إنهاء العمل بالشكل المطلوب.

بعد الانتهاء من الكتابة، تقوم دار النشر بعملية المراجعة، ثم طباعة الكتاب وتوزيعه. يلي ذلك مرحلة التسويق والدعاية، وذلك بطرق متعددة؛ أهمها إرسال نسخ إلى مسؤولي الصفحات الثقافية في الصحف والمجلات لغرض العرض والتقييم، وكذلك السماح لهذه المطبوعات بنشر أجزاء محددة من الكتاب. ومن العادات المتبعة أيضاً أن تنظِّم دار النشر جولة للكاتب يقوم فيها بالتنقل بين مناطق مختلفة ليوقع على نسخ من الكتاب ويلتقي بالصحافة المحلية، كما يمكن أيضاً أن تستغل التظاهرات الثقافية كمعارض الكتاب وغيرها لهذا الغرض. بالإضافة إلى ذلك، يعمد الناشر إلى طرح الكتاب بصيغ متعددة لتناسب شرائح مختلفة من المستهلكين.

والآن إلى السؤال: هل تقوم دور النشر العربية بهذا العمل كما يجب؟ ما نعرفه هو أن عدداً كبيراً من الكتّاب والشعراء يقومون بنشر كتبهم بأنفسهم بمجهودات فردية من دون أية مساندة من أية جهة كانت، ويحملون على عاتقهم جميع الأعمال المتعلقة بصناعة الكتاب بما في ذلك توزيعه على منافذ البيع!

إن ذلك لأمر محبط بكل تأكيد.

* كاتب سعودي



الملف
الجريدة

قريبة جداً من حياتنا اليومية حتى الالتحام بها. ويألف الجميع وجودها بين أيديهم حتى نسيان الأسئلة الكثيرة التي يثيرها عالمها الخاص.

قد تبدأ الأسئلة بالدوافع إلى تفضيل هذه الجريدة عن تلك.. وتمر بالنظرة المبسطة إلى الصحافي على أنه كل شخص يقع مقر عمله في مؤسسة إعلامية، وتنتهي بصناعتها، هذا العالم المجهول بالنسبة إلى كل من لم يتعرف عليه من الداخل.

في هذا الملف يأخذنا **خالد الطويلي ووليد شميط وإبراهيم العريس** وبمشاركة محدودة من فريق التحرير، في رحلة إلى عالم الجريدة اليومية وإلى صناعتها وصانعيها.. هذه الصناعة التي تطورت يوماً بعد يوم على مدى أكثر من قرن ونصف قرن، وأرست سكك إنتاج وتقاليد عمل تجعل وصولها إلينا كل صباح باخبار وحلة جديدة أمراً ممكناً.

زكي غواص

حضورها الدائم في حياتنا اليومية أو من حولنا أمر بديهي. والاعتياد على واحدة منها دون غيرها أمرٌ بديهي أيضاً. ومن البديهي أن نجدها أينما كان من حولنا، في الأكشاك والمكتبات وعلى أيدي الباعة الجوالين، وحتى وصولها إلى باب البيت.
نمسك بها كل يوم، ورغم الاعتياد عليها لسنوات وسنوات، نتطلع إليها وكأننا نراها للمرة الأولى.

بالأمس قرأناها بدءاً بالعنوان العريض وصولاً إلى خبر صغير على الصفحة الأخيرة.. واليوم نعيد الكرة، وغداً سنعيدها.

ولكن ما بين البديهيات لا بد وأن يتساءل المرء بين الحين والآخر عن العالم الغامض والمجهول الذي أتت منه هذه الجريدة.. كيف تم جمع أخبارها؟ وكيف تمكنت من توليف كل هذه الأخبار المتنوعة واحترمت موعد وصولها إلينا اليوم كما كل يوم من دون تأخير؟ وما هي حقيقة أولئك الناس الذين يصنعونها؟ أهم كلهم عشاق مغامرات وبطولات كما تصورهم الأفلام السينمائية؟ ولماذا تختلف هذه الجريدة عن كل الجرائد الأخرى؟

الأسئلة لا تنتهي. ولعل المدخل إلى معظم الأجوبة يكمن في قضاء يوم مع جريدة يومية من أيام إنتاجها وحياتها، وقد يكون في الأمر بعض الفائدة للذين يطمحون بدخول عالم هذه المهنة المؤلفة من مهن عديدة لا يجمعها سوى رئاسة تحرير الجريدة والمطبوعة بحد ذاتها.

stock Xchange



corbis

قاعة التحرير.. أيام الآلة الكاتبة

مما تتألف الجريدة؟

منذ نشأتها وحتى اليوم كانت السياسة هي العامود الفقري الذي تقوم عليه الجريدة اليومية. ولكن إلى جانب السياسة، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، أصبح الاقتصاد ومن ثم الثقافة وأخبار المجتمع على اختلاف أنواعها من ضمن اهتمامات الصحف، ثم الرياضة والعلوم والفنون وصولاً إلى التسلية... ولكل من هذه الاختصاصات قسم خاص به مستقل عن باقي أقسام الجريدة، ويرأس كلاً منه رئيس قسم. وبعض الصحف يطلق على رئيس كل قسم «مدير تحرير» لتمتعه بصلاحية اتخاذ القرار ضمن قسمه فقط، ولا يخضع رؤساء الأقسام (أو مديرو التحرير) إلا لسلطة رئيس التحرير.

إضافة إلى هذه الأقسام الرئيسة، هناك أقسام متخصصة لا تقل شأناً وتخدم كل الأقسام الأخرى مثل قسم التصوير، وقسم الرسوم البيانية والفنية والأرشيف والإعلانات والإخراج وصولاً إلى المطبعة التي تستلم كل الصفحات الجاهزة للطبع، وأخيراً التوزيع.

أما العناصر البشرية العاملة في الجريدة فتتوزع عموماً على ناحيتين: ناحية العمل الميداني الذي يضم المندوبين والمحققين



والمراسلين والمصورين، وناحية العمل المكتبي الذي يضم المحررين وإدارات التحرير وكل الأقسام التنفيذية الأخرى.

أما العلاقة ما بين كل واحد والآخرين وكل قسم وآخر فهي، وإن بدت تحدياً بالغ الصعوبة إلا أنها ثمرة تطور مستمر لأكثر من قرن من الزمن، استفادت خلاله الجريدة من خطأ كل يوم لاستدراكه في اليوم التالي، فأرست نمط عمل يختلف بعض الشيء من جريدة وأخرى، ولكن أساسه شبه موحد، ويسمح لكل جريدة بأن تحصل على ما يكفيها من المواد الإخبارية والمقالات والصور وكل المستلزمات الأخرى للصدور بانتظام.

دورة الحياة اليومية

للجريدة اليومية حياة قصيرة تستمر أربعاً وعشرين ساعة فقط، تبدأ قبل ظهر كل يوم وتنتهي قبل ظهر اليوم التالي. فيبدأ يوم الجريدة عادة حوالي الساعة العاشرة صباحاً عندما يتوافد العاملون فيها إلى مكاتبهم. وبداية العمل شبه واحدة عند الجميع. قراءة جريدتهم أولاً بدءاً بالصفحات التي يعملون فيها وذلك للنقد والتقييم أكثر مما هو للاستطلاع. ومن ثم قراءة الجرائد المنافسة لرؤية ما إذا فات جريدتهم أمر مهم أو للاطلاع على الاختلاف في تناول الموضوع الواحد. ومن ثم الصحف العالمية المتخصصة في الموضوعات التي تثير اهتمامهم أكثر من غيرها.

بعد ذلك يعقد اجتماع التحرير بشكل شبه يومي ويكون ما بين رئيس التحرير أو من ينوب عنه ورؤساء الأقسام وتطرح فيه كافة الموضوعات من مدح عمل جيد تم إنجازه في عدد اليوم، إلى نقد الأداء السيء، إلى التخطيط المستقبلي، بالإضافة طبعاً إلى الاتفاق على كيفية التعامل مع الموضوعات الساخنة وتطوراتها المرتقبة اليوم.

وإضافة إلى اجتماع التحرير المركزي هذا تعقد اجتماعات فرعية للأقسام، كلٌ على حدة. فقسم الأخبار المحلية يتولى توزيع مندوبيه على الأماكن التي ستشهد نشاطات بارزة متوقعة وينسق لهذه الغاية مع المصورين، وفق «أجندة» معدة منذ الصباح. وتبدأ دورة العمل في كل الأقسام.

مسار الخبر

لكل جريدة هامش محدد من الحرية تستطيع أن تعدِّل ضمنه نمط إنتاج صفحاتها لجهة تنظيم العلاقة ما بين جميع المساهمين فيه، استناداً إلى هويتها العامة وإلى عدد صفحاتها والتقنيات المتوافرة لديها، وكفاءات العاملين أيضاً.

وللاطلاع على أساس هذه الأنماط أو أكثرها رواجاً يمكننا أن ننطلق ببساطة من موقع حصول الحدث الذي يستحق نشر خبره في جريدة اليوم التالي. إذا كان الخبر متوقعاً وللجريدة مندوب في موقعه، فعلى هذا المندوب أن يكتب الخبر معتمداً على حسه الصحافي في إبراز


guetty images

ما هو مهم فيه من دون إغفال أي جانب من جوانبه الأساسية. ويرسل هذا الخبر مكتوباً إلكترونياً أو يحمله على الورق إلى رئيس القسم أو سكرتير تحرير القسم إن وجد. وهنا، إذا كان الخبر منحصراً بحدث لا امتدادات له، يكتفي سكرتير التحرير بقراءته وإضفاء بعض التعديلات إذا استلزم الأمر لدواعٍ تحريرية أو من باب الرقابة الذاتية أو تحسين العنوان وما إلى ذلك... أما إذا كان الخبر يتعلق بحدث متشعب الامتدادات فعلى القسم التابع له أن ينتظر استكماله من المندوبين الآخرين، ومن وكالات الأنباء المحلية والعالمية إذا كان الخبر عالمياً.

ففي كل قسم من أقسام التحرير هناك متابعة لما تبثه وكالات الأنباء. وفي اليوم الواحد، من الممكن أن تأتي عشرات الأخبار حول حدث عالمي كبير، ولذا فلا بد من جمعها قبل تحريرها في نص موحد لا نقص فيه ولا تكرار. وهذه هي مهمة المحررين الذين تبدأ دورة عملهم المتواصل عصر كل يوم وتستمر حتى الانتهاء من إخراج الصفحات العائدة إلى أقسامهم.

ولكن على أي أساس يقوم المحرر بمعالجة هذا الخبر أو ذاك؟

عندما يصل رئيس كل قسم إلى مكتبه يجد أمامه عدداً من الصفحات البيضاء من صفحات الماكيت، ليس عليها إلا إشارة إلى المساحات المخصصة للإعلان. وتكون من إعداد سكرتاريا التحرير المركزية إن وجدت، أو المنسق ما بين قسم الإخراج وقسم الإعلانات. وبذلك تتحدد أمام كل قسم المساحة المتاحة أمام مواده الصحافية. ولذا، على رئيس كل قسم أن يبلغ المحرر المقبل على تحرير مادة إخبارية معينة بالحجم التقريبي المخصص لها. وفيما ينصرف المحرر إلى معالجة النص ووضعه في صيغته النهائية، يتم استحضار الصور من قسم التصوير، أو من الأرشيف أو مما تكون الوكالات قد وزعته. ولتفاهم المحرر مع رئيس القسم أو سكرتير التحرير الدور الأساس في اختيار الصورة أو الصور الملائمة وعددها لاعتبارات كثيرة أهمها مكانة الصورة بالنسبة إلى النص والمساحة المتوافرة.

تجمع رئاسة كل قسم مواد كل صفحة بكاملها، ومن ثم يضع رئيس القسم رسماً تقريبياً لشكل توزيع هذه المواد على الصفحة. والمتفق عليه عموماً هو أن تكون الزاوية اليمنى العليا للمادة الأكثر أهمية، ومن ثم الجهة اليسرى العليا، فاليمنى السفلى وأخيراً الزاوية اليسرى السفلى. وترسل كافة المواد مع الصور ومخطط الصفحة إلى قسم الإخراج لتنفيذها في شكل شبه نهائي، بعد أن تمر بقسم المدققين الذين يصححون الأخطاء اللغوية والطباعية. هنا يكون التنفيذ شبه نهائي.. لأن قسم الإخراج قد يضطر إلى إعادة بعض مواد الصفحة إلى المحررين لاختصار النص


corbis

اجتماع لرؤساء أقسام جريدة يومية

هنا، أو لإضافة صورة هناك، أو للاختيار بين واحدة من صورتين.. وعندما ينتهي إخراج الصفحة كاملة يتم إرسالها إلى المطبعة لبدء تحضيرها للطباعة.

عامل الوقت

ما سقناه أعلاه ينطبق على المادة الإخبارية وتغطية الأحداث اليومية. ولو كانت الجريدة مؤلفة فقط من هذا النوع من الأخبار، لأمكن لدورة الحياة فيها أن تبدأ مساءً لتنتهي فجراً. ولكن الحياة في الجريدة تدب في كافة أقسامها منذ ساعات العمل الأولى صباحاً. والسبب في ذلك أن الكثير الكثير مما تنشره غير مرتبط بأحداث اليوم، ويكون معداً سلفاً وهذا ما ينطبق على الاستطلاعات المصورة التي يتطلب إعدادها عدة أيام، والقسم الأكبر من مواد الصفحات الثقافية، ومقالات الرأي والمقالات التحليلية التي تتناول حالات مستمرة لأكثر من بضعة أيام وصفحات التسلية والإعلانات وما شابه. هذا النوع من المواد الصحافية يخضع لعمليات التحرير وحتى الإخراج في بعض الأحيان منذ ساعات الصباح، وأحياناً قبل يوم أو يومين. أما المادة الصحافية الخاضعة لمجريات أحداث اليوم فتبقى معلقة حتى المساء.

يشهد المساء منذ ساعاته الأولى ما يعرف بـ «إغلاق الصفحات» تباعاً، أي وضعها في صيغتها النهائية تحريراً في وقت محدد بدقة ومن ثم إخراجاً في وقت محدد بدقة أيضاً، لا يقبل فيه أي تأخير مهما كان سببه.

وبسبب المنافسة مع الجرائد الأخرى، ومع وسائل الإعلام المرئية والمسموعة التي صارت تنقل الأخبار والأحداث المهمة مباشرة، سخَّرت الجرائد اليومية طاقاتها حتى أقصى حد بغية التمكن من مواكبة الأحداث الجارية حتى آخر لحظة. ولذا تبقى عادة الصفحة الأولى «مفتوحة» لاستيعاب أية تطورات قد تستجد حتى منتصف الليل تقريباً.

وفي حالات استثنائية مثل اندلاع الحروب أو الأحداث الجسام، يتأخر إغلاق الصفحة الأولى حتى الثانية أو الثالثة فجراً رغم أن ذلك قد يؤخر الطباعة ومن ثم التوزيع لبضع ساعات. ولكن الجريدة ترضاه بدلاً من أن يلومها القارئ الذي قد يرى أن خبر اندلاع الحرب قد فاتها..!

التطور والتسهيل والتعقيد

مما لا شك فيه أن التطورات التقنية التي شهدها عالم الصحافة خلال العقود الأخيرة سهّل الكثير من جوانب إنتاج الجريدة. فأخبار الوكالات التي كانت ترد عبر «التلكس» حتى مطلع التسعينيات وتطبع على أوراق تتكدس تلالاً على الطاولات، صارت اليوم ترد على شاشة الكومبيوتر حيث يمكن للمحرر أن يختار منها ما يهمه أمره. كما أن المندوب الذي كان يكتب مقالته أو نص الخبر على الورق صار يطبعه على شاشة الكومبيوتر ويعطيه شكله الإخراجي الأولي إن شاء ذلك، أو إن كان مخولاً بذلك. كما بات من الممكن إبدال صورة بصورة أخرى قبل لحظات من توجه الصفحة إلى المطبعة إذا كان ذلك ضرورياً، لأن الصيغة الإلكترونية لتوزيع الصور باتت تسمح بذلك.. إضافة إلى أن التصوير الرقمي ألغى كل عمليات التحميض والطباعة على الورق في التصوير التقليدي.

ولكن الحداثة نفسها التي سهّلت إنتاج بعض جوانب الجريدة، جرّت هذه الجريدة إلى ميدان يزيد من تعقيدات إنتاجها. فسهولة الاتصالات


corbis

الإخراج الحديث.. بكامله على شاشة الكومبيوتر


corbis

«صفّيف أحرف» أيام زمان

الإلكترونية لم تخدم فقط المراسل والمصور في التواصل الدائم مع مكاتب التحرير.. بل أغرت جرائد عديدة بالانتقال من المحلي إلى العالمي عبر طبع الجريدة في أكثر من بلد في اليوم الواحد، الأمر الذي بات يتطلب عملاً ضخماً لم يكن مألوفاً في الماضي.

«الشرق الأوسط» مثالاً

المعروف أن جريدة «الشرق الأوسط» تُطبع كل صباح في المملكة العربية السعودية (في جدة والرياض والدمام) وأيضاً في مصر، لبنان، الإمارات العربية المتحدة، المغرب، العراق، أوروبا وأمريكا. وقد لا تتطابق صفحات هذه الطبعات من الجريدة الواحدة تماماً، بما في ذلك الصفحة الأولى.

فقد تتضمن طبعة العراق صفحات لا تراها في طبعة المغرب أو الإمارات. كما أن الطبعات السعودية الثلاث قد تتضمن بعض الاختلافات في بعض الصفحات بسبب المادة الإعلانية المختلفة في كل طبعة وتأثير وجودها على المساحة المتبقية لباقي المواد الصحافية. وهذا يعني أن الصفحات التي يتم إعدادها لإصدار عدد يوم واحد من «الشرق الأوسط» قد يصل إلى 140 صفحة، لكل منها «ماكيت» مختلف أو على أقل تقدير بعض التباين.

وتوزع الصفحات المائة والأربعون يومياً على الطبعات المختلفة على الشكل التالي: 28 صفحة للطبعة الدولية، 24 صفحة لكل من الطبعة السعودية والإماراتية، 28 صفحة للطبعة الأوروبية، 20 صفحة للطبعة اللبنانية، 16 صفحة للطبعة العراقية، و24 صفحة للطبعة المغربية.

ويعود هذا التباين بين الصفحات إلى التباين ما بين اهتمامات القرّاء في مختلف المواقع. حيث إن خبراً يهم قارئاً عربياً في واشنطن قد لا يهم بالضرورة قارئاً آخر في جدة أو القاهرة.

ولذلك، فإن طبعة كل منطقة تكون مصممة لتحمل الأخبار والمقالات التي تهم قرّاء هذه المنطقة أكثر من غيرهم. وعلى هذا الأساس يتم تقسيم أولويات نشر الأخبار عندما توزَّع الصفحات وتملأ بالمواد المحررة. وإضافة إلى ذلك، هناك معلنون لا يودون أن تظهر إعلاناتهم في كل الطبعات لأن جمهورهم المستهدف هو في الإمارات مثلاً وليس في المغرب. وبالتالي، ومن منظور اقتصادي، يمكن استيعاب معلنين أكثر في كل طبعة مختلفة، ويمكن تحديد وجهة هذه الإعلانات حسب اهتمام المعلن بالمنطقة التي يريد تغطيتها.

في المؤسسات الصحافية المشابهة، لا بد من وجود سكرتاريا تحرير مركزية وقوية توزِّع المادة الإعلانية أولاً على كل الصفحات في مختلف الطبعات. وهذه مهمة تتطلب التحديث يومياً وبشكل مستمر طوال اليوم. كما تحدد سكرتاريا التحرير هذه جدول العمل التنفيذي الذي يتوزع العمل بناءً عليه.

إلى ذلك تُنيط بعض المؤسسات الصحافية بسكرتاريا التحرير المركزية من المهمات ما يتولاه عادة رؤساء الأقسام في غيرها من المؤسسات الأصغر حجماً. فتتولى هي، كما الحال في «الشرق الأوسط»، مسؤولية الإجازة النهائية لصفحات الجريدة عند توجهها إلى الطبع، وصولاً إلى بعض المسائل الإدارية مثل ضبط الإجازات وجداول تنظيم العمل الأسبوعي.. وغير ذلك.

خالد الطويلة

متابعة أخبار الوكالات العالمية في قاعة تحرير مركزية



خالد الطويلة

الصحافي في الصحيفة

على الرغم من تعدد الاختصاصات المهنية التي لا غنى عنها للجريدة الواحدة، يبقى الصحافي في الطليعة، وكأن كل الاختصاصات الأخرى مسخرة لحمل ما عنده ليقوله من أخبار وآراء إلى العالم.

في البدايات الأولى للصحافة اليومية، كان الصحافي هو الشخص الذي يصدر جريدة فقط. إلا أن تطور المهنة بدءاً من أواسط القرن التاسع عشر زاد من احتياجات الصحف إلى «صحافيين» متنوعي الاختصاصات. وإن بقيت مهمة الصحافي عموماً هي البحث عن الخبر الجديد الذي يهم الناس، فإن تنويعات عديدة طرأت على عالمه.

إذ بات هناك الصحافي الذي تصله الأخبار إلى مكتبه من المندوبين ووكالات الأنباء، ومهمته هي اختيار ما يراه مناسباً منها وصياغتها وتخليصها مما يراه غير ضروري. وهناك الصحافي الذي يتابع الأخبار المنشورة وغير المنشورة ليكتب مقالة تحليلية يضمنها رأيه في موضوع معين، وهناك الصحافي الذي يحدد لنفسه موضوعاً لم ينتبه إليه أحد فيمضي أياماً يستطلع جوانبه المختلفة.. وهناك الصحافي المتخصص في شأنٍ واحدٍ مثل الاقتصاد، أو السياسة الداخلية لدولة معينة، أو الرياضة في بلده، أو حتى في نوع واحد من أنواع الرياضة.

يعرّف قاموس «لاروس» الصحافي بأنه «الشخص الذي يمارس نشاطه لواحدة أو أكثر من وسائل الإعلام. ويؤمّن كلياً أو جزئياً العمل المطلوب لجمع ومعالجة وتقديم الأخبار المتعلقة بوقائع أو بأحداث راهنة».



stock Xchange

الأكبر والأصغر



تصدر الصحف اليومية بمقاييس وأحجام مختلفة، غير أن أشهرها وأكثرها رواجاً هي المقاييس المألوفة في الصحف العربية (حوالي 37 × 57 سم) مثل «الشرق الأوسط» و «الحياة» و «الأهرام» وغالبية الصحف الصادرة في دول الخليج. وهناك مقاييس أصغر مثل صحف التابلويد التي تصل إلى نحو نصف مقاييس الصحف المذكورة أعلاه، وتعتمدها الصحف الشعبية البريطانية مثل «صان» و «ميرور»، والفرنسية «ليبيراسيون» والإسبانية «آل باييس». وما بين الاثنين هناك مقياس متوسط (32 × 47 سم تقريباً) مثل جريدة «لوموند» الفرنسية و «الوطن» السعودية، و«لاريبوبليكا» الإيطالية.

وفي هذا السياق قد يكون من الطريف أن نشير إلى أن أكبر صحف العالم حجماً كانت صحيفة «كونستلايشن» الأمريكية التي أصدرت في العام 1859م عدداً خاصاً لمناسبة يوم الاستقلال بلغ عرضه 89 سم وارتفاعه 180 سم!

أما أصغر صحيفة صدرت في العالم فهي «دايلي باز» الأمريكية أيضاً والتي بلغت مقاييسها 7.6 × 9.5 سم.. علماً بأنه في العام 1991م، صدرت صحيفة في فرنسا باسم «لوبوتي فورما» (أي الحجم الصغير) بلغ عرضها 7.5 سم وطولها 10.5 سم، ولم يكن يطبع منها أكثر من 200 نسخة.

والقانون الفرنسي الذي كان من أول القوانين في العالم التي سعت إلى تعريف الصحافي، يقول إنه «الذي يمارس مهنته في مطبوعة يومية أو دورية أو في عدد من وكالات الأنباء، وتشكل هذه المهنة عمله الأساس، العادي، ومصدر دخله». وفي العام 1982م، امتد مفعول هذا القانون إلى الصحافيين العاملين في الوسائل السمعية - البصرية. ولا يحدد هذا القانون نشاط الصحافي، غير أن القضاء أوضح أن الصحافي يقوم بعمل فكري (بخلاف العمل المادي أو التقني البحت).

فما هي طبيعة هذا العمل الفكري؟

دور الصحافي

ليس هناك من دور محدد للصحافي. فهو يلعب أدواراً عديدة، وهي حسب ريمي ريفيل في كتابه «نخبة الصحافيين» يمكنها أن تكون الوساطة، تنظيم العلاقات، التحرير، التعليق، التشكيك، والمحافظة. ويرى الكثيرون أن الصحافي مراقب متميز وشاهد على التاريخ، وأن الجريدة مثل الإسفنجة: تمتص وتعطي. وبعض الصحافيين يتمتع بكتاباته متعة الأديب بأدبه.

والصحافي يعرف أكثر مما يكتب كما يعتقد البعض. فرغم ميل الصحافي إلى التمتع بحرية التعبير حتى أقصى حد ممكن، فهو يعي أن تأثيرات شتى تحد نطاق حريته. منها ما يتعلق بسياسة المطبوعة، وموقع صاحبها وارتباطاته ومصالحه. ومنها ما يتعلق بالعلاقة مع الدولة ورجالاتها وتوجيهاتها. فاستقلالية الصحافي تبقى نسبية يرسمها السياسيون وأصحاب كل جريدة على حدة. ناهيك عن الاعتبارات الإعلانية التي تملي على الصحافي أخذ مصالح المعلنين بعين الاعتبار.

ويتمتع الصحافيون بشيء من الشهرة طالما أن أسماءهم تصل كل صباح إلى الآلاف من الناس. ولكنها شهرة واهية وعابرة، إذ يكفي أن يغيب الصحافي لبعض الوقت حتى تختفي الشهرة وينساه الناس. والصحافيون الذين يتعاملون مباشرة مع الأحداث وأخبارها هم رغم كدّهم الكبير، أقل مكانة من الكتّاب السياسيين والمحللين، وأدباء الصفحات الثقافية الذين يعتبرون من المبدعين والفنانين.

وكما في كل المهن، هناك الصحافي المبدع واللامع والنشيط، وهناك الفاشل والمغرور والعاجز عن مقاومة إغراء المال والجاه والسلطة.. أما الخيط الرفيع بين النجاح والفشل فهو ما يسميه البعض «الحس الصحافي».

والحس الصحافي هو تلك الموهبة المطلوبة التي تجعل صاحبها قادراً على قياس أهمية حدث معين وتوقع امتداداته ليجهز نفسه لمواكبتها. وهو أيضاً القادر على أن يكيل دفعة واحدة بمكاييل عديدة تبدأ باهتمام القارئ بهذا الحدث، وقابلية نشره في الجريدة من دون إغضاب صاحبها أو السلطات، والحفاظ على الدقة، وإطلاق التوقعات الصحيحة.

قبل عصر الجريدة

قبل نحو ألفي عام، أصدر الرومان الصحف الأولى أو ما سمي آنذاك «ACTA DIARNA» أي «أحداث اليوم» التي كانت توزع في الأماكن العامة وترسل إلى كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية. وكانت «أحداث اليوم» تنشر الأخبار والأحداث المثيرة وأخبار الزيجات والوفيات والولادات والأخبار العسكرية والرياضية والمسرحية. وكان يتولى نسخها يدوياً عبيد ذلك الزمان. وكان العدد الواحد الصادر في 10000 نسخة يحتاج إلى 300 ناسخ.

وأصدر الصينيون في العام 800م صحيفة KAI-YUANTSA-PAU، التي صارت أسبوعية سنة 1361م وبعد أكثر من ألف سنة (1830م) تحولت إلى صحيفة يومية.

وعربياً، يلاحظ محمد رشاد الحمزاوي أن أديب مروة في كتابه «الصحافة العربية نشأتها وتطورها» ربط صحافة اليوم بوسائل الإعلام القديمة في العصرين الأموي والعباسي. إذ أن «ديوان الرسائل» و «ديوان الإنشاء» و «الرسائل الأدبية» كانت تتناول موضوعات صحافية من خلال اهتمامها مثلاً برسائل البيعات للخلفاء، وأولياء العهد، والقصص والسمر والحكاية على ألسنة الحيوانات. ويقول مروة: «إذا علمنا بأن كل رسالة من تلك الرسائل كانت لا تتجاوز عشرين صفحة، وأن كل واحدة منها كانت رداً على رسالة أخرى سبقتها، استطعنا أن نسمي ذلك نشاطاً صحافياً..».



corbis

تحضير الأفلام وصور الصفحات للطباعة


الأهرام
THE DELTA ADVISOR
Marines, MRF Units Pound VC
Allied Force Kills 225 Enemy
النهار
AN-NAHAR
Focus
The Business of Real E
النظام
AN-NAZAM
G.A.F.
الاتحاد اللبناني
الشرق الأوسط
Clinton hospitalized
Medicare charges to rise
Muir High loses opener
PASADENA STAR-NEWS
'The Release of Souls'
Former politicia
الجزيرة
Tabloid
Spotlight
الاتحاد العثماني
١٣٢٦
The BillVillager
No-Neck Twisters In Pre-Season Wor
今日由港督主持奠基禮
Daily News
SALE 30%
الاقتصادية
THE SUN, BALTIMORE
They Step Into The Cold Outside World
اليوم
النهار
AN-NAHAR
Kuwait Times
Al-Salloum family launches pioneer genealogy website
THE ILLUSTRATED LONDON NE
الحياة
arab news
READING EAGLE
Gulf Coast Smashed
الرأي العام

ولا بد لهذا «الحس الصحافي» من أن يتلازم مع شبكة علاقات عامة من أوسع ما يمكن، وقدرة على الصبر والتحمل، وصولاً إلى القبول بخوض مغامرة خطرة في بعض الأحيان.

يقول الصحافي العربي المعروف محمد حسنين هيكل «كي يصبح المرء صحافياً، أو حتى يمكنه القول أنه فعلاً صحافي عليه أن يعمل لمدة عشرين سنة!». فمستوى الصحافي هو ما يحدد مستوى الأداء المهني في جريدة يومية. أما نوعيتها وشخصيتها فمسألة أخرى.

الجريدة بين التشابه والفرادة

إذا كانت سكك إنتاج الجرائد متشابهة في كل ما هو أساس وفق هرمية محددة. وإذا كانت مواصفات الصحافي الناجح شبه موحدة في الغرب كما في الشرق.. أفليس من المفترض أن تكون الجرائد كلها متشابهة؟

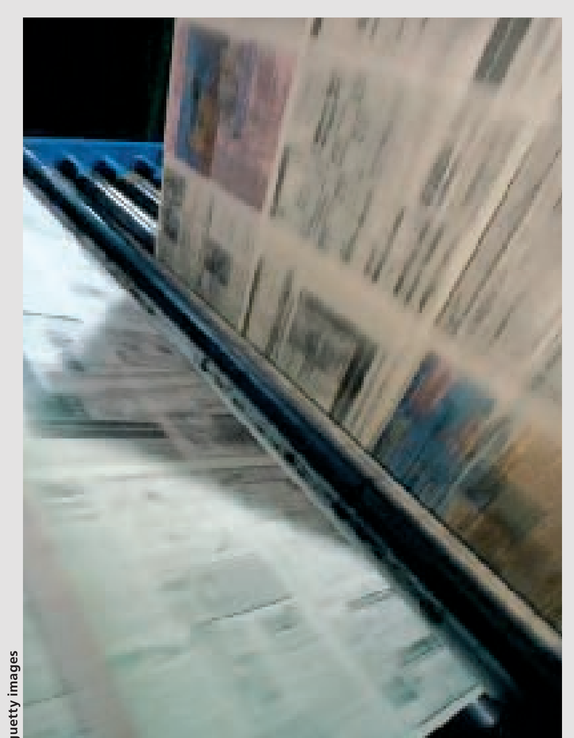
الواقع عكس ذلك تماماً، يشهد على ذلك تشبث بعض القرّاء بجريدة معينة دون سواها فيعتبرها الأفضل والأقرب إليه. إذ إن لكل جريدة يومية شخصيتها المستقلة المختلفة تماماً عن غيرها.

فمن جهة كان ولا يزال في كل بلد ما يسمى بالجرائد المحلية والأخرى القومية، ناهيك عن الجرائد المتخصصة. غير أنه ومنذ عقدين من الزمن ازداد التنوع في شخصيات الجرائد اليومية، فبعدما كانت ثورة الراديو، منذ بدايات القرن العشرين ثم ثورة التلفزيون خلال النصف الثاني من هذا القرن، قد أحدثتا تبديلات كثيرة ليس فقط في شكل الصحافة بل كذلك في جوهر مضمونها، بات واضحاً في زمن التلفزيون والفضائيات ثم الإنترنت، أن الصحافة اليومية لم يعد في وسعها أن تقدم خبراً طازجاً إلى قرّائها؛ لأن الخبر الطازج يذاع مرئياً ومسموعاً فور حدوثه.

ومن هنا يزداد اهتمام الصحافة بدروب من الصعب على التلفزيون أن يجوبها: صحافة التحليل المطول، وصحافة الإثارة... ولئن اتسم النوع الأول بالجدية وتوجه نحو جمهور نخبوي (ومن نماذجه الكبرى «الغارديان» و «نيويورك تايمز» في الولايات المتحدة، و «لوموند» في فرنسا و «الحياة» و «الشرق الأوسط» و «الأهرام» وعدد كبير من الصحف الأخرى في العالم العربي، و «كوريري ديلا سيرا» في إيطاليا، و «يوميوري سيمبون» في اليابان)، فإن النوع الثاني اتسم بالشعبية وبالاهتمام بالصفحة الأولى أملاً في اجتذاب القارئ عبر صورة مثيرة أو خبر فضائحي أو موقف غير متوقع.

ويلاحظ في بعض الأحيان أن الأمور تختلط بحيث تدنو الصحافة الجدية من الإثارة (وهو مطلب دائم لممولي الصحف وشركات الإعلان)، فيما تحاول صحافة الإثارة أن تكون جدية بعض الشيء (مواقف «الميرور» خلال الحروب الأخيرة التي عارضتها بقوة).

ولأن الجريدة اليومية هي أساساً مطبوعة سياسية، فإن التعامل مع الخبر السياسي الواحد يختلف من جريدة إلى أخرى. فإذا كان الخبر ملائماً لسياسة الجريدة، يمكنها أن تبرزه في أفضل موقع ممكن وتتوسع في تفاصيله حتى أقصى حد ممكن. وفي حالة العكس، تكتفي بنشره بشكل يكفي لرفع عتب القارئ في حال لاحظ غيابه عن صفحاتها. وإذا أمكن، فمن الممكن اعتبار الخبر وكأنه لم يكن!

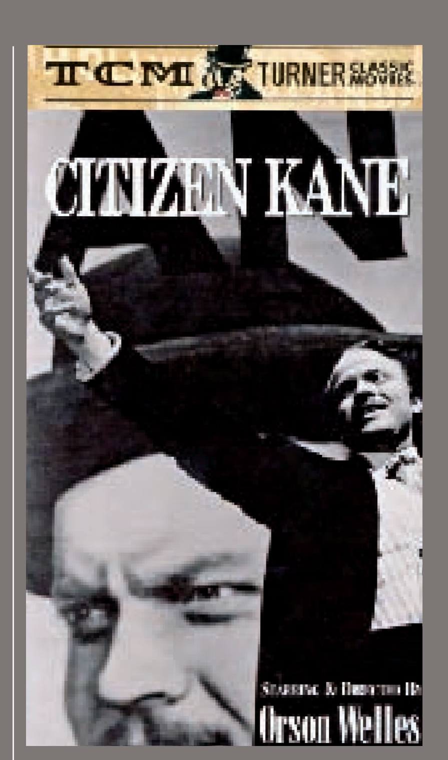

guetty images

فجراً.. المطبعة تدور


corbis

إلى المكتبات والأكشاك عبر شركات التوزيع

الصحافة والسينما



طوال القرن العشرين، ومنذ اختراع فن السينما حتى الآن، شكل الموضوع المتعلق بالصحافة والصحفيين، من بعيد أو من قريب، الموضوع الأثير للفن السابع وصانعيه وجمهوره. وعلينا هنا أن نذكر قبل أي شيء آخر أن فيلم «المواطن كين» الذي يعتبر، في معظم استطلاعات الرأي، أفضل فيلم في تاريخ السينما، هو فيلم عن الصحافة، عبر تحقيق يقوم به صحافي لإماطة اللثام عن أسرار حياة واحد من كبار مالكي الصحف في أمريكا الأربعينيات.

وقبل «المواطن كين» وبعده، كانت الصحافة تشكل موضوعاً للسينما.. وكان الصحفيون شخصيات أساسية في أفلامها.. بحيث أنه يبدو لنا من الصعوبة بمكان إحصاء الأفلام الأمريكية أو غير الأمريكية، وحتى المصرية، التي جعلت من الصحافي والصحافة موضوعها.. ولنذكر هنا أن مهرجان «لوكارنو» السينمائي السويسري، أقام قبل عامين تظاهرة خاصة للعديد من الأفلام المرتبطة بالصحافة، وأصدر للمناسبة كتاباً عن ذلك. ولقد كشفت التظاهرة كم أن العلاقة وثيقة بين الوسيلتين، من خلال أفلام نموذجية مثل «المهنة مخبر» لميشال أنجلو أنطونيوني، و «كل رجال الرئيس» المتحدث عن فضيحة ووترغيت، وهو من بطولة داستن هوفمان وروبرت ردفورد.. وصولاً إلى فيلم «فهرنهايت 9/11» لمايكل مور والذي اعتبر فيلماً عن الصحافة.. بل إن التظاهرة اشتملت على اعتبار سلسلة أفلام «سوبرمان» سلسلة تدنو من الصحافة، طالما أن سوبرمان نفسه هو في حياته العادية صحافي.



إن شخصية الصحافي تظهر في أفلام عديدة. وواحد من أسباب هذا الظهور، كون بعض المخرجين (ومنهم مثلاً بيلي دايلور جعل من الصحافي بطل أفلام كثيرة له، ومن أشهرها «الصفحة الأولى») كانوا في الأصل صحفيين.

وهكذا من فلليني إلى كابرا، ومن جان لوك غودار إلى كوروساوا، أنتجت أفلام مثل «الحياة لذيذة» و «أن تعيش حياتك» و «فضيحة» تتناول الصحافي. وبشكل هجومي في بعض الأحيان، كما الحال مثلاً في فيلم «الرجل الذي فقد ظله» من إخراج كمال الشيخ (مصر) عن رواية لفتحي غانم.. أو بشكل محايد يجعل من الصحفي شخصية تتدخل في الأحداث لمجرد إلقاء الضوء عليها، كما في «العصفور» ليوسف شاهين.. أو حتى، كشخصية كاريزماتية تنطق باسم الجمهور (كما في «ضربة شمس» محمد خان)، حيث يلعب نور الشريف دور مصور صحفي يلتقط الأحداث ساخنة من الشارع.

ومهما يكن من أمر، حتى لو دنت السينما من شخصية الصحفي بشكل شديد الذاتية، يحمل أحياناً من النقد والفضح ما يحمل، فإن معظم الأفلام السينمائية، غربية شرقية أو عربية، حين جعلت من الصحافي شخصيتها الرئيسة حرصت على أن تجعل منه، غالباً، ناطقاً باسم الضمير العام.. داعية هذا الضمير إلى التماهي معه، معيدة للصحافي دوره الأول والأساس، وأخلاقياته الأصيلة.



امبراطوريات إعلامية



corbis

صحيح أن الصحافة لا تزال تلعب دوراً مهماً، ولكن في المقابل يجب الاعتراف بأن مكانة الصحافة اليومية في مجتمعاتنا تزداد تقلصاً.

ونشر الصحف يتطلب مبالغ طائلة لا تتوافر إلا لدى الحكومات أو الأثرياء جداً أو المجموعات الاقتصادية أو الصناعية الكبرى. لذلك فمن المتوقع أن يتراجع أكثر فأكثر عدد الصحف المستقلة فعلاً في البلدان الديمقراطية وفي غيرها.

ومن جانب آخر صارت الدعاية التجارية تشكّل المصدر شبه الوحيد للدخل لدى الصحف، مما يشكّل ثقلاً على استقلالية الصحافة المادية والمهنية.

الصحافة اليومية لا تحتضر بالطبع، غير أنّها من دون شك تمر بصعوبات. ليس ثمة صحيفة في العالم، حتى بين أقوى الصحف وأكثرها انتشاراً، لا تواجه مشكلات تهدد موقعها ومكانتها وحتى استمراريتها. والأسباب كثيرة:

corbis

في عشرينيات القرن الماضي كانت وحدها الصحف تنشر الأخبار، غير أن هذا الاحتكار انتهى مع ولادة الإذاعة، وانتهى أكثر مع اختراع التلفزيون، ثم الفضائيات، ومع الإنترنت والوسائل التكنولوجية الحديثة التي باتت تتيح للراغب أن يطلّع على أخبار العالم بأبسط السبل وأسهل الوسائل.

ومع ذلك تقوم إمبراطوريات إعلامية، وفيها الصحف اليومية، في كل مكان، وخصوصاً في الولايات المتحدة، وفي معظم البلدان الغربية واليابان، وكذلك في العالم العربي.

وإذا كانت هناك بعض القيود على شراء الإذاعات وشبكات التلفزيون، منعاً للاحتكار، إلا أن شراء الصحف اليومية في معظم البلدان الصناعية المتقدمة لا يخضع عملياً لأي قيد أو شرط.



photo search

صناعة لن تقضي عليها وسائط الاتصال الحديثة، بل خدمتها في جوانب كثيرة

ولذلك تقوم إلى جانب إمبراطورية مردوخ في بريطانيا والولايات المتحدة، واساهي في اليابان، إمبراطوريات إعلامية أخرى تملكها شركات اقتصادية وصناعية كبرى مثل إمبراطورية برلسكوني في إيطاليا ومارسيل داسو ولاغاردير في فرنسا، وسبرنفر في ألمانيا.

والواضح أنه على الرغم من كل التحديات والصعوبات، ستبقى الصحافة اليومية حاضرة باستمرار، وهو حضور جميل ومفيد لا تعوضه الإذاعات وشبكات التلفزة والفضائيات ومعها الإنترنت وبقية التكنولوجيات الحديثة.

إلى ذلك، فإن المادة غير الحديثة (وتسمى المادة الماغازينية) تعطي الجريدة هامشاً كبيراً في التحرك بعيداً عن زميلاتها. فإذا كانت الجريدة موالية للحكومة فإنها توفر المندوبين لإجراء استطلاعات مصورة عن بعض إنجازات هذه الحكومة، أما الجريدة المعارضة فتوفر المندوبين ليتفننوا في عرض تقصير الحكومة في معالجة مسائل «بالغة الأهمية والخطورة».

والتفرد الشكلي أيضاً

لكل جريدة أسلوبها وشكلها وطابعها وشخصيتها. ويشكّل اسمها، ومعه صفحتها الأولى، وتبويبها الخاص، وعناوينها الرئيسة، وافتتاحيتها، العنصر الأهم في هذه الشخصية.

اسم الجريدة ليس هدفاً للقراءة، إنما هو «الواجهة» إذا صح التعبير. وهو الذي يضمن استمرارية الجريدة في طابعها ونهجها. والقارئ يرتبط واسم الجريدة بعلاقة خاصة. ويشكّل الاسم ممراً بين القراءة الخاصة للجريدة والقراءة العامة، بين قارئ الجريدة الفرد وبين مجموع قرائها.

والإخراج هو الذي يعطي الجريدة شخصيتها، وأيضاً شكل الحرف الذي تستعمله، لدرجة أن الصحف تتخوف كثيراً من إجراء أي تغيير في إخراجها وتبويبها وشكل صفحاتها، وخصوصاً الصفحة الأولى.



corbis

corbis

شاحنة التوزيع تنشط صباحاً فقط.. إلا إذا كانت الجريدة مسائية

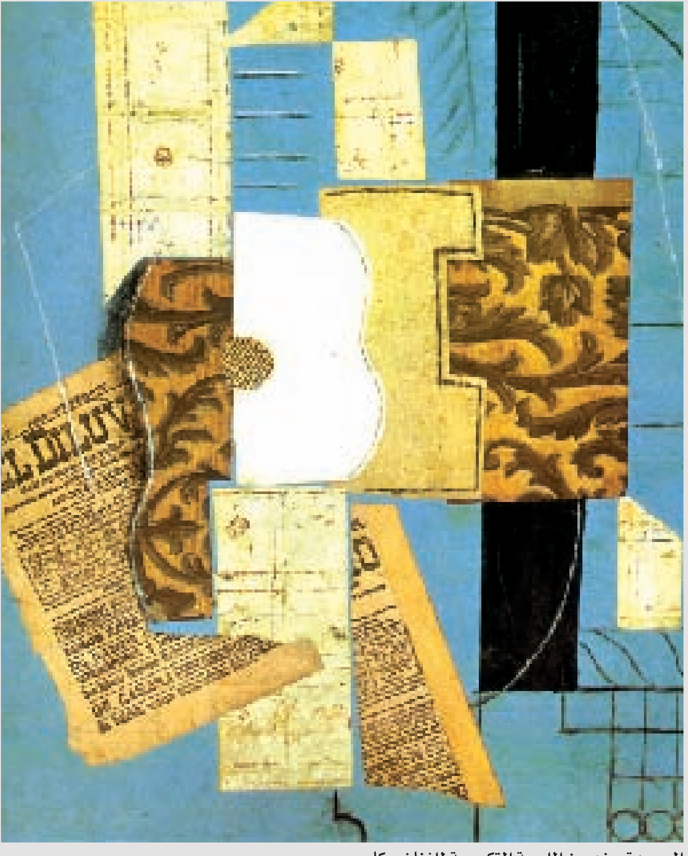
فلهذه الصفحة مكانة خاصة، وكثيراً ما يثير أي تغيير جذري فيها اعتراضات القراء وملاحظاتهم فهم يفتقدون في مثل هذا التغيير الجريدة التي اعتادوها وأحبوها. إذ أنه وسط تقلب الأحداث والأخبار من يوم إلى آخر، يبدو القارئ بحاجة إلى ما يوحي له بالثبات والاستمرارية.

بائع الصحف

منذ ظهور الجريدة اليومية وحتى سنوات قليلة خلت، كان بائع الصحف هو حلقة الوصل ما بينها وبين القارئ. وكان هو العامود الفقري للتوزيع؛ لأنه كان يوفر على القرّاء عناء الذهاب إلى نقاط البيع في المكتبات، طالما أنهم يلتقونه أينما كان: على الأرصفة، في المقاهي، عند إشارات السير، وحتى وهم في بيوتهم.

كان بائع الصحف يحمل عادة بضع نسخ من كل جريدة ضمن لوح كرتون مطوي على ساعده الأيسر. والمحترفون منهم كانوا ينادون بما يقوله «المانشيت» إثارة لاهتمام المارة علّهم يشترون الجريدة.

وكان باعة الصحف يعرفون زبائنهم والصحف المحددة التي يقرأونها، ومن خلالها يعرفون الميول السياسية لكل منهم.



الجريدة جزء من اللوحة التكعيبية للفنان بيكاسو

المصادر

عادة، لا تكون هناك أية صلة مباشرة ما بين الصحافي والحدث. فعلاقته بالأحداث تقتصر على كلمات وشهادات أبطال هذه الأحداث والشهود والخبر.. والمصادر التي تشكل رأس المال الحقيقي للصحافي تشمل الطبقة السياسية وكبار موظفي الدولة والقطاعين العام والخاص، والفاعليات الاجتماعية ووكالات الأنباء والمكاتب الإعلامية الرسمية وغير الرسمية وأيضاً الإنترنت، بنوك المعلومات، المكتبات والصداقات الشخصية. وبقدر ما تكون هذه الشبكة واسعة، بقدر ما تكون إمكانيات الصحافي أكبر.

ونسج الشبكة أو تشكيلها فن قائم بذاته، بالإضافة إلى التحدي الأكبر المطروح دائماً أمام الصحافي وهو في كيفية التعامل مع المصدر. من يتلاعب بمن؟

المصدر ليس حيادياً في الغالب. والمصالح التي يأمل في الحصول عليها من الصحافي كثيرة: تلميع صورته وحضوره، التأكيد على وجهة نظره، الإساءة إلى خصومه وتضليلهم... وثمة قاعدة متبعة بين الصحافي ومصادر الأخبار تقوم على ما يسمى «تبادل الخدمات».

إذ لا وجود للأخبار البريئة، ووراء كل خبر مصلحة. والخبر الذي لا يخدم مصدره يبقى طي الكتمان.

إلى ذلك، يذكر الصحافي أحياناً اسم مصدره، وأحياناً يتكتم عليه. وهذا من حقه، غير أن التكتم حول مصادر الأخبار ليس مطلقاً. إذ يمكن للقضاء أن يجبر الصحافي، عند الضرورة، على الكشف عن مصادره.

وحفاظاً على الصدقية، تسعى الجريدة إلى أن تذكر أسماء مصادرها سواءً أكانوا مندوبين أم وكالات أنباء فوق بداية كل مقالة إخبارية وكل خبر. أما تمييع اسم المصدر أو إخفائه تماماً أو الإيحاء به فيكون عادة ضمن الكتابات التحليلية شبه الإخبارية. فيقال مثلاً «مصدر مقرّب من فلان» أو «مسؤول رفض ذكر اسمه»... أما أكثر المسميات شيوعاً فهي «مصدر مطلع» الذي لكثرة رواجه حتى الابتذال في تغطية الأخبار المختلفة من قبل صغار الصحافيين، كان وراء اختراع تسمية جديدة من «العارفون» والأمر لا يشير هنا إلا إلى أفكار الكاتب أو ما سمعه في محيطه من مصادر غير جديرة بأن يذكر اسمها.

ولكن، وتدريجياً طرأ تغيير على عمل بائع الصحف. فظهر بائع الصحيفة الواحدة، الذي يختلف كثيراً عن سلفه. ومن ثم راح عدد الباعة يتضاءل بشكل ملحوظ وإن لم ينقرض تماماً.

والأسباب، لم يبحث الكثيرون في هذه الأسباب. هل بسبب الاشتراك بالجريدة ووصولها إلى البيت محل البائع الجوّال في الشوارع؟ هل فقدت عناوين الجريدة قدرتها على الإثارة بعدما فقدت طابعها الإخباري المفاجئ والمدهش؟ هل كثرت نقاط البيع؟ قد يكون السبب كل هذا دفعة واحدة. ولكن تاريخ الصحافة سيظل يتحدث عن بائع الصحف كبطل من أبطال هذه الصناعة على مدى أكثر من قرن ونصف القرن. تشهد على ذلك كثرة الأعمال الفنية والأدبية التي عرفته واعترفت بدوره في إضفاء لمسة إنسانية فريدة من نوعها على عالم الجريدة.



المحترف السعودي


المحترف السعودي


المحترف السعودي



محطات في عمرها المديد

1624م

صدور الصحيفة الأسبوعية الإنجليزية «ويكلي نيوز».

1645م

صدور الصحيفة الرسمية السويدية «بوست أوخ انريكس تدننغار».

1770م

صدور صحيفة «لو جورنال دي باري» أقدم صحيفة في العالم لا تزال تصدر حتى اليوم.

1789م

إعلان حقوق الإنسان الذي صدر في فرنسا يتضمن ما يأتي: «إن حرية نشر الأفكار والآراء تشكل أحد أثمن حقوق الإنسان. وبالتالي يمكن لكل مواطن أن يقول ويكتب ويطبع ما يشاء، على ألاَّ يتمادى في استعمال هذه الحرية بما يتعارض مع القانون».

1828م

صدور الصحيفة الرسمية المصرية التي رأس تحريرها حسن العطار، ثم رفاعة الطهطاوي (الوقائع المصرية).

1835م

رجل الأعمال الفرنسي شارل لوي هافاس يؤسس أول وكالة أنباء ويطلق عليها اسم «هافاس»، وهي الوكالة التي أممتها الدولة عام 1944م وصارت وكالة الصحافة الفرنسية.

1839م

جاك داغير يخترع وسيلة بدائية لطبع الصورة بواسطة لوحة معدنية مؤسساً لعالم الصورة الصحافية.

1857م

اللبناني اسكندر شلهوب يؤسس أول صحيفة عربية «السلطنة» في اسطنبول، وينقلها لاحقاً إلى القاهرة حيث توقفت نهائياً بعد سنة.

1876م

صدور صحيفة «الأهرام» في مصر، وهي أقدم صحيفة يومية عربية لا تزال تصدر حتى يومنا الحاضر.

1916م

السلطات العثمانية تشنق مجموعتين من الصحفيين في بيروت ودمشق، فتحول يوم شنقهم إلى عيد للشهداء عموماً في البلدين.

1923م

صدرت في أمريكا مجلة «تايم» وهي أول مجلة إخبارية في العالم.

1948م

تأسيس الجمعية الدولية للصحف التي تضم أكثر من 15 ألف مطبوعة من 90 بلداً، وجمعيات ناشرين من 54 بلداً و175 وكالة أنباء محلية وعالمية و7 جمعيات صحافية.

